هالة صلاح الصياد

غواية الفناء

ما تبقى من سيرة أبناء سرّي الجن

صفصاف

رواية

إهداء

إلى ابنتي شدن التي تعرف كيف تترك لي المساحة والوقت وتمنحني الهدوء اللازم للكتابة؛ مما يدل على مدى نضج عقلها ومشاعرها اللذين يتخطيان كثيرًا أعوامها الاثني عشر.

أمي وجدتي وخالي الذين صدعت رؤوسهم بالأسئلة عن تفاصيل تخص حياتهم الشابة لأستعين بها في الكتابة عن أزمنة لم أعشها بنفسي.

زوجي الحبيب وقارئي/ ناقدي الأول على الدوام..

شكر وتقدير

إلى كل الأصدقاء الذين تواجدوا معي على مدار الرحلة بقراءة المسودات وإسداء التعليقات الذكية والمهمة، وأخص بالشكر: مجموعة القراءة التي نُظمت من قبل مكتبة نقوش، الكاتبة أسماء الشيخ، المخرج محمد عطا الله، الكاتبين الكبيرين أستاذ جلال برجس وأستاذة بشرى خلفان، الناقد والكاتب محمد غمر جنادي، الكاتب والمحرر مصطفى زكي، الصديق والناشر محمد البعلي.

مدخل

تناولّت كف مالك، كان يلبس تي شيرت أحمر مع سروال جينز قصير، ألوان انشرح لها صدرها. مضت به يهرولان وقد تلبسها شعور بهيج بالحرية والانطلاق للمرة الأولى منذ مات أبوها، مالك مستسلم لقيادتها له، وهي لم تكن تعرف الطريق إلى جنة الألعاب وما كان ذلك ليخيفها، تعرف الطريق نحو كورنيش البحر بسهولة، ومن هناك تسأل الناس كما ترى الكبار يفعلون.

التصق مالك بها في سيرهما وقد بلغا قمة شارع ابن شعبة ثم انعطفا يمينًا ليقطعا المشير وصولًا إلى الكورنيش، شعر بنفسه صغيرًا والناس من حوله عمالقة مخيفين، استشعرت آلاء خوفه فمدت ذراعها تضم جسده، هي تفوقه طولًا بعدة سنتيمترات، تطلع إلى وجهها يستمد من ابتسامتها المشرقة أمانًا، آلاء شجاعة وجريئة في قراراتها، يطمئن بعض الشيء وقد بعثت سعادتها الثقة في نفسه. عبرا النفق المظلم مهرولين نحو الجهة الأخرى من الكورنيش، وحين بلغاها مودعين ظُلمة النفق إلى نور الشمس، عادا يمشيان على مهل للحظات قبل أن تتوقف آلاء وتتطلع حولها، شعرت بنفسها تائهة، رأت مالك يرنو إليها متسائلًا فابتسمت له تُطمئنه، لن تخبره أنها لا تعرف الطريق فيخاف، سيتضح كل شيء على مهل. ودب في جسدها نشاط مُعدٍ، حيث انبعثت داخلهما معًا رغبة في اللعب وقد خرما منه شهورًا عدة، مضوا يتقافزون فوق سور الكورنيش ثم ينزلان عنه حين يقطع طريقهما أناس جالسون.

وفي أثناء ذلك كانت الأرض قد دارت دورتها البطيئة، بدأ البحر يبتلع الشمس تدريجيًا، وشرع بائعو الذرة المشوي يشعلون النار في الفحم ويقومون بالتهوية عليه، ثم يضعون أكواز الذرة تُشوى فترسل رائحتها الشهية على طول الكورنيش، التقط مالك الرائحة فشعر بمعدته تتقلص جوعًا، أخذته آلاء إلى أول نصبة ذرة صادفاها في طريقهم. على الرصيف أمام النصبة، تجلس سيدة مكتنزة في جلباب ذي شمرة معكرة بالتراب، تتناول أكواز الذرة وتقشرها ثم تضعها على الفحم بيد، بينما تحرك قطعة من الكرتون فوق الذرة المستلقية على الفحم بيدها الأخرى.

- عاوزة أربعة لو سمحتي..

قالت آلاء بينما تفتح سوستة حقيبتها عن فرجة متناهية الصغر، وتتطلع حولها خوفًا من أن يلحظ نقودها غريب شرير. رأت السيدة المئة جنيه بين أصابعها فاتسعت عيناها نهمًا مثل قط جائع، بينما تضع لهم كيزان الذرة في قشور خضراء تسحبها من صندوق كرتوني جوارها.

- هاتي فكة من بابا يا حبيبتي، هو بابا فين؟

كان مالك على وشك أن يتكلم، فقاطعته آلاء مشيرة إلى رجل وامرأة يجلسان على مسافة منهما على سور الكورنيش

- بابا معهوش فكة يا طنط، أهه هناك.

تطلعت السيدة نحو الرجل والمرأة المسنين بشيء من الدهشة، ثم سألت آلاء وهي تقلب عينيها بانتباه بين النقود ووجه آلاء:

- أبوكي وأمك دول ولا ستك ولا جدك؟

اقترب شاب أشعث الشعر، غامق الشمرة، حافي القدمين ووقف جوار السيدة يتابع الحوار وهو يتطلع نحو المئة جنيه في كف آلاء.

- لأ بابا وماما زي ما قولتلك، مفيش فكة، حتلاقي باقي؟

كان سؤالها بمثابة إشارة للشاب، انطلق مبتعدًا بينما تخبر السيدة آلاء أنه سيحاول البحث عن فكة.

- حسابك أربعة جني يا حبيبتي.

اعترضت آلاء قائلة إن كوز الذرة بربع جنيه فقط وليس جنيهًا، وضعت السيدة الكيزان التي كانت قد لفتها لها جانبًا:

- ده حجمه كبير، ودي أسعارنا يا حبيبتي، روحي استأذني أبوكي لو عاوزة!

ارتبكت آلاء وهي تحرك رأسها بين السيدة والمسنين، لو لم تذهب لسؤالهما ربما تكتشف السيدة حيلتها، تناولت كف مالك وتحركت به نحو المسنين على مهل ريثما ترتب أفكارها، لكزها مالك خائفًا ثم همس:

- إيه حتعملي إيه؟

- إصبر عندي فكرة..

سارت نحو الزوجين بخطوات واثقة حتى صارت أمامهما:

- عمو من فضلك الساعة كام؟

رفع الرجل ذراعه وراجع ساعته، ابتسمت لهما العجوز ابتسامة لطيفة وسألت بملامح يبدو عليها بعض القلق:

- أنتوا لوحدكم ولا إيه يا حبايبي فين بابا وماما؟

أشارت آلاء سريعًا نحو سيارة مركونة على الكورنيش قائلة إن بها بابا وماما. رد الرجل بأن الساعة الآن السادسة. شكرتهما آلاء وعادت نحو السيدة التي كانت تراقبهما طوال الوقت، أخبرت آلاء السيدة أن والدها يقول بأن الكوز الكبير سعره نصف جنيه وليس جنيهًا، وافقت السيدة على مضض.

تناولت آلاء كيس الذرة وتحركت مبتعدة بمالك نحو العجوزين، تريد أن تجلس جوارهما لتحبك خطتها على بائعة الذرة، تبادلا ابتسامات متوترة مع العجوزين. جلسا باتجاه البحر بينما يلتهمان الذرة بنهم. تدفعهما شدة الجوع إلى التغاضي عن سخونته التي تلسع ألسنتهما. شيئًا فشيئًا راحت شدة الجوع وحلت متعة مضغ الطعام على مهل، وانسلت نسمات الهواء تحرك شعريهما خفيفًا وتلطف من حرارة الشمس على وجنتيهما، وأحاط بهما صوت عمر دياب منطلقًا من السيارة المصفوفة خلفهما على الكورنيش يقول:

أنا غيرت خلاص عنواني

وقدرت أرجع وأعشق تاني

ما هو مش ممكن أبقى لوحدي

متعودش أعيش وحداني

ابتسمت آلاء وقد انتبهت لكلمات الأغنية، فأحست وكأنها تخاطبها أو كُتبت من أجلها خصيصًا وكانت الجملة الرئيسة التي تتكرر بين المقاطع: «وأنا غيرت خلاص عنواني، وقدرت أرجع وأعشق تاني» تؤكد لها ما تشعر به، حتى بدأت تدندن بها وهي تلتفت إلى مالك المنهمك مع حبات الذرة يملأ بها فمه ويلوكها سريعًا، كان هو من تعشق وكان الآن عاشقًا لكوز الذرة، وعند نهاية الأغنية حين يخفت الصوت تدريجيًا تتخيل آلاء أن شخصًا ما يشد عمرو دياب بعيدًا عن المايك كي يكف عن الغناء، وحين انتقل الغناء إلى «حواليك قلوب قلوب، بتميل عليك وتدوب» انتبهت إلى كلماتها أيضًا ولكن الصوت انقطع فجأة وتزامن مع انقطاعه صوت العجوز تصيح فزعة:

- حبايبي بابا وماما مشيوا!

التفتت آلاء خلفها لترى السيارة التي كانت قد أشارت نحوها انطلقت مبتعدة على شارع البحر، قالت بصوت جاهدت أن يبدو واثقًا، مطمئنًا:

- هما قالولنا نستناهم هنا لحد ما يشتروا حاجة بسرعة ويرجعوا.

ضربت السيدة صدرها بكفها:

- أحيه حيسيبوكوا لوحدكم؟ أنتوا صغيرين جدًا ممكن تتخطفوا، مش كده يا عبده؟ عندك كام سنة يا حبيبتي؟

- آه صغيرين، صغيرين خالص. أومأ زوجها موافقًا.

نهضت آلاء وأخذت كف مالك، ترغب في الابتعاد عن تلك السيدة التي لم تكف عن الأسئلة. تنظر حولها وهي تستغيث بعقلها أن ينتشلها من مأزق جديد، وما إن وقع بصرها على ذلك الرجل جالسًا وحده على مسافة من الزوجين، حتى أشارت نحوه قائلة:

- لأ ما هو عمنا قاعد هناك يا طنط.

وشدت مالك تهرول مبتعدة نحو مجلس الرجل، كانت السيدة تقول شيئًا لم تسمعه ولم ترجع على أثره، أرادت فقط الابتعاد. سحبت مالك من كفه تركض به حتى غابا عن أنظار بائعة الذرة والزوجين جميعًا. ومضوا بخطى متمهلة على الكورنيش وقد غابت الطاقة والرغبة في اللعب إلى شيء من الإرهاق والخوف، وكانت الأرض قد استكملت دورتها حتى غيبت الشمس إلى ظلمة تقطعها المصابيح الكهربائية مرسلة خطوطًا خافتة من نور أصفر، بدا الطريق على أثره شبحيًا، كئيبًا،على نحو ما.

تمتم مالك يشتكي جوعًا وتعبًا، بينما تشجعه آلاء على المضي قدمًا، وقد بدأت أسنان الخوف تنزع عنها طمأنينتها، إلا أن خطوات مالك ثقُلت حتى خزن متجاهلًا كل محاولات آلاء لدفعه إلى استكمال المسير، اضطرت أن تتركه يرتاح قليلًا على سور الكورنيش، ووقفت قبالته تتطلع حولها، رأت شابًا يقترب نحوهما فعرفته على الفور، كان هو نفس الشاب الذي أتى لسيدة الذرة بالفكة! شدت مالك من ذراعه بقوة، كاد يسقط بسببها لولا أن رجع بجسده إلى الخلف:

- في إيه؟

- يلا حنمشي بسرعة..

- لأ!

- يلا بس..

- بردو لأ!

- الراجل الشرير حيسرقنا! جاي أهه بص..

وانفتحت عيناه رعبًا، فقفز عن السور وأخذ كفها بكفه المرتجفة، وانطلقا يركضان، التفتت إلى الوراء فرأت الشاب قد شرع هو أيضًا يركض باتجاههما، مما جعلها تزيد من سرعتها ومالك يكاد يُجر من ورائها جرًّا، تلف رأسها بين الشاب خلفهما وبين الطريق أمامهما إلى أن فوجئت بصالح ونجوى يركضان نحوهما بأوجه يلوح عليها مزيج من الفزع والغضب، إلا أنها وجوه أليفة أرسلت إلى قلبيهما تلك الطمأنينة بعد الهلع، ذلك الشعور بالنجاة الذي أرسل دموعهما تنهمر متساقطة من أعينهما الصغيرة الواسعة.

الفصل الأول

جانب من أوراق «سري علي مصطفى محمد سليمان الجن»:

أما أنا فقد ذقت العذاب منذ عرفت الحياة وحتى وصلت إلى الثمانين من عمري الذي قضيته في تعاسة وبؤس، فلقد حملت أمي وإخوتي على رأسي وكفلتهم جميعًا تقريبًا، وكانت المحبة والعطف والتراحم متبادلة بيننا جميعًا، ما عدا الكلب الأخ الأكبر مصطفى لعنه الله، وكما قال الشوام (كل بيت وفيه خرابة) أي مرحاض -فقد كان مرحاضًا قبيحًا، كريه النفس ظالمًا ظلمًا، ذهب إلى الجحيم 1975 بعد أن أكل أموال العائلة (وعذب أفرادها)- أما أنا فعلاوة على كوني كنت كبير العائلة الساهر على مصلحتها تزوجت وأنجبت داود وتمام وإسماعيل ودرية وعايدة ولقد خضت المستحيل وأكثر من المستحيل في سبيل تربيتهم وتعليمهم حتى أوصلهم بعون الله إلى القمة، وغرقت أنا في العذاب والبؤس والتعاسة في سبيل إسعادهم وها أنا مريض منذ سنوات عديدة بالقلب وأنتظر الموت من ساعة لأخرى من المرض الطويل الذي قاسيته، وها أنا أقابل الموت بنفس راضية مطمئنة وقد أوصلت أولادي إلى بر الأمان وكل ما أرجوه أن يرعاهم الله، ويأخذ بيدهم ويسترهم وأن يغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

وفاتني أن أقول إنني ليس لي عم ولا خال ولا عمة ولا خالة على قيد الحياة، وتقريبًا لا أقارب اللهم إلا أولادي وأولاد إخوتي.

والحمد لله رب العالمين

10 أبريل 1975

1

أبريل 2018

آلاء على طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي.

هذا الرجل على كرسي القيادة، لا يشبه أبي في ملامحه على الإطلاق. يتكلم فيخيل لي أنني أسمع صوت أبي. وصوت أبي ذاك لم أعتد سماعه إلا من خلال حجاب، فكلما نطق الرجل بكلمة تقذف نبرة صوته بعقلي إلى منطقة رمادية أشبه بالحلم، إذ إنني لم أكن لأذكر لأبي صوتًا ولا صورة لولا عدة شرائط فيديو قديمة احتفظت بها أمي، ثم حولتها أنا إلى صيغة رقمية. بمرور الوقت اكتسبت عادة غريبة، إذ كلما حانت الذكرى السنوية لرحيل أبي وقبل أن أصحب أمي إلى المقابر من أجل زيارته، كنت أشغل جانبًا من تلك الفيديوهات لأتأكد أنه كان لي بالفعل أب، وأن وجوده لم يكن محض خيال، وأن ذاك الحجر الذي نقف أمامه لاهجين بالدعاء ليس مجرد حجر يتوج أرضًا بطنها فارغ، حاملًا نقشًا باسم أبي، لم أرهم ينزلون جثمانه إلى قلب الأرض، فلم يصدق عقلي قط أنه بالداخل!

تقول أمي: «تكلمي معه إنه يسمعك» وأنا أبقى صامتة مهما ألحت، لا أرى أمامي إلا حجرًا، فكيف لي أن أكلم حجرًا! إلى أن امتنعت عن زيارته لأنه مات كافرًا ولا يحق له أصلًا أن يُدفن هنا بين المسلمين، لم أقل لماما ذلك لئلا ينكسر قلبها، ثم عدت إليه مرة واحدة بعد أن دفن جدي إلى جواره، هناك رأيت ذلك الغريب للمرة الأولى، يبكي جدي وأبي، يلتحم في حضن جدتي فلا تفلته، تقول «ابني رجع» تقول «مصطفى» وتمطها، وأسمع لندائها وقعًا غريبًا على أذني، ليس لسانها هو الناطق بالاسم، يخرج من أعماق صدرها، تكرره وتنوح به، ترغب في تعويض كل السنين التي حرمت فيها من نطق الاسم. وصرخ عقلي ذهولًا، يجيء الموت فتتفجر الأسرار سائلة، وتذوي عنها قدسية السنين وكأنها لم تكن، كنت على نفس حالي حين رأيت مشهدًا جنسيًا للمرة الأولى على إحدى القنوات الفضائية حين خلا لي البيت، ها هو عضو الرجل يخترق مهبل السيدة، هكذا يحدث الأمر، بكل تلك البساطة تتساقط الأسرار التي سعيت وراءها طويلًا وتتكشف عن عضو يخترق عضوًا! «يا أحفادي إن لكم عمًا يدعى مصطفى، وهو حقيقة وليس أسطورة تتهامسون حولها سرًا» ماذا عن بقية السر؟ ماذا عن النشوة نفسها التي تتوج الفعل الجنسي؟ هل تحكي نعمة لم تُبذ مصطفى وفحيت سيرته طوال كل تلك السنوات؟

على المقعد الخلفي للسيارة كيس تقبع فيه ملفات عدة، أرى من خلال غلاف الدوسيه الشفاف المتصدر كوم الملفات، خط جدي برقعته المميزة، وحروفه الكبيرة الواثقة، منحوتة

على الورق، بأقلامه الستدلر حمراء وزرقاء وخضراء.

تقول أم كلثوم: «الليل وسماه، ونجومه وقمره، قمره وسهره، وإنت وأنا يا حبيبي أنا» ينساب صوتها عبر كاسيت السيارة خافتا، ملقيا بستائر مخملية على الأسفلت، تمنح الطريق قوام الأحلام، وخطوط النور الصفراء، الرشيقه، تمد أذرعها الطويلة فتستقبلنا، ثم تسلمنا بعضها إلى بعض، عائدين إلى الإسكندرية!

أجلس في تلك السيارة المستأجرة، أختلس النظرات إلى غريب يخترض به أن يكون عمي! أحاور أفكاري لأنه كيف لي أن أتبادل أي كلمات مع ذلك الغريب الذي ما رأيته إلا عند قبر جدي يبكيه وكأنه ابنه بحق! إذا التقت عيني بعينه، هربت بسرعة إلى الطريق، يطوى أسفل عجلات السيارة، فيبدو لي أنه سينتهي سريعًا، إلا أنه لا ينتهي، إذ تصدم عيني لافتة تُخبرني ببرود متناهٍ:

الإسكندرية

195 كيلو

2

أغسطس 1994

آلاء كرم داود، فندق المتروبول.

الشمس في طور عنفوانها تتوسط سماء بلا سحب، البحر نائم وزرقته معكرة، أشجار النخيل ثابتة كلوحة فوتوغرافية لا يهينها الزمن. قاعة الاستقبال لفندق المتروبول تطل من خلال نوافذها الزجاجية الضخمة، المقوس أعلاها، على شارع صفية زغلول، ستائرها الكلاسيكية المموجة تحجب ما يزيد على نصفها قليلًا. خلف آخر تلك النوافذ جهة الشمال تجلس آلاء متململة، لا يكاد جسدها الصغير يبين داخل الكرسي الكلاسيكي الأحمر.

كشك الجرائد أسفل الشباك يخايلها، عم سعيد رجل لطيف، بإمكانها أن تطلب منه العدد الجديد من «المغامرون الخمسة» وتخبره أنها ستدفع لاحقًا، لا ستخجل... الجميع منشغلون عنها فلن تتمكن من الحصول على نقود. سافر أبوها إلى مكان تجهله ولم يرجع بعد، فكرت إذًا في جدها داود ولم تكن جاءت في صحبته إلى الفندق اليوم. نهضت تخطو بخفة حريصة على الالتزام بقاعدتها في عدم لمس الخطوط الفاصلة بين بلاطات الأرضية الجرانيت الشبيهة برقعة شطرنج، تمد قدمًا على إحدى البلاطات البيضاء الممزوجة بشعرات من اللون الكستنائي، ثم تضع قدمها الأخرى على بلاطة موازية تحمل ألوانًا معاكسة لسابقتها، كستنائية ممتزجة بشعيرات بيضاء، مرت من جوار الحائط المنتصب أمامه البيانو المصنوع من خشب الزان ومن فوقه ثلاثة تماثيل رخامية صغيرة، تلكأت أمامه قليلًا مشدودة إلى إغراء مفاتيحه البيضاء المصنوعة من العاج، لكنها قهرت تلك الرغبة واستكملت لعبة الانتقال بين البلاطات حتى بلغت قفص الأسانسير المصنوع من الحديد الأسود المشغول، فاختبأت بينه وبين الدرج، أطلت بجسدها الصغير تنظر نحو عمها صالح الواقف خلف طاولة الاستقبال، اطمأنت أنه ليس منتبهًا إليها فمدت قدمها إلى السلمة الأولى المختبئة تحت السجادة الحمراء المزركشة الممتدة على طول السلالم، قبل أن تركض صاعدة نحو الدور الأول حيث مكتب داود، تسللت بخفة إلى مكتبه وحين أمالت رأسها عبر باب المكتب الموارب، شعرت به مقفرًا وهو خال منه، فانطفأ توهج صدرها وعادت خائبة المسعى نحو قاعة استقبال الفندق الواسعة. على الصالونات الكلاسيكية المتناثرة في أرجاء القاعة يجلس أناس من جنسيات متعددة، خلف طاولة الاستقبال يقف عمها صالح ومن أمامه العديد من النزلاء، تتغير الوجوه حوله ولا تقل الأعداد بل تتكاثر.

كل ما يفصلها عن مغامرة جديدة هو خمسة وعشرون قرشًا لا أكثر، تنهض عن كرسيها

وتقترب من النافذة الزجاجية الكبيرة، ترسل بصرها.. الكتب المتراصة أمام الكشك الخشبي يلمع غلافها الشفاف تحت أشعة الشمس كجواهر براقة، هي جائعة، متلهفة، تستخرج عددًا قديمًا من حقيبتها وتقرأه في تململ، عيناها تترددان بين عمها والكشك أكثر مما تتابعان سطور الرواية التي انتهت من قراءتها الأسبوع الماضي. أناس يقتربون من الكشك، يبتاعون جرائد، مجلات، روايات.. لا أحد يشتري عدد مغامريها الخمسة، تنفض الكتب من حوله تدريجيًا، تراه يشتاق إليها كما تشتاق إليه، في مراقبتها للشارع لمحت لونًا مخالفًا يخطو مقتربًا، رجل غامق السمرة كالشبح الأسود عدو (ميكي)، شعره مجدول في ضفائر طويلة، تلك لقطة مألوفة لديها، إنها تعرفه جيدًا، قامت من على المقعد، اقتربت من النافذة وألصقت وجهها بزجاج الشباك بين كفيها المنفرجتين. نعم، لقد رأت ذلك الرجل من قبل، لا، لقد رأت المشهد كله سابقًا، الآن سوف يخطو نحو كشك الجرائد ويبتاع عدد المغامرون الخمسة خاصتها، العدد الوحيد المتبقي عند عم سعيد، هل تسمح له؟ ليس من حقه أن يظهر هكذا ويبتاع الكتاب لمجرد أن معه نقودًا، هي صديقة وفية تراقب الكتاب وتنتظره منذ أمد طويل، الرجل الإفريقي يتوجه نحو الكشك بخطوات ثابتة، تعلو دقات قلبها، هل يحاكي الواقع حلم الليلة الماضية؟ إنه شبحها الأسود ينقض على غنيمتها بمنتهى البساطة، عليها أن تكون جسورة كميكي، أن تحارب لا أن تراقب، لكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ الأمر بسيط، فلتكف عن الخجل، تطلب العدد من عم سعيد والدفع لاحقًا، الشبح الأسود يتكلم مع عم سعيد، يشير بأصبعه نحو ما لا يمتلكه، يسحب عم سعيد العدد فينطفئ نور الشمس من على غلافه، يقتله الشبح الأسود بدسه داخل حقيبة ظهره، لو لم تكن بهذا القدر من التردد والخوف ما خسرت معاركها بكل تلك السهولة، ها هو الشبح يمشي مبتعدًا تعلو ابتسامة الانتصار ملامحه، يلتفت نحوها، يبادلها النظر بتشفٍّ واضح وصريح، يرفع كفه بتحية مستفزة لا تردها، تراقبه بينما يتلاشى مبتعدًا نحو ناصية الشارع، وقد حجبه عنها الجدار الجانبي لشباك الفندق.

3

من حقيبة ظهرها سحبت أجندة العام، غلافها الكرتوني مدهون بـ «1994» بحروف لاتينية أسفلها بنقش ذهبي «Le Metropole Hotel». جلست آلاء على حافة المقعد الكلاسيكي الوثير، أمالت جذعها، وأسندت دفترها على الطاولة الخشبية، قرت صفحات الدفتر المدهونة كل صفحة منه بيوم من أيام العام، وصولًا إلى صفحة خالية، تركتها وانتقلت إلى ما تليها، تناولت مسطرتها ثم قسمت الصفحة إلى ثمانية مربعات متساوية. تركت الصفحة على حالها وعادت نحو الصفحة الخالية، بقلم رصاص 6B شرعت في رسم شبحها الأسود كما رأته، ملامح وجهه بارزة، يتصدرها أنف ضخم وشفتان ممتلئتان، عينان صغيرتان حمراوان، ابتسامة شريرة متشفية، شعر ضخم مجدول في ضفائر سميكة تحيل رأسه إلى ما يشبه رأس ميدوسا، رفعت دفترها أمام وجهها متفكرة، تنقصه قرون الشيطان، وضعت الدفتر ثم أضافت القرون، في الصفحة المقابلة لرسم الشبح، رسمت بطلتها الخارقة، صغيرة الحجم ولكنها تنظر نحو الشبح في تحدٍ لا مبالٍ، واثقة أنها ستهزمه بلا عناء يذكر.

فيما هي منهمكة في الرسم والتأليف، كانت صالة الفندق من حولها تضطرب بحركة غريبة، يدخل مخبرون في الزي المدني، تلمع الأضواء الحمراء والزرقاء لسيارات الشرطة المتوقفة أمام مدخل الفندق، يقف ضابط بالزي المدني أمام صالح مفرقًا النزلاء من حوله، يملي عليه أمر التمكين وهو يطلعه على حكم المحكمة، فيما يطلب آخر من العاملين بالفندق بترك أماكنهم والخروج.

آلاء مندمجة في رسم قصتها، حيث يهزم الشبح البطلة الخارقة في البداية، ثم تنتصر عليه في الجولة الأخيرة. خلال القصة، داخل المربعات يكبر حجم البطلة تدريجيًا مع كل مساعدة تقدمها لشخص ضعيف، بينما يصغر جسد الشبح مع كل تصرف يؤذي به كائنًا حيًا، طفلًا، قطة، كلبًا.

يطلب صالح من العاملين ألا يستجيبوا للأوامر، ولا يخرجوا من الفندق، وأن يتشبثوا بأماكنهم إلى أن يستطلع حقيقة الأمر، ينصاعون له، يعلمون أنهم لو خرجوا فقد انقطعت أرزاقهم، يتهامسون عن زملائهم الذين غابوا اليوم دون إنذار مسبق، هل علموا مسبقًا بتلك الواقعة فغابوا؟ ينساب من الباب رجال بوليس في زيهم الأسود يخترقون الزحام متوجهين ناحية صالح.

داخل قصة آلاء، ينكمش الشبح الأسود حتى تضعه البطلة داخل كفها، يرتجف الشبح وهو يتحرك متعثرًا بين أخاديد كفها الضخمة، ترمقه البطلة بعيون لائمة، لو أرادت ستغلق كفها

على جسده فينسحق ويموت، لكنها تتذكر كلمات تيته نعمة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «العفو عند المقدرة»، تطلق البطلة سراح الشبح الأسود.

يقف سيد محروس محاسب الفندق بين العاملين بعيون محمرة وصوت أجش جهور، ملامحه تنطق بآثار السكر والسهاد فلا تخطئها عين، يصيح في القاعة معلنًا عن اتفاق تم في الخفاء بين زملائهم الغائبين والمالك الجديد، كُتبت قوائم المفصولين، ورفعت الأقلام وجفت الصحف، فإن هم خرجوا الآن فلا يرجون عودة ولا ينتظرون إلا معجزة بعمل جديد في فندق آخر يرتق أرزاقهم المقطوعة، البطالة مصيرٌ لا ريب فيه، يضطرب العاملون فيما يحاول رجال الشرطة بلوغ مكان سيد، يحوطه زملاؤه فلا يسمحون لهم بالمرور.

في قصة آلاء لا يشكرها الشبح الأسود على عفوها وإنما ينطلق مبتعدًا عنها، تدرك البطلة أن الشبح سيختبئ حتى يتعافى ثم يعاود ممارسة شره على العالم، تدرك ذلك ولا تخشاه، لأن البطلة هنا تقف له بالمرصاد، تتوق إلى مغامرة جديدة تهزم فيها الشر ليصير العالم مكانًا أفضل، تنتفض على وقع كف تهبط على كتفها، تنتبه لما حولها فتساورها الدهشة!

ترفع رأسها لترى «آلين» وهي سيدة فرنسية وواحدة من النزلاء الدائمين بالفندق، وقد اعتادت آلاء أن تلعب مع ابنها كريم، كان وجهها مصفرًا من فرط الخوف، تشد كفها اليمنى على كف ابنها كريم بقوة بينما تسحب آلاء من على كرسيها بكفها الأخرى، تقول بصوت مبحوح وأنفاس لاهثة:

- Allez, bouge vite avec moi

تحاول آلاء أن تجمع أشياءها، الأجندة، الأقلام، عدد الأسبوع الماضي من «المغامرون الخمسة»، لكن اضطراب الحركة وتكاثف الناس فيما حولهم لا يتيحون لها الفرصة. تشدها آلين وتمضي بها نحو الباب بين حشود البشر يتحركون في الاتجاهات جميعًا، حقيبتها التي التقطتها بيدها الأخرى مفتوحة، ألوانها وأوراقها تتساقط من الحقيبة فتدهسها الأقدام المتدافعة هنا وهناك.

4

يونيو 2008

زهير فؤاد، السيدة زينب، القاهرة.

ارتقى زهير الدرج الضيق حاملًا مرتبته الصغيرة بصعوبة بالغة، تعثر عند السلمة الأخيرة قبل الطابق الثاني فاندفع جسده مصطدمًا بباب الشقة أمامه وسقطت الحاشية منه. عندما انحنى ليرفعها سمع باب شقة ينفتح، ورأى سيدة قصيرة، ممتلئة الجسد، يشف جلبابها المبتل عن صدر هائل الحجم هزمته الجاذبية فتدلى، بادرته سائلة وقد ظنت أنه طرق بابها:

- خير يا اخويا؟

كان زهير يجاهد في لم مرتبته، يتخبط طرفاها بين جدار السلم والحائط بين البابين، كاد أن يخبط السيدة على الباب فتراجعت معترضة:

- حاسب الله! أيوه عاوز إيه؟

قرر أن يطويها من منتصفها، ذهب عند طرفها مقابل باب السيدة، وتناوله ثم رفعه وشد المرتبة الإسفنجية عليه ثم مد ذراعه يحاول ضغطها عند منتصفها، كي يطوي الطرفين بعضهما فوق بعض. قال وهو يلتقط أنفاسه:

- آسف يا حاجة، أنا مخبطتش، أنا اتخبطت في الباب غصب عني.

- ساكن جديد؟

- أيوه.

- أهلًا وسهلًا، بس فين؟

- في الخامس.

ضربت السيدة صدرها بكفها وهي تصرخ:

- يا لهوي، عند العفريت؟

لم يتمالك زهير نفسه من الضحك، وقد تمكن أخيرًا من رفع مرتبته مطوية إلى نصفين أسفل إبطه. وأراد أن يستكمل الأدوار الثلاثة المتبقية.

- بتضحك؟ تلاقي عبده النصاب لقاك ساذج قام ضحك عليك، خسارة شبابك يا ابني، متقعدش في الشقة دي!

- طب العفريت ده ساكنها ليه يا حاجة؟

سألها وهو يتحرك مبتعدًا نحو الطرف الآخر من الطابق ليرتقي السلالم، لو كانت يده خالية، لاستغل الموقف في تبادل الحوار مع تلك السيدة الطريفة. لطالما آمنت أمه بوجود الجن إلا أن إيمانها له نكهة مختلفة، إذ إنها شديدة الثقة بأنهم لا يقربون بيوت المسلمين حيث تقام الصلوات ويتلى القرآن حصنًا وبركة، وهو يحب أن يسمع من جارته عن العفريت، ما فعله بهم وما رأته منه، لشد ما يؤمن بقدرة العقل على صنع الأعاجيب إن تجذرت به القناعات. قالت السيدة بصوتها الجهوري:

- ده عفريت الراجل اللي انتحر في البيت من عشرين سنة، ريحة جتته مفارقتش العمارة لحد دلوقت، مش شامم؟

الحق أن البناية تنضح برائحة نتنة، صادرة من براز الدجاج عند المتجر أسفل العمارة، وما خمن زهير أنه بول الأولاد الذين يلعبون في الشارع، مخلفات المجاري ربما أو الغسيل، مقلب القمامة على رأس الشارع، فضلًا عن أن الشارع نفسه سوق متسخة أرضها بكل أنواع مخلفات الطعام، فكر زهير أن الرجل المنتحر بريء من تهمة إلصاق كوكتيل الروائح الكريهة هذا به.

والجارة صوتها مُجلجل كأجراس كنيسة، فتحت جارتها باب الشقة الآخر وخرجت تتطلع نحو زهير أولًا ثم سألتها:

- خير يا أم مريم؟

- الواد ده حيسكن في شقة العفريت!

حاكت السيدة الأخرى فعلها إذ ضربت أيضًا كفها على صدرها المُكور صارخة: «يا لهوي!».

أراد زهير فؤاد أن يستكمل صعوده قبل أن تنفلت منه قهقهة فتظنان أنه يسخر منهما، قد تضربانه ضربًا مبرحًا لا يرى من بعده نهارًا.

- آسف على إزعاجكم حقيقي، حطلع أشوف ولو لقيت العفريت حمشي..

قالت المرأة بنبرة غاضبة تلوح فيها بوادر الانفجار في الشاب:

- يا لهوي ده بيتريق علينا يا أم مريم!

قال معتذرًا بصدق وحرارة:

- لا والله أبدًا!

وانطلق يعدو على الدرج بينما السيدتان تمصمصان شفاهًا مائلة «بتسييييي». قالت السيدة الأخرى إنهما حذرتاه وإنه سيندم على استهانته بالأمر.

فتح باب الشقة أخيرًا وألقى بالمرتبة على بلاط الصالة الصغيرة، ثم ألقى بجسده عليها وهو يشهق ملتقطًا أنفاسه. التقط سيجارة من جيب قميصه وأشعلها، يتذكر كلام السيدتين والمصمصة التي أصدرتاها للسخرية منه فضحك لتتردد ضحكته بين جنبات الشقة الخالية. أعجبه الصدى فنادى:

- ما تحضر يا عم العفريت تلعب لنا دورين كوتشينة..

انتهى من سيجارته فأطفأها وهو يشعر أنه استرد طاقته، قام نشيطًا وقد سبق وجهز أدوات التنظيف. من حسن الحظ أن الشقة متناهية الصغر فلن تتعبه في تنظيفها، قام فرفع المرتبة سانِدًا إياها على الحائط، فتح كل نوافذ الشقة الصغيرة والتي لا تطل إلا على مناور. انسابت الرائحة الحادة المختلطة التي تصدم أنفه كلما عبر باب البناية، فاندفع يغلقها يائسًا من العثور على هواء نظيف يجدد ريح الشقة.

جاء زهير فؤاد إلى القاهرة محمولًا على منحة «ما بعد الإنتاج» لفيلمه القصير الأول، وقد اكتشف بعد انقشاع نشوة السعادة أن مبلغ المنحة قد يغطي بالكاد تكاليف مونتاج الفيلم دون تلوينه حتى، الإجازة التي سُمحت له بعد عناء، ليست مدفوعة الأجر، مدخراته سوف تنفد سريعًا إن لم يجد بالقاهرة عملًا، وهو أمر غير يسير كما أخبره بذلك صديقه وبلدياته ساري صادق، الذي سبقه في الهجرة إلى القاهرة منذ سنوات عدة. الحق أنه لم يفهم في البداية سر الإيجار المنخفض والاستثنائي لتلك الشقة بالذات، حتى داعبه البواب بسيرة العفريت وهو يؤكد أنه بالطبع شاب متعلم ومستنير ولن يهتم لتلك الخرافات! شعر حينها أنه محظوظ، إذ إن أسطورة العفريت مكنته من استئجار شقة ليست بعيدة عن وسط البلد بسعر لم يكن ليحلم به.

الشقة عبارة عن صالة صغيرة وغرفة بنفس الحجم وحمام ومطبخ لا يتسعان إلا لفرد واحد، وقد استلمها خالية إلا من دولاب خشبي صغير متهالك، قال للسمسار حين سأله عنه أن يتركه: لمَ لا؟ سوف ينفع! بعد أن فرك الأرضيات بدقة، قرر أن يمسح رفوف الدولاب القديم بخرقة مبللة قبل أن يسلمه أمانة الحفاظ على ملابسه. وإذ هو منهمك في مسح قعر الدولاب أسفل المساحة المخصصة لتعليق الملابس يرى عثة فيقتلها، لكن تظهر واحدة ثانية، ثم ثالثة، يحاول أن يتتبع مصدرها، من أين تأتي؟ توقف عن المسح وأخذ يراقب حتى رأى واحدة تخرج من بين فرجات صغيرة في خشب قعر دولاب، عندها فقط انتبه إلى أن تلك

المساحة بين الأرض وقعر الدولاب ليست مصمتة وإنما هي مساحة تخزين مخفية عن طريق إغلاقها بقطعتي أبلاكاش، ودق عليها بقبضته فسقطت سريعًا ودون مجهود وبانت قطعة من صندوق كرتوني أسفلها، رفعها ثم سحب الصندوق يتفصحه، بداخله وجد ملفات مكتظة بأوراق مصفرة، وأظرف بنية مليئة بصور قديمة مؤرشفة تبعًا لتواريخ التقاطها، وقد نسي ملابسه والدولاب وموعدًا هامًا مع المونتير، إذ تاه بين غيابات الصندوق وقد عرف الآن المشروع الذي سوف يتقدم به إلى منحة «جدائل» التي أعلنت عنها مؤسسة «وصال»، مشروع يمزج بين نوعين من الفنون، وبين يديه تأريخ شفهي موثق بالصور الفوتوغرافية، شكرًا للعفريت!

ورفع الورقة الأولى يقرأ منها:

كرم داود في 6 أغسطس 1994 ، السيدة زينب، القاهرة

أنا كرم داود سري الجن، لست أكتب هنا لأبرئ نفسي، فإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، وإنما أكتب لأدين نفسي، وأجعل من الورقة مرآة تعكس روحي، لربما أراها أخيرًا وأفهمها! وأنا إذ أكتب أرى الورقة تحال بالفعل أمام ناظري مرآة عاكسة وتنكشف لي مكنونات صدري بقعًا متداخلة من الألوان يغلب عليها بوضوح اللون الأسود، يليه في ذلك لون أصفر باهت في مادة سائلة تتحرك حرة بين بقية البقع وتحوطها، بل تخنقها وتتسلل إليها فتمتزج بها وتفقدها بريقها، إنه لون الخوف داخلي، يتسلل إلى ذلك اللون الأحمر الذي وزع نفسه رقعًا صغيرة منتشرة داخل مساحة صدري كلها، فيعكره ويُذهب عنه صفاؤه، فلا أعرف كيف أمنح الحب، ولا كيف أتلقاه، وأرى في قوام السائل الأصفر خطوطًا سوداء صغيرة وكأنها نمل، أحدق فيها لأتبينها فيتضح لي أنها كلمة من ثلاثة حروف: «كرم» أتتبع المصدر الذي يبعث بالسائل الأصفر إلى رقعة بنية ضخمة قوامها كلمات صغيرة وكثيرة ومتجاورة، أدقق النظر فاجدها لا تتعدى كلمتين متكررتين؛ كرم وأنا!

ومن تلك البقعة ينساب السائل حاملًا فتاتًا من تلك الكلمات معه كماء الشلال حين تجرف صخورًا صغيرة عن الجبل، ومن تضخم الأنا يسيل الخوف، ومن سيلان الخوف تُنحت الأنا وتنهدم تدريجيًا، ومن تسلل سائل الخوف بين بقية المشاعر تتسلل الأنا فتغدو المحرك الرئيسي لها. رأيت ولم أقوَ على الإنكار، هل من قوة تُصلح ما فسد داخل ذلك الصدر العجيب؟

ورأيت كلمة تومض في قلب المشهد بلون كلون الحب: «اعترف» قُل لنفسك إنك لست محور العالم، وأن لا أحد يدين لك بأي شيء واكتب داخل ذلك الصدر؛ داود، نعمة، مصطفى، صالح، نجوى، آلاء، يوسف! أين هم منك؟ ولم لا تعكس تلك المرآة عنهم شيئًا؟ وأنت حين

تعترف تذكر أساميهم، تكررها مرة بعد مرة عل وعسى تنظر يومًا إلى تلك المرآة فترى لهم انعكاسًا، ولكن مهلًا، ألا ترى تلك النقاط الخضراء متناهية الصغر؟ دقق النظر، دقق أكثر، آلاء أليس كذلك؟ ويوسف أيضًا بل حتى نعمة، الجميع هنا حتى صالح نفسه! إنهم بذور لم تسقها يومها لتزهر داخلك وتصد السائل الأصفر الباهت، ألا ترى؟ إن ذلك السائل مُسمم، إنه يقتلها رويدًا، وما الحيلة؟ وتومض الكلمة مرة أخرى، إنه (الاعتراف) شمس لو أشرقت على تلك البذور الصغيرة تمنحها فرصة كي لا تذوي وتموت، والماء النقي يأتي لاحقًا.

5

أبريل 2018

آلاء على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوي.

ينظر إليّ ساري صادق وهو ينثر التبغ داخل اللفافة بسبابته وإبهامه، بينما عقب السيجارة الصغير يتدلى من فمه، يدس العقب عند طرف اللفافة ثم يلفها ببراعة ودقة، يضعها في فمه ويشعلها وينفث دخانها ولا يزال ينظر إليّ، حتى تستخرج نظراته من داخلي كل المشاعر الكريهة التي جاهدت سنوات لأجل التخلص منها، ينظر وتقول نظرته «مذنبة، قاتلة!» يقول «زهير فؤاد!» ويضغط على كل حرف منها وكأنما ليعذبني بالذكرى. لقد بحث زهير فؤاد عني على مدار أشهر طويلة وحين وجدني أخيرًا على الفيسبوك ورتب له عبد الحيّ لقاءً بيننا، قتلته!

يعطيني كيسًا متخمًا بالصور فأدسه في حقيبتي دون أن أنظر إليه، يعطي الغريب الذي جئت بصحبته ميموري كارد يقول عنها إن محتواها غير قابل للنسخ، حكى لنا عن أهمية كتاب زهير فؤاد في التأريخ الشفهي والبصري لمدينة الإسكندرية، وأن الكتاب ليس قائمًا بالكامل على مذكرات سري وداود وكرم، ولكن المذكرات جزء أساسي ومهم منه، أما فيما يخص التأريخ البصري فالكتاب يكاد يكون معتمدًا في تلك الجزئية تحديدًا على الصور التي وجدها زهير بين أوراق كرم، ولأن الصور والمذكرات تخص العائلة فإن المؤسسة تطلب موافقة رسمية على النشر، يقول ذلك ثم سأل: ها؟ هل نعطي مؤسسة وصال إقرارًا بالموافقة على نشر كتاب زهير فؤاد رحمة الله عليه؟ ينظر إليّ وهو ينطق بكلمات الترحم على الرجل فأخفض بصري وأدس يدي في جيب المعطف لأتلمس علبة سجائري والولاعة، ثم أتذكر الغريب الجالس إلى جواري فأطرد فكرة التدخين عن رأسي. يقول الغريب مندهشًا من السؤال وهو يحرك الميموري كارد بين أصابعه: «مش لما نقرا الأول؟».

يسحب من حقيبة ظهره ملفًا آخر ويمده إلى مصطفى قائلًا إنه يحتوي على مذكرات داود وسري، يسأله مصطفى عن مذكرات بابا، فأرد بسرعة أن المذكرات عندي مخافة من أن يأتي لفاضل ذكر في الحديث الدائر بيننا، ينظر إليّ ساري نظرة ذات مغزى وكأنه عرف أن سيرة فاضل محرمة، أشعر به يعايرني معايرة من يحتفظ بسرك لأجل أن يبتزك به لاحقًا!

حين تواصل معي ساري صادق بخصوص كتاب زهير فؤاد، طلبت منه أمرين، مهلة للتفكير وأن أقرأ مذكرات بابا أولًا، كان ليمنحني الملفات كلها بالطبع ولكنني كنت شديدة الانشغال، ولن أسافر إلى القاهرة قريبًا، فأرسل مع فاضل العائد من القاهرة مذكرات بابا فقط، كان

فاضل عائدًا بحقيبته الكبيرة داخل ميكروباص، وبالتالي فلن يتمكن من حمل الكثير، كانت مذكرات بابا هي الأهم، هكذا فكرت، طلبت ذلك من فاضل وكنت أعلم أنه لن يخذلني رغم انتهاء علاقتنا، وضع الأوراق في شقتي المستأجرة بسبورتنج، ولم تواتيني الشجاعة للذهاب إليها حتى شعر ساري صادق أنني تأخرت عليه فتواصل مع مصطفى، لأنه لم يجد عمي صالح على الفيسبوك، وشرح له الأمر سريعًا، وطلب منه موعدًا للتلاقي.

لمَ لم أنقل المذكرات من شقتي قبل تلك السفرية؟ غبية!

أنتفض على وقع رجة عنيفة بالسيارة، بعد أن أكل الرجل مطبًا من المطبات الكبيرة التي تسبق بوابة القاهرة. يغمغم معتذرًا بينما يتركز انتباهي على الصور التي تبعثرت خارج الحقيبة، كنت قد تركت فم الحقيبة مفتوحًا على اتساعه لأنني خشيت إن تعافيت على السوستة أن تنقطع مني. أنحني لألملم الصور داخل الحقيبة، أسمع عسكري البوابة وهو يسأله عن فكة، لغته مصرية لا أثر فيها لغربته الطويلة، تطل عليّ ملامحه في واحدة من الصور فأشرد للحظات دون أن أتمكن من تتبع أفكاري، أشعر بالسيارة وهي تتحرك عابرة البوابة، أخرج من شرودي وأستكمل لم الصور، الكثير والكثير منها ومع ذلك لم يقلل ذلك من كم الصور الفوتوغرافية الأخرى في بيت جدي! وقد عرفت الآن سر الصور المفقودة بين صفحات ألبومات داود ونعمة، أنقذها أبي من القص والتشويه الذي ألم بكل الصور التي كان يظهر فيها مصطفى، طفلًا ثم شابًا ثم مجرد أسطورة نتهامس بها صغارًا خلف الأبواب المغلقة في بيت جدي، تلك الصور التي عثرت عليها يومًا داخل الدرج المحرم فلم أجرؤ على سؤال داود عنها.

اعتدلت في جلستي أخيرًا وإذ بإحدى الصور تمد إليّ طرفها من فم الحقيبة، مُلقية في صدري برغبة عارمة في تفحصها، نظرت بطرف بصري إلى الرجل، لسبب غامض في نفسي لا أحب أن يرى فضولي تجاه الصور، حين اطمأننت أن عينيه ثابتتان على الطريق، سحبت الصورة برفق ثم وضعتها على فخذي أتطلع إليها، بينما تتعاقب عليها خطوط النور والظُّلمة، داود شاب لحيم لا يبين مقدار طوله إلا بالمقارنة مع السيارة البيضاء التي كان يميل عليها، ساندًا ذراعه اليمنى إلى الكبوت العريض، ثم فاردًا ذراعه الأخرى لتنتهي بأصابع مفتوحة فوق غطاء العجلة. يرتدي قميصًا أبيض فوق سروال كلاسيكي أسود، يبتسم نصف ابتسامة وتختفي عيناه خلف نظارته السوداء الدائرية. ومن خلفه على مسافة صغيرة سيارة أخرى، وجماعة من الناس على بُعد عند طرف الصورة الأيمن، وخط المباني يتلاشى نحو الأفق إلى لون أبيض، وقد كتب داود على الطرف السُفلي الأبيض من الصورة:

«أمام سينما فريال، الإسكندرية، العام 1955».

6

يوليو 1955

داود سري علي الجن، سينما فريال، الإسكندرية.

على الشاشة الكبيرة يظهر عبد الحليم حافظ في لقطة نصفية مرتديًا قميصًا مزركشًا، وقد لف حول عنقه عقدًا أبيض من الفل. يحتضن الجيتار داخل المركب الصغير الذي يسري به متمهلًا على مياه النيل، يغني بصوت عذب «أنا لك على طول خليك ليا» ثم يتغنى للنيل الذي يبدو من خلفه رقراقًا، عذبًا، تنعكس عليه الأنوار الفضية الرقيقة المنبعثة من العوامات التي تقف في إحداهن «إيمان» حبيبته التي يتوجه إليها بالغناء، تتطلع إليه من وجه مُشرق بابتسامة جميلة، وقد خفضت رأسها حياء.

يتفاعل الجمهور داخل قاعة السينما، الجنس الناعم منهم على الأخص، يتفاعلن مع الغناء بالتصفيق والتنهدات الحارة، بل وبالصراخ المتحمس أحيانًا، لا لشيء إلا لأن الأستاذ عبد الحليم حافظ نفسه، تتردد أنفاسه معهن في القاعة، يجلس داخل بلكونه الخاص إلى جوار عبد الوهاب، وقد بيعت تذاكر تلك الحفلة من قبل موعدها بأسابيع عدة، فلحق بها المحظوظون من أهالي الإسكندرية، ومن بينهم درية أخت داود الصغرى، أرادت أن تأخذ خطيبها معها إلى الحفلة، وصمم أبوها أن يصحبهم داود، وقد جاء الأخير مرغمًا ضائقًا.

صراخ البنات يتقاطع مع صوت الغناء مخلفًا ضوضاء مزعجة لأذن داود، الذي على محبته للسينما عمومًا، فإنه ينفر من غناء عبد الحليم وتمثيله، يدور برأسه في القاعة متململًا، ثم يمده إلى البلكونات على يمينه، في إحداها يجلس عبد الحليم، أخبرته بذلك درية، إلا أنها لم تكن تدري أي واحدة تحديدًا، ترى كيف يشعر الرجل وهو يشاهد نفسه ضخمًا على الشاشة؟ يحاول أن يراه، يرغب في أن يتفرس في تعبيرات وجهه، عله يقرأ عليه إجابة سؤاله.

وفي تجوال عينيه بحثًا عن بغيته، سقطتا عفوًا على فتاة تحتل المقصورة التي تلي مقصورته، فعجز عن استردادها وقد تلاشت أفكاره حول عبد الحليم حافظ وكأنها لم تكن. كان شعر نعمة الأسود الكثيف محبوكًا فوق رأسها ومثبتًا بمشبك من الماس يضوي في ظلام القاعة. تلمع في وجهها عينان سوداوان مكحولتان بينما تتابع الفيلم في هدوء بالغ، لا تصرخ ولا تنادي باسم عبد الحليم. تجلس بظهر مفرود ووقار رقيق، وجهها الملائكي الهادئ يتردد عليه النور الصادر من الشاشة فلا يزيده إلا جمالًا.

شعر داود أن كل ما حولهما قد تلاشى فلم يبق سواها، تمثال نصفي من الجمال يشع ضياؤه عبر ظلمة كثيفة.

كان والدا داود قد احتارا في أمره، خطبا له من قبل ابنة خاله ولم تمر شهور حتى تركها محدثًا عاصفة هوجاء زعزعت جنبات عائلته الكبيرة، فلم تهدأ الأمور بين أفراد الأسرة إلا بعد أن تزوجت البنت. تعرض عليه أمه كل شهر عروسًا ولا يقبل بها، وها هو قد بلغ العقد الرابع من عمره، رجل عانس بلا زوجة ولا أطفال، يُدمي قلب أمه حزنًا على حاله.

لا يدري داود لما انتفض قلبه في صدره عندما رأى تلك الفتاة، شعور لم يختبره قبلًا، وليس مرجحًا أن يساوره مرة أخرى، لا ليست قصة الحب بالفيلم هي ما أثارت مشاعره، الحق أنه لم يكن منتبهًا إلى أحداث الفيلم إلا قليلًا، ثم تاه عنه تمامًا بعد أن ظفرت عيناه بمرأى نعمة، وقد عقد العزم على أن يرى الفتاة عن كثب خارج ظُلمة القاعة، عله يفهم سر ما أحدثته داخله من أثر. ولم يطق صبرًا، تدفعه نفسه دفعًا إلى فعل شيء يضمن له ألا يلين عما عزم عليه، فإذ به يلكز درية في كتفها، سألته درية عما يريد متبرمة من مقاطعتها متابعة الفيلم. قال لها مشيرًا إلى الفتاة الجميلة في المقصورة المجاورة:

- نويت أتجوز، مراتي أهي..

وتعجب داود مما سمع نفسه ينطق به، لا يدري كيف أفلت لسانه بكلام لم يجُل له على خاطر! وأما درية فقد انتبهت حواسها على أثر جملته، داود يريد أن يتزوج! هكذا دون تمهيد، ياللعجب، ومدت رقبتها ترنو بإمعان إلى الفتاة التي أحدثت المعجزة، فلم تتمكن من تبين ملامحها، فهزت كتفها متعجبة، ثم سألته:

- تعرفها؟

- لا.

- شفتها قبل ما تدخل؟

- لا.

- عجايب!

وعادت إلى متابعة الفيلم بنصف انتباه، وما إن أضيئت القاعة لأجل فترة الاستراحة، حتى ألقت ببصرها إليها، فلم تر فيها إلا بنتًا عادية، سمراء، متواضعة الجمال! أما داود، فقد شعر حين رآها من جلاء النور الذي انهمر عليهم من سقف قاعة السينما، أنه ارتد بصيرًا! وقال لدرية دون أن ينظر إليها، إذ كانتا عيناه لا تفارقان الفتاة:

- حتعرفي تكلميها بعد العرض؟

فرمقته بغرابة، يلوح على وجهها التساؤل وعدم الفهم، ولم يمهلها أن ترد على سؤاله، واستطرد قائلًا:

- بس لا تتوه منك وسط الزحمة، أنا خارج حستناها على باب اللوج.

- من دلوقتي؟!

سألته بفيه فغرته الدهشة، وكان هو قلقًا متوترًا، يخشى أن يفقد أثرها بعد العرض حين تخرج أفواج الناس من القاعة، أن يغيبها عن عينيه الزحام فيفقدها إلى الأبد، وشعر أنه بحاجة ماسة إلى تحريك قدميه، فنهض وغادر المقصورة، ثم مضى دون وعي نحو باب مقصورتها فوقف قربه وهو يشعل سيجارة، ونبهه التصفيق الصادر عن القاعة إلى أن الاستراحة انتهت واستكمل العرض، لكنه لم يهتم، إذ قرر أن يمضي المتبقي من الوقت هناك، أمام باب مقصورتها، بذلك يضمن ألا ينتشلها الزحام منه، وأشعل سيجارة جديدة، صار الزمن بطيئًا بعد أن فارقت مجال رؤيته، إلا أن صورتها لم تبارح خياله، اختار عقله أن يحتفظ بنسختها الأولى، فتاة فضية كالقمر، تعكس نور الشاشة، فتشع هي نفسها نورًا، بدرًا يومض في قلب ظلمة حالكة.

يروح ويجيء في المساحة الصغيرة بين المقصورتين من الخارج، ذراعاه متشابكتان خلف ظهره، ماذا لو اتضح أنها متزوجة؟ لا، لو كانت متزوجة لرأى رجلًا يجاورها في المقصورة، إلى جانبها كانت سيدة أخرى ثم رجل عند نهاية المقصورة، بالتأكيد الرجل زوج السيدة الأخرى. لو كانت مخطوبة؟ لا يدري، المهم، أين تسكن، لا بد أن يعرف ذلك، أفكاره تجري وتتصارع يشعر بأثرها على جسده المتحرك باضطراب. الوقت لا يمر والفيلم لا ينتهي.

أمام دار السينما بمحطة الرمل، يتهادى الترام الأخضر «أبو سنجة» على الشريط الضيق، بينما الرقاب تمتد من خلال نوافذه المربعة تراقب الزحام أمام بوابة السينما، تبحث الأعين بفضول عن عبد الحليم حافظ أو عبد الوهاب. يقفز البعض من باب الترام دون أن يتوقف الأخير، تلمع بروق صغيرة من احتكاك أسلاك الترام الرفيعة بالكابلات الممتدة من فوقه، فيما تلمع فلاشات كاميرات المصورين الذين يلتقطون صورًا للمتزاحمين، عسى أن يسعفهم الحظ بصورة للفنانين عند خروجهما من دار السينما. يجلس داود داخل الأوتومبيل الأبيض الخاص به مستعدًا، غير آبه بكل ما يدور حوله، لم ينتظر خروج أخته وخطيبها من اللوج، بمجرد أن خرجت الفتاة مشى خلفها حريصًا ألا يفقدها. عيونه معلقة على ظهرها، ترتدي فستانًا أسود منزلقة أكمامه القصيرة على كتفين استدارتهما كالهلال، ذيل الفستان مشجر بورود حمراء لا تضاهي وجهها جمالًا، الفستان محبوك على جسدها المتناسق ليبرز من خلاله ردفاها المشدودان.

في الخارج وقفت حبيبته مع الرجل والمرأة الأخرى يتبادلون حديثًا قصيرًا أمام أوتوموبيل أحمر اللون، خمن داود أنهم سيتحركون به. لم يلتفت مرة واحدة باحثًا عن أخته وخطيبها. فتح الرجل أخيرًا باب السيارة وأمال المقعد الأمامي فدخلت الفتاة على الأريكة الخلفية للأوتوموبيل، دار وفتح الباب الآخر للسيدة فركبت، أدار داود محرك سيارته مستعدًا، ثم انطلق خلف الأوتوموبيل الأحمر غير عابئ بنداءات أخته وخطيبها اللذين ظهرا أخيرًا من وسط الزحام.

7

أبريل 2018

آلاء على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوي.

أتأمل الصور بين يدي فيتوه عقلي متخبطًا بين مشاهد مبهمة، استرجاع الذكريات لا يكون أبدًا على تلك الكيفية التي يصورها المخرجون في أفلامهم أو يجسدها الكُتاب في قصصهم، إنها تأتي إلى العقل قطعًا مهشمة بلا قوام، جزءًا مموهًا من صورة، ألوانًا متناثرة، ذكرى لرائحة وصدى ضبابيًا لصوت ما، يجتهد العقل في مزجها جميعًا إلى مشهد متماسك من خلال ملء الفراغات بالمنطق، ولكنه اجتهاد لا يعني أن الذكرى محاكية لما كان عليه واقعها! إنه اجتهاد أشبه بمحاولة العلماء التقاط صورة للثقب الأسود من خلال توزيع عدد كبير من التلسكوبات الضخمة في أجزاء متفرقة من الأرض، يجمعون صورًا هي قطع بازل عليهم إعادة ترتيبها لبلوغ تصور ما، يظل تصورًا لا أكثر ولا أقل! يرن هاتفي فأقفز، أحاول بلوغ مكانه، أبحث في جيوبي عبثًا، ثم داخل الحقيبة فلا أجده! يمد هو أصبعه ليضيء نور السيارة فأرتبك، حزام السيارة يقيدني إلى مقعدي، وإن خلعته يرتفع صوت صفارة لها نغمة متقطعة تكاد تفقدني صوابي، أرفع جسدي قليلًا لأنظر تحت فخذي الأيمن ثم الأيسر، أجد هاتفي وحين أتناوله أخيرًا يلف في كفي كما لو كان صابونة ثم يسقط على الأرض، يشتعل وجهي احمرارًا أشعر به متمثلًا في تلك الحرارة المتصاعدة إليه والطرقات العنيفة في أذني، أتمتم: «سوري» فينظر إليّ الرجل مندهشًا كما أندهش من نفسي، على ماذا أعتذر؟ يفرج قليلًا عن شفتيه دون أن ينطق بشيء، أنحني وأتناول الهاتف من على الأرض بعد أن كف الرنين، أعاود الاتصال بماما فتسألني مباشرة:

- أنتِ هنا؟

وتقصد بهنا القاهرة، فأرد عليها:

- لا راجعة خلاص في الطريق..

يتغير صوتها كما هو متوقع منها تسألني بضيق:

- وأنا أعرف من جدتك أم أبوكي إنك في القاهرة؟ وكمان متعديش عليا؟

- كان مشوار سريع يا ماما، ومكنش نافع أعدي عليكي!

تستجوبني أمي عن ماهية المشوار، مع من أسافر؟ ينتابني ارتباك هائل، لو كنت وحدي لكذبت عليها ببساطة، إلا أن وجوده يردعني وهي لا تقبل تأجيل استجوابها لي إلى وقت

لاحق، أحكي سريعًا عن كتاب زهير فؤاد، فترتفع وطأة الاستجواب، على ماذا يحتوي الكتاب؟ مذكرات أبيكِ؟ تصرخ بها، من أين له بشيء كذلك! هل قرأت منها شيئًا؟ أين أنت الآن؟ تلك المذكرات لا يطلع عليها أحد سواي، وتقولين كتابًا يُنشر! هل فقدت عقلك تمامًا؟ هل أنت غبية إلى هذا الحد! مذكرات أبيكِ في كتاب ينشر وتنتظرين رأي فلان وعلان، أحيه! أحاول أن أشرح لها أن الأمر ليس كذلك بالضبط وأنني حتى الآن لا أنا ولا غيري نعرف ما نُقل وما لم ينقل ولن نعرف حتى نقرأ الكتاب في صورته الرقمية! يتحدى صوتها المسافات منتشرًا في فضاء السيارة، لا تسمعني، تقول هاتي تلك الأشياء وتعالي فورًا، مش حينفع، تصير هستيرية دون حتى أن تدري أن مذكرات بابا تحديدًا في بيتي الذي لا تعلم عنه شيئًا منذ ما يربو عن الأسبوع، ماذا لو عرفت؟ أحاول تهدئة روعها، لن توافق أسرة بابا على النشر فاطمئني، تقول وتصمم أن ارجعي القاهرة الآن، راكبة إيه؟ أضطر إلى أن أغمغم باسمه: «مصطفى!» تصرخ بها وأعرف أن صوتها يبلغ مسمعه، انزلي فورًا! على الطريق يا ماما؟ اطلبي منه أن يأتي بك إلى بيتي حالًا، ألتفت إليه فيفر بوجهه بعيدًا عني، ثم تنفرج شفتاه عن ابتسامة صغيرة تلذعني سخريتها المبطنة! لا أجد إلا أن أكذب عليها قائلة إننا قطعنا بالفعل أكثر من نصف المسافة إلى الإسكندرية، أكذب وأشعر بالخجل ليس لأنني لم أعتد الكذب ولكن لأن الغريب أول ما عرفه عني هو أنني جبانة كاذبة! تؤكد أنها قادمة الليلة ولا أفلح في ردعها، لو جاءت لحلت الكارثة على رأسي، كيف أتمكن من إحضار الأوراق من شقتي إلى بيت داود وذلك الرجل معي؟ شقتي التي لو عرف عن وجودها أي فرد من تلك العائلة الملعونة، وبالأخص ماما لتهدمت حياتي ونجح مسعاها في أسري داخل بيت زوجها بالقاهرة! يرن هاتف مصطفى وأسمعه وهو يرد على تساؤلات تيته بإجابات مقتضبة، يصلني صوت تيته كما يصلني صوت ماما وأشعر بأصواتهما تختلط في صوت أموي واحد، صوت يطالب بأحقيته في امتلاك ما سكن رحمه تسعة أشهر، صوت ذاب في الأمومة حتى صارت له هوية لا يعرف كيف يحيا دونها أو يجد لها بديلًا! منذ طلاقي من ياسين وهي تطارد أحقيتها بامتلاكي بينما أفر أنا منها بكل ما أوتيت من قوة!

8

سبتمبر 2013

آلاء كرم داود، الإسكندرية سيدي بشر قبلي.

لست متأكدة لو كنت أنتظر ياسين وقتها أم أن حضوره الحميمي ذاك فاجأني. لم كنت مضطجعة على فراشي في ذلك الوقت من عصر يوم الجمعة؟ ما أذكره هو دفء جسده بينما يتمدد فوقي بعد أن مد ذراعيه يلف جسدي لأنقلب نائمة على بطني، كما أذكر دهشتي من مبادرته الجنسية غير المعتادة، شيء مختلف تمامًا لم يختبره معي قبلًا! كفه اليمنى تزحف من أعلى رأسي، تتخلل أصابعه شعري، ثم يشده فجأة فأجفل، ياسين يمارس جنسًا عنيفًا! أهجر دهشتي مستسلمة بشغف لتلك التجربة الجديدة، يمرر أطراف أصابعه على ظهري مرسلًا بجسدي قشعريرة تمارس رقصة ثعبانية مع النشوة المتصاعدة من داخلي فوق مسرح جسدي، تدور أصابعه زاحفة نحو ثديي حيث يلفها برقة على حلمتي قبل أن يقرصها ثم يملأ كفه بصدري ويضغط بشدة، وقد بلغت يده الأخرى فرجي وانسابت بين شفرتيه، أضغط بأسناني على شفتي، ينتفض جسدي أسفله، يخلع عني سروالي ثم يلصق عضوه بمؤخرتي بينما كفه الأخرى تُبحر في ماء فرجي، يشتعل جسدي وأحس للمرة الأولى منذ زواجنا أنني على مدخل مغارة اللذة، أن جسدي ينتفض ويذوب من أسفله، أنني على مشارف الأورجازم! وإذ به يتوقف فجأة! ينقشع كل شيء يختفي جسده، يختفي حضوره كله من الغرفة، أعتدل في جلستي، أنظر حولي فلا أراه، يرتفع صوت التلفزيون في الخارج مشتتًا أفكاري!

- حصل إيه؟

سألته بينما يحجب جسدي شاشة التلفاز التي كان يحدق فيها من مكانه على أريكة الصالة.

- مفيش. قالها وهو يهز كتفيه لا مباليًا.

أتأمله للحظات ولا يبادلني النظر، جسده مكور على الأريكة رأسه بين قدميه، جفناه متهدلان وعيناه منطفئتان حتى مع انعكاس نور الشاشة عليهما! يقول رجل ما على الشاشة:

- والطيارات عمالة تلف كل شوية في كل حتة، عمالة تضرب قنابل، وفيه قناصة على العمارات عمالين يضربوا.. القناصة عمالين يضربوا نار.

طلقات نارية، صراخ ونحيب، وبرك دماء أراها دون أن أنظر إلى الشاشة، أراها في عينيه

دون أن تشف ملامحه عما يعتمل في صدره، ثم يعود معلق الجزيرة إلى الكلام بلغته العربية السليمة، بينما تتتابع مشاهد فض رابعة على الشاشة، أسبوعان مزا على الأحداث وهو لا يكف عن الفرجة كما لا تكف قناة الجزيرة عن بثها، أسأله وقد غلبت حيرتي غضبي:

- ليه بدأت وليه وقفت فجأة، ليه؟

- ولا حاجة حلاوة روح.

يقولها باستهانة، ولا يكلف عينيه عناء النظر إلي، هل صرت بالنسبة إليه جثة كالجثث التي يرمقها عبر الشاشة طيلة الليل والنهار؟

عدت نحو حجرتي أجرجر لذتي التي لم تنطفئ، أغلقت الباب وشغلت خيالي أمارس جنسًا بائسًا مع شخص لا ملامح له. حصل ذلك خلال الفترة التي تلت عودته من الخليج خائب المسعى، كسير النفس. لولا أن تزامن سفره مع بدء اعتصام رابعة، لكان انضم إليهم بلا ريب، والآن أكاد أرى الذنب وهو يأكله حيًا، أراد أن يموت مع أصحابه في الميدان، منذ تتابعت أخبار الموت، لم أر دمعة تفارق عينيه، لم يقل شيئًا عن الأمر وإن تكلمت أنا عما يحصل أسكتني.

كنا قد استأجرنا تلك الشقة الصغيرة لمدة شهر واحد نقضيه سويًا بعيدًا عن بيت داود قبل أن نحسم القرار، فرصة أخيرة قد ننفخ في علاقتنا أنفاس الحياة، فإذ به لا ينفخ فيها إلا نيرانًا، والحق أن الفكرة كانت رديئة، لقد جاء بي إلى تلك المنطقة الشعبية لأن الإيجارات منخفضة، وأنا لم أعتد الحياة بين جيران يتبادلون الردح طوال الليل والنهار، لا مطل من جميع شبابيك الشقة إلا على مناور تنبعث منها روائح كريهة. البنايات الطويلة النحيلة المحاصرة لعمارتنا تحجب الشمس والهواء فلا يمر إلا الرطوبة والمكاره، كنت مكتئبة، وكان منغلقًا على ذاته، وكنا نحاول إحياء جثة ماتت منذ زمن بل وشرعت في التحلل! وكانت تلك هي اللحظة التي اتخذت فيها قرارًا نهائيًا بالطلاق.

طلاق لا رجعة فيه.

9

أغسطس 1955

نعمة عبد الله حسن الفاروق، بيت فيكتوريا، الإسكندرية.

أمام مرآتها تضع نعمة اللمسات الأخيرة لزينتها، وما تفعل الزينة بوجه أطفأته الشمرة وأضناه السهاد! ما نامت من ليلتها ساعة وقد تلقفتها المخاوف تتقاذفها من قدم إلى قدم حتى شعرت أن فراشها يرغب في أن يلفظها عنه، آاه، ماذا لو لم تعجب هذا العريس أيضًا كما حصل من قبل؟ كيف ترفع رأسها بين أخواتها بعد ذلك؟ لم تُدرك نعمة كم هي قبيحة، إلا حين رمتها أختها نبيلة بذلك في خضم شجار نشب بينهما، وقد انفلت زمام الغضب من نبيلة فانفجرت منها كلمات اعتذرت لها عنها بعد فوات الأوان، إذ عززت قولها عن قبح نعمة بأنها عرفت من أمهم أن العريس السابق قال عنها إنها سوداء! تهاوى قلب نعمة على وقع كلمات أختها، لطالما قالت لها أمها وهي تكبر متسائلة عن سر اختلافها عن أخواتها: «السمار نصف الجمال يا عبيطة»، وكانت تتعلق بأغنيات عبد الحليم حافظ عن السمراوات مُعزية نفسها عن لون بشرتها، تحجب مخاوفها من العنوسة خلف طبقات من إقناع نفسها بالوهم، وإذا بنبيلة تبصق عليها بكلمات تهد داخلها كل ما أضناها الجهد في بنائه، فانفجرت مخاوفُها سيلًا هادرًا يرج جسدها الصغير رجًا. وحين أخبرتها أمها عن العريس العجيب الذي طرق بابهم يسأل عن البنت التي عادت من السينما للتو، تمنت عليها ألا يعلم أحد من أمره شيئًا، فعجبت أمها من قولها، لقد عرف أبوها بالفعل، وهل كانت لتخبرها من قبله؟

- طيب أرجوك ماتقوليش لإخواتي البنات..

- إزاي و العريس جايلنا؟

- مش عايزة أقابله..

تقولها في نبرة غضب طفلة لا يأخذها أحد على محمل الجد، وتضحك منها أمها، ما هذا الذي يكتنفها إلا حياء العذراوات، وتتركها وتمضي لتعد البيت لاستقبال الضيوف، الآن تخضع رغمًا عنها لذلك الاختبار القاسي مرة ثانية، اختبار ليس بإمكانها أن تستعد له بالمذاكرة كما في المدرسة، فقد صورها الله على تلك الصورة، ولا يد لها في ذلك ولا خلاص لها منه، قبول أو رفض مكلل بالعار والمهانة.

ولم تُترك طويلًا لأفكارها، بينما تتأمل صورتها في المرآة، إذ امتلأت الغرفة بأخواتها البنات، ينتشرن حولها بالغمزات والابتسامات، يصِفن لها العريس الذي تطلّعن إليه بالدور من

خلف الستار: «أجنبي يا بت، بشرته زي الحليب، وعيونه خُضر»، فينتفض قلبها فزعًا عند سماع أوصافه، وكيف يقبل بها الأبيضاني أبو عيون خُضرا وأخواتها لا يكفون عن الهزل، يباركون شيئًا لم يتأكد حصوله بعد، مما يزيدها توترًا ورعبًا من قسوة الرفض وتوابعه.

جاءت أمها تدعوها للدخول على الضيوف، فمضت بتثاقل من يمضي إلى حيث ينتظره عشماوي لينفذ فيه حكم الإعدام. تعرف أن أخواتها سوف يراقبن الموقف القاسي عبر ستارة الممر المفضي إلى الصالون بعيون فضولية. لطالما راقبت عرسان أخواتها البنات من خلف تلك الستارة، متمنية أن يأتي دورها، فلم يأت إلا بالخيبات!

دخلت الحجرة وهي تجاهد بكل طاقتها للسيطرة على الرجفة التي تجتاح جسدها كله. في الصالون يجالس أبوها ثلاثة رجال وامرأة، هذا كل ما استطاعت أن تراه قبل أن تخفض بصرها خجلًا، تراقب قدميها وهي تمشي بسرعة لتستقر على طرف الأريكة الصغيرة بجوار أمها، أثنت حماتها بصوت جهوريّ على جمالها وخجل العذراوات فيها، ثم أضافت تثني على «سمارها» ففاض قلبها في صدرها على وقع الكلمة، وقيل «السمار نص الجمال» وقالت المرأة «لا ده الجمال كله»، ونادت عليها حماتها أن ترفع رأسها لترى جيدًا عينيها السوداوين المكحولتين، فتورد وجهها، ورفعت رأسها شيئًا يسيرًا، فوقع بصرها على الشاب الأجنبيّ كما وصفته أخواتها، يجلس بجوار المرأة على الأريكة الكبيرة قبالة الأريكة التي جلست عليها بجوار أمها، وحين لاحظ نظرتها الخاطفة إليه، قال بصوت مرح:

maktabbah.blogspot.com

- مش أنا العريس هه؟ أنا أخوه تمام؟ هو ده العريس داود..

ومد إصبعه يشير إلى الشاب الآخر الذي يجلس على المقعد المجاور لأبيها، آآآاه كم هو ضخم! شاب أسمر، طويل، عريض، لا يشبه أخاه في شيء، تمكنت في لحظة سريعة خاطفة من التقاط ملامحه قبل أن تبعد عينيها خافضة رأسها في خجل.

تتخيل رد فعل أخواتها حين عرفن من مكانهن خلف الستارة أن الأجنبيّ الهيئة ليس هو العريس، ولكن ما يهمها في ذلك؟ لقد بدا لها العريس جميلًا، بل أجمل من أخيه، بشعره الأسود الفاحم الثقيل متهدلًا على رأسه، وعينيه الواسعتين يبين عمقهما من خلف عويناته ذات الإطارات الدائرية السوداء. يبدو عليه الجد طبعًا، ولكن ذلك مما لا يعيب رجلًا، وضخامته تلك مما تحب أن يكون عليها زوجها، ثم وما إن انتهى عقلها من الإعجاب بصورته، حتى انتفضت جوانحها متسائلة بفزع، ترى هل تعجبه أم يرفضها، فيدفع بها إلى قاع الجحيم؟ نعم، إن ذلك لهو بالضبط قاع الجحيم إن رفضت أيضًا ممن يوازيها سمارًا! ولو علمت نعمة أنها قد سكنت قلب داود بالكامل، وأنه سوف يصاحبها عمرًا كاملًا إلى أن تودعه محزونة النفس، مكسورة الخاطر، لهدأت نفسها ولمستها الطمأنينة، ولكن أنى للإنسان

أن يقرأ المسطور على جبينه!

وفي نفس المقام تم الاتفاق على موعد كتب الكتاب الكتاب ثم الدخلة بعد ثلاثة أشهر من تاريخه. ورجت الزغاريد جنبات البيت، فتجاوبن معها الجارات يمددن ألسنتهن عبر نوافذهن بالزغاريد، دون حاجة إلى معرفة الخبر مفصلًا، إذ إن بيت الحاج عبد الله زاخر بثماني بنات، وكلما لعلعت زغرودة، عرف الحي أن واحدة من البنات قد خطبت لابن الحلال فانفك قيد جديد عن عنق الحاج منتقلًا إلى ابن الحلال.

10

نوفمبر 2013

آلاء كرم داود، مكتب المحامي، الإسكندرية.

سامح أبو الفداء المحامي هو حمو عائشة أخت ياسين، لجأنا إليه أنا وياسين من أجل تسجيل مستحقات الطلاق بعيدًا عن القنوات الرسمية، حيث إنني سأطلق طلاقًا حضوريًا ويكون ذلك على الإبراء، على أن يضمن لي المحامي حقوقي من نفقة المتعة والعدة من خلال إيصال أمانة يمضيه ياسين، على أن يسدده عقب عودته إلى الإمارات. ثقتي في الرجل كانت جزءًا من ثقتي القوية في ياسين.

طال انتظارنا للمأذون في المكتب بينما يكلمنا الأستاذ سامح عن الرحمة والمودة، وأنه لا يرى فيما بيننا إلا اجتماع كليهما، فلماذا الطلاق، ونحن نبتسم ونومئ، نشكره على سعيه في الخير ونعتذر عن التراجع عن قرارنا المشترك، استأذن وغاب في الخارج عدة دقائق حينها حكيت لياسين عن الدعوة التي جاءت به إلى حياتي، فأشرقت ابتسامة غاية في اللذة على وجهه الرائق الجميل وقال لي مداعبًا:

- احترس مما تتمنى.

حل رمضان 2006 وأنا في سنتي الجامعية الأخيرة، حكت لي سلوى بحماس عن ذلك المسجد في سيدي بشر حيث يتناوب على الإمامة فيه شيوخ كلٌ منهم صوته أحلى من الآخر:

- والدعاء يا آلاء طويل وجميل، جسمي يقشعر وبسح عياط وأخرج من الصلاة حاسة إني اتولدت من جديد.

وعلى الرغم من بُعد مسافة المسجد، وأنه عليّ، لأجد لي مكانًا، أن أتناول إفطاري وقد ارتديت ملابسي بالفعل، ثم أهرول إليه عقب الإفطار مباشرة، إلا أنني كنت أدرك أن الأمر يستحق. دأبنا أنا وسلوى خلال الأعوام القليلة الماضية على البحث عن أفضل صلاة تراويح بين مساجد الإسكندرية، كنا نقضي ليالي رمضان متنقلين من مسجد لآخر بحثًا عن ضالتنا؛ أن تكون الصلاة بجزء كامل من المصحف أو أكثر، على أن تكون الختمة في واحدة من ليلتي السابعة والعشرين أو التاسعة والعشرين، أن يكون صوت الإمام في القراءة نديًا جميلًا، أن يُطيل الإمام السجود فتسنح لنا فرصة للدعاء، أن يكون دعاء الوتر طويلًا ممتدًا يتيح لنا الإغراق في مناجاة الله، ذلك الشعور بالانفصال عن الأرض والتماهي معها في آن، تشعر أنك

لست وحدك وإنما المخلوقات جميعًا خاشعة بين يدي الرحمن الرحيم، النسمات الرقيقة، هسيس الأشجار، طيور السماء وحتى هوام الأرض، يرفعك الدعاء درجات عن مرتبتك الأرضية حتى لتشعر أن أناملك تلامس السحاب، أنك ترسل مناجاتك إلى آذان السماء مباشرة، بلا حُجب، قد ذابت الحُجب بينك وبين الكريم، وتصير تشعر وأنت تدعو أنك تقف بجسدك أسفل قدميه الكريمتين المباركتين وأنك تشعر بصورة من ذلك التمثل حين يرضى عنك الله في يوم الدينونة فتراه أخيرًا، تراه بعد انتظار طويل في دُنياه الشاقة، تراه فيذهب الشقاء كله ولا يتبقى في نفسك إلا تلك السعادة الأبدية!

لو أضيفت إلى تلك المتطلبات الأساسية أن يكون المسجد نفسه نظيفًا، مكيفًا، مظللًا خلال الصلاة فذلك هو المسجد المثالي، إلا أننا كنا في الغالب نختار مساجد تُقيم خيامًا خلف مبنى المسجد نفسه لأجل صلاة النساء أو نصلي في الشارع في أماكن يُحوطها سورٌ وتكون أيضًا خلف مبنى المسجد، لأنه كلما اجتمعت تلك المتطلبات الأساسية في مسجد ما، زاد الزحام وكثُر مرتادو المسجد من النساء خصيصًا والذين في العادة تخصص لهن أجزاء متناهية الصغر في خلفية المسجد تُفصل عن صحنه بستارة أو ما شابه.

وقد كان ذلك المسجد في سيدي بشر قد أقام خيمة كبيرة على أرض خالية وراء مبناه، وعلى الرغم من اتساعها إلا أنها كانت تكتظ حتى آخرها بالمصليات. صدقت سلوى، حيث تعاقبت على الإمامة أصوات كل منها يقطر عذوبة، وجاء الدعاء طويلًا، رقيقًا، مفعمًا بالحرارة، وسجدت أسأل الله أن يزوجني واحدًا من أولئك الأئمة، يعينني على طاعتك ويشد من أزري في الطريق إليك يا الله. وأحببنا أنا وسلوى ذلك المسجد فصلينا فيه كل ما تبقى من ليالي رمضان، ودأبت أردد الدعاء ذاته ليلة وراء ليلة، عليك أن تختار لنفسك دعاء تُلح عليه منذ بداية الشهر وحتى نهايته، فالله يحب عبده اللحوح.

ولم ينقض ذلك العام ليحط بنا على رمضان جديد إلا وظهر ياسين في حياتي، قال لي شيئًا بمحض الصدفة، قضى على كل تردد عندي في الارتباط به، إنه واحد من أئمة مسجد سيدي بشر! إنه إجابة الدعاء متجسدة أمامي في بشر من لحم ودم، فكيف لا أقبل به! لم أخبره عن تلك الدعوة التي جاءت به إلى حياتي، إلا ونحن جالسان في مكتب المحامي ننتظر وصول المأذون الذي سبق وزوجنا من أجل أن يُطلقنا.

طال انتظارنا لوصول المحامي وشردت عن أفكاري إلى شاشة هاتفي، حتى استوقفتني ميم مضحكة على الفيس بوك أرسلتها لياسين فضحك وضحكت معه بينما المأذون يدخل المكتب في صحبة أستاذ سامح، نظروا إلينا مستبشرين أن صلحًا حل بيننا، فإذا بنا نفاجئهم برغبتنا في إتمام إجراءات الطلاق ليضربوا كفًا على كف ذاهلين، قال لنا المأذون متندرًا:

- أنا لسة جاي من عند اتنين كانوا رافعين لا مؤاخذة جزمهم على بعض.

انضم إلينا صديق للأستاذ سامح، الشاهد الثاني على عقد الطلاق، قال المأذون ورددت خلفه:

- أبرأتك يا زوجي من مؤخر صداقي ونفقة عدتي ومتعتي وجميع حقوقي الشرعية وطلقني على ذلك أمام الشهود.

عاد المأذون يقول وياسين يردد من خلفه:

- وأنت يا زوجتي طالق مني على ذلك أمام الشهود.

11

أغسطس 1955

الكيلو 160 على طريق الإسكندرية الساحلي.

عرفت نعمة من نظرات داود دون كلماته أنها جميلة. أما عما كان يتغنى به داود خلال خطبتهما عوضًا عن أناشيد الحب، فهو رحلات الصيد ومواسمها وأنواع الأسماك. وقد دعاها صحبة والديها إلى واحدة من تلك الرحلات، فحطوا رحالهم عند الكيلو 160 قبيل مدينة الضبعة وقد بلغوها قبل شروق الشمس على طريق الإسكندرية الساحلي، وما إن صفَّ داود سيارته قريبًا من الشاطئ، حتى جاء صبيان أسمران في جلابيب بيضاء مهرولين، يتبعهما من يبدو من الشبه بينه وبينهما أنه أبوهما، ومضوا يدفعون أيديهم وألسنتهم بالتحيات إلى داود، الذي حياهم بدوره ثم قدم إليهم حماه وزوجه وخطيبته، وفتح داود صندوق سيارته فاندفع الصبيان إلى حمل الشمسية والكراسي والحلل الضخمة التي أعدتها أم نعمة لأجل وجبة الغداء.

كان عليهم أن يقطعوا مسافة كبيرة على الرمال البيضاء الناعمة، قبل أن يبلغوا قرب البحر، وكان داود يتقدم المسيرة وإلى جواره صاحبه يتبادلان الحديث، ومن خلفهما الصبيان وقد حملا المتاع، أما والدا نعمة فكانا بطيئين يخطوان خطوات قصيرة متعثرة تحت ثقل جسديهما الذي جعل من غوص أرجلهما في الرمل ثم سحبهما مهمة شاقة، وبدت نعمة حائرة في المسافة التي تتسع بين داود ووالديها، تتمهل أحيانًا وتتقدم حينًا، وكانت ترتدي فستانًا رماديًا بنصف كم، تقطعه طولًا وعرضًا خطوط خضراء غامقة، مشكلة فيما بينها مربعات من اللون الأزرق الداكن، له ياقة وأزرار أمامية تنتهي عند جذعها بحزام رقيق. وقد وضعت على شعرها الأسود الناعم طاقية الشمس الصغيرة البيضاء، وجهها الأسمر الجميل ينبض بحيوية الشباب وعيناها السوداوان الواسعتان تنبضان بسعادة القبول.

وسرعان ما نصب الصبيان الشمسية ومن أسفلها الكراسي، فجلس إليها الأبوان بينما وُضع لداود كرسيه أمام البحر مباشرة، فجلس عليه بجسده الضخم في غير ترهل، يرتدي قبعة الصيد خاصته، وتتدلى من عنقه كاميرته اللايكا محفوظة داخل جراب من الجلد البني. وجاء العرباوي إلى جوار داود فبدأ يلقم السنانير الطُعم بينما وقفت نعمة بالقرب من خطيبها، تنظر إلى البحر وتتلقى دفقات من الهواء البارد يرتعد لها جسدها الصغير، إذ لم تكن الشمس قد خرجت بعد من وراء البحر وإن مدت بعضًا من ضيائها خفيفًا ليبدو العالم أمام نعمة ما بين الليل والنهار، انتابها شجن لم تفهم دواعيه، وحين تسترتجع تلك اللحظة، ذلك اليوم الذي لم

تغب ذكراه عنها أبدًا، تحس بل وتحكي أنها رأت العلامة، حياتها مع داود بين الليل والنهار، بين الضياء والعتمة، لم يلحظ داود جسدها المرتعد كان مشغولًا باختيار البقعة الأنسب لنصب السنانير، وكان دقيقًا في اختياره للمكان، التوقيت، والطعم المناسب، يعرف أنه في ذلك الوقت من السنة تهب الرياح الشرقية فترفع من نقاوة مياه البحر وتدفع بسمك الميرا والجلنفيش نحو الشاطئ، هذا إلى تكاثر أعداد أسماك الشراغيش في تلك الفترة. اعتاد داود أن يمضي إلى رحلات الصيد فجر الجمعة، فيعود قبل العصر بغنيمته الوفيرة يسلمها إلى أمه وأختيه، ويتحول المطبخ إلى معمل إذ ينهمكن في تنظيف الأسماك، يقفن متجاورات إحداهن تشق السمكة وأخرى تنظفها وعند البوتجاز تقف الأم أمام الطاسة لتقلي السمك، هذا إلى إعداد صينية السمك بالبطاطس والصلصة، وليمة سمكية أسبوعية تجتمع عليها أسرة داود في بيت أبويه، وهذا الأسبوع تتسع الأسرة فتنضم نعمة ووالداها إلى الوليمة السمكية المرتقبة.

ولم يكن حمو داود شغوفًا بالصيد، فلم يتحمس لاستخدام السنارة التي جاء بها داود خصيصًا لأجله، واكتفى بالاسترخاء على مقعده تحت الشمسية يتلقى هواء البحر بصدر منشرح، أما أم نعمة فقد انشغلت بإعداد ساندوتشات الإفطار.

أشعل داود سيجارة ومضى يدخنها متلذذًا بها حتى ينتهي صاحبه العرباوي من عمله بتلقيم الطعم في السنانير الصغيرة، وتطلع إلى نعمة فرآها في وقفتها تتأمل البحر، نهض عن مقعده ومضى إليها فوقف جوارها ثم سألها:

- تتمشي؟

أومأت موافقة، وحين بدأ المسير بحذاء البحر يخوضان أطراف المياه بأقدامهما فيبلل رذاذها أطراف ملابسهما، عاد يسألها:

- سيجارة؟

- إيه؟

- وماله؟

- لأ طبعًا مايصحش!

- يا ستي أنا خطيبك أهه وبقولك يصح عادي..

- لا لا ده كان أبويا يرميني في البحر..

وجلجلت ضحكة داود بينما توردت وجنتا نعمة خجلًا، وكانا قد ابتعدا بعض الشيء عن

مرمى الأعين المراقبة من أسفل الشمسية، فمد يده وأخذ كفها، جفلت نعمة وارتعد جسدها خفيفًا على الأثر، إلا أنها تركت له راحتها خجلًا من صده، وقد صعدت الدماء إلى وجهها فصار التورد بوجنتيها احمرارًا، ثم توقف فجأة عن المسير، واقترب بجسده يكاد يلتصق بها، ويرسل عينيه العميقتين إلى عينيها، فارتفعت دقات قلبها حتى شعرت أن صوتها يطرق أذنيها ويسافر عبر الهواء بالغًا أباها وأمها، ودارت برأسها فيما حولها حائرة، ولكنه ترك كفها ورفع كفيه وأحاط بهما وجهها، ففاض قلبها رعبًا، ماذا ينوي أن يفعل المجنون؟ وهنا على البحر أمام الناس! أمام والديها! ثبت رأسها، وأفرز جسدها أدرينالين، منذرًا بالخطر والاستعداد للفرار في أي لحظة لو رأت شفتيه تتكوران أو شعرت برأسه يقترب منها، إلا إنه بقي للحظات يبادلها نظرات ثابتة من وجه يبدو عليه الهيام، ثم قال أخيرًا:

- أمك طبخالنا إيه؟

وتجمدت لحظات لا تتمكن من استيعاب ما قاله، حتى جلجلت ضحكته، وأفلت كفيه عن رأسها وكلما زاد تجمدها واندهاشها؛ أغرق على أثر ما يراه منها في موجات أشد من الضحك، وقطبت ما بين حاجبيها، وبان استنكار على ملامحها، وقالت:

- بتتمسخر عليا؟

فقال من وجه مفعم بالبهجة:

- حاشا لله، بنهزر معاكي.

وابتسم فابتسمت، وتأبط ذراعها ومضيا يستكملان المسير، وإذا بنوبة ضحك تعاوده فتنتقل عدوى الضحك إليها، وتنطلق ضحكتها رقيقة عذبة، تشع داخله المزيد من البهجة، يتنهد عاليًا، ويشدها إليه أكثر في مسيرهما على الرمال ، تاركين آثارًا سرعان ما تمحوها الماء.

وشعرت أنهما ابتعدا كثيرًا، تطلعت نحو الخلف فرأت الشمسية ووالديها نقطًا بعيدًا كنجوم السماء، وقالت له:

- ياللا لازم نرجع.

- ليه؟

- بعدنا أوي، بابا وماما يقلقوا..

- يقلقوا من إيه؟ اقعدي شوية..

- أقعد؟

- أيوة!

وجلس هو على الرمل أولًا، ثم شدها من ذراعها فجلست إلى جواره متوترة قلقة، تتطلع نحو النقاط الصغيرة البعيدة حيث والداها، وشمرت طرف فستانها حتى ركبتها حتى لا يبتل، والبحر يمد بساط مائه إليهما ثم يسحب أذياله تاركًا الرمل المبلل أسفل أقدامهما، قبل أن يعاود الرجوع بلا توقف أو ملل منذ خلق الله الأرض، وتسللت مخاوفها مع مياه البحر الذاهبة، وجاءتها أفكار طازجة مع مياهه الراجعة، وانساب عقلها زائغًا منها نحو الأفق لا يحط على فكرة واحدة ولا يستقر صدرها على شعور محدد. باغتتها كفه على ساقها العارية فانتفضت وتطلعت إليه وهو يسحب كفه ويقول لها بجدية:

- ابقي اعملي حلاوة..

فأنزلت فستانها المبلل تداري ساقها براحة ترتجف، وقد قاربت بين حاجبيها وارتد عقلها إلى الواقع، فمد يده وعاد يرفع فستانها، ثم ربت براحته على ذراعها، ومد إليها سيجارته التي كان قد أشعلها عند جلوسهما، فتطلعت إليه مقطبة، فدفع كتفها بيده قائلًا وهو يرفع كتفيه:

- جربي..

وترددت لحظات قبل أن تتناول السيجارة من يده الممدودة إليها، وتناولتها بأصابعها كأنها تأخذ غيارًا داخليًا متسخًا، ثم حين وضعتها في فمها باغتتها مرارة كادت تبصق منها ولكنها خجلت، وردت إليه سيجارته وقد عاوده الضحك، قالت له متضايقة:

- يلا نرجع..

ولم تنتظر رده فقامت، وظل هو جالسًا يسحب أنفاسًا أخيرة من سيجارته، ثم نهض وتأبط ذراعها ومضيا عائدين وهو يهمس لها:

- أنتِ ألطف الكائنات..

فابتسمت وقد عادت البهجة الممزوجة بأحلام المستقبل الغامضة، ترج صدرها وصدره.

12

أبريل 2018

آلاء على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوي.

فتح الرجل صندوقًا صغيرًا يفصل بين مقعدينا، وسحب منه علبة كابتن بلاك قرمزية وسألني بصوت أبي:

- سجاير؟

- شكرًا.

- مش بتدخني؟

- معايا سجايري.

- عمومًا خدي راحتك.

وأشعل سيجارته، بينما أختلس أنا نظرات مسروقة إليه. لم يكن هناك بد من الاعتراف. لقد لمح نصف السيجارة بين أصابعي لحظة خروجه من الكافيه مع ساري صادق. حينها تركتها تنفلت، لكن بعد فوات الأوان. رأيت عينيه تتابعان سقوطها على الأرض قبل أن يخطو نحوها فيدهسها بحذائه لتنطفئ. لو أراد أن يفشي سري إلى ماما أو تيته أو حتى عمو صالح، ما عرض عليّ سيجارة! ترى هل يساوره شك في أنني أعرف سر نبذه؟ ثم ماذا لو عرفت ما يضيره من ذلك الآن وقد نُبذ بالفعل!

هل أتوكل على الله وأدخن؟ هذا رجل مُجبر على أن يكون منفتح الذهن، وإن تظل فكرة قابلة للتأويل، ألم أقابل في حياتي المئات من السيد أحمد عبد الجواد؟ فلمَ لا يكون على شاكلته! لو اطمأننت إليه قد أسر له بأمر شقتي الخاصة، فنمر عليها لإحضار مذكرات بابا قبل أن ينتهي بنا المطاف إلى بيت داود، ليتني أثق به! إننا نتحرك تجاه بعضنا عبر ظُلمة سميكة، متخبطين، يخشى كل منا الآخر، لأننا، في النهاية، خرجنا من رحم بيت داود مُكبلين بالمخاوف نفسها.

عليّ أن أعترف أن بداخلي نبضة وحيدة غارقة في البعد والظلمة، تود لو تنزاح ما بيننا من غرابة، فأتعرف إليه أكثر، يساورني فضول تجاهه، لا يشبه عمي صالح في شيء، جسده رشيق متناسق، هيئته وطريقة كلامه لا تنتميان إلى جيله.

قررت أن أفر من جحيم التساؤلات داخل رأسي إلى تصفح الصور، لن أركز معه ولن

أراقب مراقبته لي، سوف أستخدم تقنيتي الأثيرة وأجعل من نفسي سلحفاة تختبئ داخل صدفتها.

سحبت من الحقيبة واحدًا من الأظرف البنية المعبأة بالصور، وبدأت أتصفح الصور حريصة قدر ما أمكنني أن أحافظ على ما بقي منها مرتبًا وفقًا لتاريخ التقاطه، فإذ به يضيء نور السيارة ثم يسألني:

- عرفتيني في الصور؟

فنظرت إليه مستغربة السؤال، أعرف منطقيًا أن له وجودًا داخل الصور بين يديّ، وإن كان عقلي يتلاعب بذلك اليقين متكئًا على حياة كاملة عرفت فيها أسرتي دون أن ينتمي هو إلينا.

- الواد أبو شعر مسبسب وعيون ملونة..

قال مبتسمًا وهو يتطلع إليّ، ففررت من الرد عليه إلى علبة سجائري، وحلت على السيارة أنفاس الصمت والدخان، لم لا أنفذ من الأبواب التي يمنحها لي إليه! من أين يأتي ذلك الجمود الغريب والرغبة في الصد، وعاد يسأل:

- تحبي أغير أم كلثوم؟ بتحبي تسمعي إيه؟

- أم كلثوم... النور ده مش مضايقك وأنت سايق؟

- لأ..

سألني فاضل بعد أن صارت علاقتنا أوثق وأشد قربًا لو كان لي قريبًا في أمريكا يدعى مصطفى الجِن؟ قال إنه هو من تلقف مايكل بعد هروبه من أهله مهاجرًا إلى أمريكا، أواه في بيته إلى أن يثبت قدميه، وأنه فعل ذلك قبلًا مع العديد من الشباب المصريين، يضيق فاضل عينيه الضيقتين أصلًا ويبتسم ابتسامة خبيثة مضيفًا أن الرجل لا يفعل ذلك لله وللوطن! نفيت بسرعة أن لأسرتي أي علاقة بالمذكور، ثم أخبرته أن عائلة الجِن بشكل عام غزيرة الإنتاج، منتشرة الفروع، تفرق أبناءها حول أقطارالأرض، وإذ بي أذكر شهادة الميلاد التي عثرت عليها في درج داود السري، ترى ماذا كان الاسم عليها؟ وكيف أسقط عقلي الحكاية كلها بعد أن كان قد شُغف بها! آه لقد تتابعت عليّ اللطمات من بعد ذلك اليوم، موت زهير الصادم، نوبات اكتئاب متتابعة، براءة حسني مبارك والتي وضعت اللبنة الأخيرة لتمام فشل الثورة! إنها يناير والأمل الذي سرعان ما هوى منطفئًا في بحار المجاري الطافحة، سلبت عقولنا ثم ردتها إلينا هشيمًا تذروه الرياح، وسارعت على أثر سؤاله، أبحث في أرجاء بيتي كله عن تلك الورقة دون أن أجد لها أثرًا! ها أنا أسرق مستندات داود من وراء ظهره ثم

أضيعها بإهمالي الوضيع المستفز، فهل تخيلت يومها أن أجلس إلى جوار مصطفى داود ذات نفسه كائنًا من لحم ودم؟

شهقت بصوت مسموع عندما وقع بصري على تلك الصورة المخيفة وقد خُط على طرفها بقلم داود الستدلر الأسود:

«صفية داود الجِن، العام 1958»

- في إيه؟

سأل الرجل وقد أفزعته شهقتي، فاعتذرت له وطمأنته أن لا شيء، وحين صمم على السؤال مددت له الصورة فتناولها وراقبته وهو يتطلع إليها فلم ألحظ أي دهشة أو فزع على ملامحه، قال ببساطة:

- صفية..

- مين هي؟

- اتولدت ميته بعد صالح علطول.

- وليه كده الصورة دي؟

فهز منكبيه قائلًا بلا اهتمام:

- مش عارف، الناس زمان كان ليهم عادات غريبة!

ومد لي الصورة فأودعتها مكانها بين الصور، كنت أعرف الصورة التالية لها عن ظهر قلب، لديَّ نسخة منها في البيت داخل إطار فضي صغير، إنه بابا لا يكاد من صغر حجمه يبين بين ذراعي نعمة تبتسم له في وهن. وكعادته وثقها داود بخطه كاتبًا:

«كرم داود الجِن، الإسكندرية، العام 1958»

13

أبريل، 1958

بيت داود، الإسكندرية.

الساعة تدور في الواحدة بعد منتصف الليل، إذ أطل العصفور الصغير منذ بعض الوقت برأسه عبر بوابته الخشبية بأعلى ساعة الحائط في الصالة، مطلقًا تغريدة واحدة قبل أن يعود مختبئًا خلف بوابته الصغيرة. ونعمة تحاول عبثًا الاستغراق في النوم على وضعية الجلوس. منذ استقبلت شهرها التاسع في الحمل وهي عاجزة عن الاستلقاء على ظهرها، أو حتى جنبها، لقد صار جسدها مثل زجاجة القازوزة إن مالت ولو شيء يسير فارت الحموضة صاعدة إلى جوفها.

داود مستغرق في نوم عميق، وقد انتظمت أنفاسه منذ غرد العصفور إحدى عشرة تغريدة، ثم تصاعد غطيطه تدريجيًا مؤنسًا سهاد نعمة الطويل، وكانت تلف راحتها على بطنها المنتفخ في حركة دائرية، وتهمس بصوتها الرقيق الناعم: «لا تتعجلي الخروج يا كريمة، الحياة خلوة، فإن أردتها عليكِ بالصبر» وكان الجنين يشاركها يقظتها فيطمئن قلبها عليه، يتململ داخل بطنها مستجيبًا لصوتها، مستقبلًا لمساتها الحانية، وهي تهمس مبتهلة إلى الله أن يحفظ عليها طفلتها، فتخرج وأنفاسها تردد في صدرها الصغير، وأن تسمع صوتها يصدح بالبكاء فتتلقفها من القابلة، تلقمها صدرها لتسكن الطفلة إليها كما يسكن قلب نعمة المضطرب بالخوف. وقد اختارت لها اسم «كريمة» كريمة لأنها ستتفضل عليها بكرمها فتخرج إلى العالم حية.

ولم يكن خوف نعمة نابعًا من فراغ، لقد فقدت طفلة العام الماضي، تعجلت الخروج ونعمة لم تبلغ بعد شهرها التاسع، فخرجت من أحشائها منقطعة النفس، وقد صممت نعمة رغم ما كانت تعانيه من آلام بالغة، أن تحملها بين ذراعيها وتتطلع إليها وتمد راحتها فتمسح الدماء عن وجهها تتبين ملامحها، عينيها المغمضتين الجاحظتين، متناهية الصغر، باردة، زرقاء، لا تبدو لها وكأنها تنتمي إلى هذا العالم. وإذ بها تصرخ على داود أن يأتي بالكاميرا يلتقط صورة للطفلة المسجاة على الفراش جثة هامدة، وذهبت معارضته لهذا الجنون أدراج الحالة الهستيرية التي يراها عليها لأول مرة منذ تزوجها، فاستجاب كارهًا، أخذت منه الكاميرا والتقطت الصورة بنفسها، ثم منحتها اسمًا قبل أن تواريها التراب، «صفية» التي شف جلدها المكرمش عن أعضائها الداخلية، أقامت لها مأتمًا وعزاء، وبكتها طويلًا وهي تتأمل الصورة التي التقطتها لها. هزت رأسها بقوة تنفض الصورة المؤلمة عنه وهي تستعيذ بالله من

الشيطان الرجيم، «رحمك الله يا صفية، هيهات أن أنساكِ»، وتلقت ركلة رقيقة من جنينها الحي داخلها، فمالت بجذعها قليلًا ووجئت بدموع تتساقط مبللة جلبابها، سارعت تجفف وجهها بكفها، لا لا.. لن تستعيد الذكرى الآن، ما بال عقلها لا ينفك يخادعها فيقودها إلى مناطقه المظلمة، إنه الشيطان لعنه الله، وانتفض جسد نعمة على وقع ألم بالغ يضرب رحمها بقسوة، فصرخت لا تدري هل تصرخ الألم أم صورة الموت يستدعيها عقلها بقسوة بالغة لا رحمة فيها ولا هوادة، وانتفض داود جالسًا على وقع صرختها:

- بتولدي؟

ومد ذراعه إلى الكمودينو، فضغط زر الأباجورة لتبعث نورًا برتقاليًا خافتًا بالحجرة، والتفت إليها فوجد دموعها تنهمر، وصدرها يرتج ببكاء عنيف، ففزع وعاد يسألها جذعًا:

- نعمة مالك تعبانه؟ حتولدي؟ نجيب الحكيمة؟

ودبت من داخل أحشائها ركلة طلق ثانية أفاضت عليها ألمًا لا يُطاق فصرخت، ثم حاولت أن تنفض عن رأسها بكل ما تمتلك من قوة صورة الموت، وقالت بصوت لاهث:

- ماما، الحكيمة، كريمة حتموت يا داود، حتموت هي كمان..

وانتفض ناهضًا من على الفراش وقد اكتسى وجهه غضبًا هائلًا وهو ينهرها قائلًا:

- استعيذي بالله من الشيطان الرجيم يا نعمة واهدي.

قال ذلك بحدة، بينما يضع ملابسه على عجالة، وكانت تشهق باكية، فرقَّ لها وانحنى يلثم جبهتها ويمرر أصابعه في خصلات شعرها بحنو، ووضع راحته على بطنها فأحس حركة الجنين، ومد يده فأخذ كفها وحط بها على بطنها ومن فوقها كفه، لتحس ما يحس به علها تطمئن وتهدأ.

حضرت الحكيمة، وانضمت إليها أم نعمة داخل غرفة النوم وقد أغلقتا الباب من خلفهما على جحيم النساء، لا يشاركنه الرجال. وصحا صالح من نومه فزعًا على وقع صرخات أمه، فركض يرغب في الدخول إليها، وتلقفه عبد الله أبو نعمة يمنعه عن الدخول، حاول أن يسكت بكاءه بالهدهدة والمشي به في ارجاء الشقة فلم يفلح، فاقترح على داود أن يخرجوا من البيت إلى أن تحين اللحظة السعيدة، كي لا يفزع الصبي، فوافق داود على الفور، إذ كان قلقًا نافد الصبر، انتقلت إليه عدوى الخوف من نعمة، هل يستقبل طفلًا ميتًا مرة أخرى؟ لا لا، ينفض عن رأسه الأفكار السوداء، لقد حرمته نعمة أن يحزن خلال المصاب الذي ألم بهم قبلًا، من فرط ما لامس حزنها حافة الجنون، كانت لا تنفك تتأمل الصورة المخيفة التي التقطتها

لصفية، حتى قرر أن يخفيها عنها منكرًا بحزم أنه يعرف عن مكانها شيئًا، متكئًا على الزمن أن يعطف عليها بأصابع النسيان ويمنحها السكينة، ولم يخذله الزمن، أو هكذا ظن! لقد كفت نعمة عن البحث عن الصورة، واطمأنت للجنين الجديد ينمو داخلها، فما الذي دفع بالذكرى إلى عقلها الآن!

تتابع الطلق، وتقاربت مرات انقضاضه على نعمة، خلعت أمها عنها قميص نومها، فبان بطنها هائلًا منتفخًا، والجلد من حول سرتها مشدود كبالون على وشك الانفجار، وقد ارتسم خط طولي غامق أسفل سرتها وحتى فرجها. نعمة غير قادرة على السكون إلى فراشها، يدفع بها الألم إلى التخبط بين جنبات الغرفة، تتبعها أمها وهي تحاول أن تدفعها دفعًا للعودة إلى السرير، وتستقر على فراشها لوهلة استجابة إلى الحكيمة التي تأمرها بصوت خشن جاف، أن تفرج ما بين ساقيها، فتدفع بأصابعها داخل فرجها لتقيس مدى انفتاح عنق الرحم، فتصرخ نعمة ألمًا وحنقًا من عنف الحكيمة، وترفسها بعقب قدمها، فتدفع الحكيمة قدمها بعيدًا بقسوة، وتنفخ في حنق وهي تخبر أم نعمة أن الانفتاح لم يكتمل بعد، «وأن ابنتها مايصة مياصة لا شافت ولا حتشوف زيها!» وتخرج من الغرفة وهي تزفر حانقة، فتطلب من الخادم أن تصنع لها كوب شاي، ونعمة تنتفض تاركة فراشها، تعود إلى التقلب بين أرجاء الغرفة، تقعى على ركبتها وتحني جبهتها لامسة الأرض في وضع أقرب للسجود، وتتضرع إلى الله من شغاف قلبها أن يخفف عنها الألم ويمنحها طفلًا حيًا. ترجوها أمها أن تكف عن العبث وترجع إلى فراشها، ويطرق الألم جسدها طرقًا عنيفًا لا رحمة فيه فتصرخ، وتقول الحكيمة التي عادت بكوب الشاي إن «جوزك خرج وبإمكانها الآن إذًا أن تكف عن تلك المرقعة التي لا داعي لها، لسة قدامنا كتير يا ولية، اهمدي بقى!»

جلس داود إلى كرسي القيادة، يجاوره عبد الله وقد أجلسوا الطفل صالح على الكنبة الخلفية. انحدر داود بسيارته عبر الشوارع المظلمة، شبه الخالية، نحو طريق الكورنيش، من خلال الراديو ينساب خافتًا صوت عبد الحليم حافظ قائلًا: «تبيعوه وعمره ما باعكم ولا انشغل عنكم» ممتزجًا بهدير البحر، ترتفع أمواجه عالية ثم تلقي بنفسها على الصخور متناثرة إلى رذاذ سرعان ما يتلاشى في الظُلمة. استغرق صالح في النوم، وغاب الرجلان داخل خيوط متشابكة من الأفكار، تنساب السيارة على الأسفلت الناعم مطلقة نور مصابيحها الأمامية تخترق ظلمة الشارع، ينفصل راكبوها عن واقعهم إلى طبقات مركبة من المشاعر. يتنهد عبد الله بصوت مسموع ومثل التثاؤب تنتقل عدوى التنهد إلى داود.

عند المنشية صف داود سيارته على الكورنيش ثم سحب علبة سجائره فأعطى عبد الله سيجارة، والذي كان مقلًا في التدخين وإن لم يقطعه، ثم أخذ واحدة لنفسه، قال له عبد الله

بعد أن سحب أول نفس من سيجارته تاركًا الدخان يتكاثف فيما بينهما داخل فضاء السيارة:

- اسمع يا داود...

- خير؟

حكى له عن اليوناني خريستوفيدس الذي كان شريكًا له في إدارة فندق الريم بمرسى مطروح. وكان عبد الله قد باع نصيبه من أسهم الفندق وصفّى جُل أعماله مهاجرًا إلى الإسكندرية. قال إن الرجل حط على صفقة ممتازة تخص فندق المتروبول بمحطة الرمل، إذ إنه مطروح للاستئجار من قبل شركة التأمين المالكة له، لديه علاقات تضمن إتمام الصفقة لصالحه، ولكنه يبحث عن شريك.

- وأنا فكرت فيك يا داود، إيه رأيك؟

التمعت عينا داود شغفًا واهتمامًا بما يسمع، الحق أنه ما قنع قط بوظيفته، لا كمصدر للدخل ولا إرضاء لطموحه الهائل، لطالما حلم بإقامة مشروع يديره ويملكه، إلا أن عقله لم يسكن بعد إلى مرفأ أو يطمئن إلى فكرة.

يستدعي عقله صورة فندق المتروبول، ذلك المبنى الأبيض الكائن أبدًا خلف ميدان سعد زغلول على أقصى اليسار حيث تطل واجهته الأخرى على شارع صفية زغلول، ومن تحته مقهى تريانون، يحاول تذكر مكان بوابته الرئيسية، هل هي من جهة البحر أم جهة شارع صفية زغلول؟ لا تسعفه الذاكرة وإن لم تغب عن عقله صورة الشرفات المطلة على البحر، بشيشانها الخضر العالية ومساحتها الصغيرة المؤطرة بسور قصير من الحديد المشغول، لم يخطُ داخل الفندق نفسه من قبل، أحس برغبة بالغة في تفقده الآن وعزم عليها وهو يدير المفتاح في الموتور بينما يسأل حماه عن التفاصيل باهتمام بالغ يستشعره الرجل فيستفيض في الشرح، ولكن صالح لم يمهله تنفيذ فكرة العروج على الفندق حالًا إذ استيقظ باكيًا يرغب في حضن أمه واستمر بكاؤه رغم أن جده حمله عن الأريكة الخلفية وجعل يهدهده، قرر داود أن يرجعا الآن إلى البيت، كان يقود السيارة وقد استحوذت الصفقة على تفكيره، وصار عقله ملعبًا للأرقام، يجمع ويطرح، يتساءل لو يوافق سري على إقراضه جزءًا من المبلغ، يفكر في شركاء محتملين يعينونه على جزء من الصفقة، لم يفق من سيطرة الأرقام على عقله إلا على وقع زغرودة أم نعمة، التي أطلقتها حين بلغ مسمعها هدير الموتور يقطع صمت الشارع الهادئ، تبشر القادمين بالميلاد السعيد.

وكانوا قد نقلوا نعمة إلى الغرفة الأخرى حتى يتاح لهم تغيير الملاءات المدماة، وتنظيف الحجرة من آثار الولادة.

دخل إليها داود فرآها على الفراش تبتسم من وجه شاحب وهي تتطلع إلى الصغير النائم فوق ذراعيها، وقد أدنت وجهه الأحمر من وجهها، تحس بأنفاسه الساخنة وهي تتردد على وجنتها، معلنة مشرق حياة جديدة على عالمها. سبق صالح أباه مهرولًا يدفعه الفضول لرؤية الطفل الجديد، استقبلته بنظرة حنون، وقفز هو جوارها، يمد أصابعه الصغيرة راغبًا في لمس الكائن العجيب الذي يراه، صغيرًا جدًا، مغمض العينين، منكمشًا، فوق ذراعي أمه، فردته عن الطفل بلطف بالغ، وحين بلغ داود فراشها، قالت له بصوت واهن، عن ملامح مبتهجة رغم الإعياء البادي عليها:

- كرم..

ومدت إليه الطفل فحمله عنها، تفحصه بسعادة دمعت لها عيناه، ثم أذن في أذنه اليمنى، وقبل جبهته الصغيرة برفق.

لم تكن كريمة إذًا، وإنما كان كرم. طفلها الثاني الذي حين شجعته على التمسك بالحياة أنصت لها واستجاب، كرم الذي ولد يوم ميلاد مشروع داود الأهم على الإطلاق: «المتروبول».

الفصل الثاني

جانب من أوراق «سري علي مصطفى محمد سليمان الجن»:

المرحوم والدي علي بك مصطفى بن محمد سليمان محمد الطمباكشي. حضر جده الحاج سليمان مع محمد علي الكبير والي مصر -حضروا من قولة بتركيا عام 1801- وكان المرحوم أصلًا من ألبانيا (ثيرانا) وكان في الوقت نفسه يتاجر في التمباك مع الوالي (قبل أن يكون واليًا) وترك الحاج سليمان التجارة بعد وفاة ابنه ولذلك سميت العائلة (عائلة الطمباكشي) والحاج محمد عينه الأمير محمد علي (بصفة متصرف) على المحلة الكبرى، وكان رجلًا صالحًا وبعد أن أنهى مدة خدمته أقام في بلدة صغيرة اسمها (بلتاج) قريبة من المحلة الكبرى وقد توفي بها. والسبب في إطلاق اسم الجن هو أن الحاج محمد رحمه الله كانت له كرامات لا تعد ولا تحصى، وكان لا يتواصل إلا مع الجن المُسلم لأجل مصالح الناس ورفع الأذى عنهم بأمر الله طبعًا، فلم يكن رحمه الله إلا أداة الله لعون الناس حتى مات وعُمل له (مقام) أطلقوا عليه سيدي محمد الجن ويقام له مولد كل سنة.

وبعد موته حضر ابنه الحاج مصطفى إلى الإسكندرية وأقام بها بعد أن صفى أعماله (تجارة التمباك) وقام ببناء المنزل الكائن بشارع المتولي أمام جامع العطارين وأقام به ثم بنى بما تبقى له من مال أربع عمارات بالعطارين.

1

سبتمبر 1975

سري علي مصطفى محمد سليمان الجن، بيت داود، الإسكندرية.

المطبخ معبق بسحابات كثيفة من الدخان، ونعمة تتحرك بخفة بين البوتاجاز والرخامة والحوض وقد تكونت قطرات صغيرة من العرق على جبهتها. شعرها الأسود الفاحم مجدول في ضفيرة سميكة تتدلى عبر الإيشارب الصغير المعقوص أعلى رأسها، حتى منتصف ظهرها، يكشف جلبابها المنزلي عن جسدٍ في أوج ازدهاره، «سيدة تطرق بوابات الأربعين بكامل مشمشها(1)*» وذلك بناء على حسابات أمها، إذ إن أهل نعمة ليس لديهم شهادة ميلاد تخصها نتيجة احتراق أوراقها الرسمية داخل مدرستها إبان الحرب، وقد تم تسنينها من أجل عقد زواجها على داود.

- بتقلي فلفل!

التقطت نبرة الغيظ في صوته فلم تأبه لها، وكان سري قد عبر باب المطبخ يخطو على قدمين ثالثهما عصاه الخشبية المعقوفة، وقد قبض عليها بأصابع يمناه، بينما تقبض أصابع يسراه على كوب خال إلا من تفالة الشاي، وقد يئست نعمة من إذعانه لتوسلاتها أن يريح نفسه فلا يأتي إليها في المطبخ، وإن أراد شيئًا فما عليه إلا أن يرفع صوته بالنداء على الصغيرة «هند» ابنة الخادمة «نجاة» إلا أنه يصمم على أن يصنع لنفسه أكواب الشاي التي يحتسيها على مدار اليوم دون توقف، يأتي إلى المطبخ مزاحمًا نعمة، رافضًا مساعدتها، مؤكدًا أنها لا تستطيع أن تُعد له شايًا مضبوطًا كما يُحب، على الرغم من أنه لم يتح لنفسه الفرصة أن يجرب ولو كوبًا واحدًا تصنعه له.

وقد استهان داود بشكواها قائلًا لها أن تتركه يصنع الشاي لنفسه، ففي النهاية تلك هي المهمة الوحيدة المتبقية له من الحياة. دعيه ينشغل بها لئلا يأكله الفراغ حيًا. ونعمة تحب حماها وتشفق على حاله، بل وتلعن الحياة التي لفظته إلى الحجرة الصغيرة في قاع بيتها. بعد أن ماتت زوجته، أراد تمام الابن الأكبر لسري أن يزوج ابنه، «بكر»، ولأن بقية البيوت جميعًا التي كان سري قد وزعها بين أبنائه قوامها طابق واحد، فقد استأذن تمام أباه أن يتزوج ابنه في شقة أبويه الكبيرة في الطابق الأول من بيت داود، والتي صارت خالية إلا منه، على أن يشرع في بناء طابق جديد لبيت سبورتنج ينتقل إليه ابنه حين يتم البناء، ورحب سري بالونس، بل وتنازل لهم عن غرفة النوم الرئيسية متخذًا الغرفة المجاورة سكنًا له، إلا أن العروس لم تتحمل الحياة في بيت واحد مع جد زوجها! اندلعت فيما بينهما

الحروب منذ الأسبوع الأول، حتى وسط العريس عمته درية في الأمر، ومن ثم اتفق أن ينتقل سري إلى بيت داود وفي كل الأحوال ما هذا إلا وضع مؤقت إلى أن ينتهي البناء، وكلما بنى تمام دورًا تزوج واحد آخر من عياله فسكنه، حتى انتهى إلى بناء خمسة أدوار سكنت جميعًا وصار الوضع المؤقت أمرًا واقعًا. تقول نعمة لداود لقد طردوا أباك من بيته وقالوا لم نطرده، وتتجمل بالصبر على خميها وهي تتنهد عميقًا بينما تنحنى له ليمضي بخطواته المتثاقلة إلى الحوض فيغسل براد الشاي، يملؤه بالماء ثم يرجع إلى البوتاجاز يزاحمها أمامه متأففًا كالعادة من الأبخرة الكثيفة الصادرة عن القلي، بينما هي تحاول جاهدة ألا يتسبب إرباكه لها في احتراق الباذنجان والفلفل داخل طاسة القلية.

وقد تعلمت بالتجربة أن تترك له عين البوتاجاز الأمامية اليمنى خالية من الحلل، وإلا يمد أصابعه المعرورقة فيطفئ النار على حلة تطبخ فيها ليضع براد الشاي النحاسي مكانها دون اعتبار لإفساد ما تطبخ نعمة. مضى سري يصنع كوب الشاي الخاص به، وهو يلقي على نعمة محاضرة طويلة حول طريقتها التي يكره في الطبخ، ويشرح لها كيف كانت المرحومة زوجته تصنع الطعام على نفس طريقة أمه رحمها الله، حيث تلقفتها أمه بنتًا لم تبلغ الرابعة عشرة بعد، فلقنتها كل فنون الطهي حتى تفوقت التلميذة على أستاذتها، ويا ليتك سلمت نفسك للمرحومة تعلمك ما تعلمته من أمي يا نعمة، فنتجنب كلنا هذا العك الذي تطبخينه! ونعمة تتجمل بالصبر، تدعو لأمه وزوجته بالرحمة، وتقسم إنها ما ذاقت طعامًا طيبًا كالذي تعده حماتها رحمة الله عليها، تقسم كاذبة لأجل أن تجامل العجوز الخرف، فالحق أنها لم تستسغ أبدًا طبيخ حماتها، وكانت تأكل منه مرغمة خلال العزومات حتى لا تُحرج السيدة المسنة، وينتهي سري أخيرًا من صنع كوب الشاي الخاص به، فيأخذه ويخرج من المطبخ، فتتنفس نعمة الصعداء، وحين تنفرد بداود في حجرتهما ليلًا سوف تجعله يعترف أن طبيخها أجمل من العك الذي كانت تصنعه أمه رحمها الله، تفعل ذلك كل ليلة لتنفّس عما يتجمع في صدرها من حنق وضيق طيلة النهار، وحين يصفو قلبها باتفاق داود معها على أن طبخها أطيب من طبيخ أمه، تتمكن من إعادة شحن طاقتها لمواجهة يوم جديد صحبة خميها طيلة النهار وهو يعيد عليها نفس الكلام الذي لا يمل ترديده.

عبر سري الصالة الطويلة بالغًا حجرته الصغيرة عند نهاية الشقة، فتوجه إلى المكتب الخشبي أسفل الشباك، وضع كوب الشاي، ثم عاد يغلق باب الحجرة، قبل أن يجلس إلى مكتبه. وقد استأثرت الحجرة التي صارت مأوى سري بالشرفة الوحيدة في البيت، يشق بابها الجدار المقابل لباب الغرفة، وإلى جانبها دولابه الخشبي الصغير، بينما يحتل فراشه المسافة المتبقية من الجدار حيث باب الغرفة نفسه.

أسند عصاه على الحائط بجوار كرسيه، وأخذ عويناته من فوق دفتره المفتوح، وأحنى رأسه قليلًا يقرأ ما كان قد سطره قبل قليل، ليرى أين بلغت به الكتابة، رشف رشفات قليلة من كوب الشاي بينما يقرأ، وأخيرًا سحب قلمه من على المكتب، وشرع يضع خاتمة لمذكراته:

«أما أنا فعلاوة على كوني كنت كبير العائلة الساهر على مصلحتها تزوجت وأنجبت داود وتمام وإسماعيل ودرية وعايدة ولقد خضت المستحيل وأكثر من المستحيل في سبيل تربيتهم وتعليمهم حتى أوصلهم بعون الله إلى القمة، وزعت بينهم بما يرضي الله وكما ينص كتابه البيوت التي أملك، فقسمت بين درية وعايدة بيت العطارين القريب من المسجد نفسه، أما تمام وإسماعيل فقد أخذا البيتين المتلاصقين في صور، وأخيرًا بيت سيدي جابر الذي سكنه أبي من قبلي، وولدت فيه، ثم تزوجت فيه، كما أنجبت عيالي فيه، فقد كان من نصيب داود آخر العنقود. وغرقت أنا في العذاب والبؤس والتعاسة في سبيل إسعادهم، أنتقل بين حجرات صغيرة داخل بيوتهم التي كانت يومًا ملكًا لي، فلا أجد منهم إلا صدًا وإجحافًا، تلفظني البيوت ولم يعد لي من سكن وقد رحلت المرحومة زوجتي التي ما سكنت حقًا إلا إليها».

ورفع سري عينيه عن الأوراق، أسند رأسه الكبير المكلل بشعره الأبيض الناعم الكثيف، على كفه، ثم سرح بصره عبر الشرفة المفتوحة متفكرًا حتى غلبه النعاس جالسًا، وكان بيت العفاريت أمام بيت داود هو آخر ما علقت به عيناه قبل أن يجرفه تيار النوم.

وإذ به يرى جده الحاج سليمان يقف على الطوار المقابل للبيت، أمام بيت العفاريت، بدا في طلته المهيبة كما يتذكره، وقد ارتدى حلته الرسمية، وضغط طربوشه على رأسه، يتطلع إليه بحدة من عيني نفاذتي النظرة، جامد الوجه لا يبتسم، به غضب يمازجه مس من حزن، يشير إليه بكفه، مقطبًا، يتعجله أن يأتي إلى حضرته: «مش حتكف عن مرقعتك يا سي سري؟» وقد رن صوت جده مرددًا صداه في جنبات الشارع، فانتفض سري قافزًا عن مكتبه، وهرول إلى الشرفة، عليه أن يقفز منها ملبيًا نداء جده، مال على الجدار يسائل المسافة بينه وبين الشارع، هل ستكسر قدماه إن قفز؟ وتردد لحظات فسخط عليه جده، وأشاح بكفه في الهواء يعوي بصوته الجهوري: «حمااار» ودار على عقبيه فمضى يعبر شقًا بالجدار المسور لحديقة بيت العفاريت، حانيًا قامته ليتمكن من العبور، وكان جدار متعرج من الطوب احتلت شقوقه نباتات عشوائية جافة، وتكاثرت القمامة داخل ما كانت يومًا حديقة البيت حتى فاضت عن السور تعانق النبت العشوائي الشبيه بشعر بشري كثيف، خشن، لم يقربه ماء منذ دهور، وأما بالداخل حول البيت نصف المهدم، في تلك الأرض التي لم ير سري قدمًا بشرية تلامسها منذ لفظته أمه إلى الحياة، كانت الأشجار نمت وتشابكت وفاضت أوراقها مُشكلة

غابة كثيفة لا تمرر من الشمس شعاعًا، فتبقي الأرض أسفلها غارقة في ظلمة كثيفة، تعينها على ذلك أكوام القمامة التي لا تلبث تتكاثر فيها غير تاركة موضعًا لقدم، وما بال جده يخطو واثقًا إلى داخل تلك الأرض التي استولى عليها الجن فطردوا منها البشر طردًا! أراد أن يمنعه، أن ينادي عليه، أن يحذره من مغبة التعدي على ما اتفق منذ زمن أنه ملك خاص بالجن، يحكي له عن تلك المعاهدة التي تمت بين سكان شارع صور وملك الجان القاطن تلك الأرض عقب موته، إذ جاء سكان الشارع بشيخ وسيط فتواصل مع الملك، وكان العهد ألا يقربوا البيت ولا يقرب هو بيوتهم، فإن نقضوا العهد أطلق جيوشه تحتل بيوت الشارع وتعيث فيها فسادًا، ولكن صوت سري انحبس، يفتح فيه فلا تخرج منه إلا شهقات طويلة مؤلمة، وإذ بجده يظهر خارجًا من الشق الذي دخل منه، يمشي واثق الخطا، مهيب الطلعة، إلى أن يتخذ وقفته الأولى متطلعًا إلى سري في الشرفة، وفي يده اليمنى كيس قماشي، يحل رباطه، يمد أصابعه فتخرج بجنيه ذهبي يلقيه في الهواء فيدور عاكسًا شعاع الشمس في عيني سري، ثم يقع داخل كف جده المفتوحة.

سقط رأسه على المكتب فصحا وابتسامة جده معلقة في عين عقله، خلع نظارته وفرك عينيه اللتين لم تزايلهما انعكاسات الشمس على العملة الذهبية، وكانت شمس العصر قد مالت مرسلة خيوطًا حادة من النور إلى عينيه عبر شباك الشرفة، سحب عصاه من على الجدار، واتكأ عليها لينهض، ثم ذهب من فوره إلى الشرفة فعبر بابها ثم وقف نفس وقفته خلال الحلم، متطلعًا إلى البناية المهجورة، ومضت مقلتا عينيه بسعادة الاكتشاف يخالطها دفقة من أسف من يعرف أن ما مضى من العمر لا يُسترد! لقد خبأ جده الكنز هنا إذًا! مكان ما كان يخطر على عقل بشر! معقل الجن حيث لا يجرؤ إنسان على اقتحامه! وما عساه أن يفعل بالكنز الآن وهو بالكاد ينتقل بين حجرته والمطبخ والحمام، مستعينًا بعصاه على المشي؟ وكان قد رجع إلى الداخل ففتح دولابه ثم شد درجه الأخير، ومد راحته أسفل غياراته الداخلية متلمسًا حتى حطت أصابعه على برودة العملة الذهبية فأطبقها عليها وسحبها. ليست تلك المرة الأولى التي يزوره فيها جده في الحلم هو يقود خطاه راسمًا له خريطة الكنز، في الماضي كان يتحمس للأمر أيما حماس، يحرق وقته في تتبع العلامات التي تفضي بشكل متكرر إلى لا شيء، إلا أن سري كان قد شب وهو ينصت إلى عشرات الحكايات حول مكر جده، وكيف كان يتسلى بممارسة الحيل وحبك المقالب في أصحابه وأفراد أسرته جميعًا، إذًا فهو واثق أنه يزوره في كل حلم متسليًا بخداعه، لكن الأمل يشبه البرغوث الدؤوب، كلما فعصته بين أصابعك عاد للحياة يمتص من دمائك تاركًا حكةً مزعجة.

استلقى على فراشه، يدير العملة الذهبية بين أصابعه، فترسل انعكاسات متراقصة على جدران الغرفة، تتبعها عيناه دون أن تراها، ها هو دليل وجود الكنز بين أصابعه، لطالما سمع

حكايته من أبيه وأعمامه، إذ إن جده، حين صفّى تجارة التمباك قبل أن يهجر المحلة الكبرى إلى الإسكندرية، احتفظ بالجزء الأكبر من أمواله على هيئة جنيهات ذهبية، وقد وصى أولاده ألا يقربوا تلك الجنيهات فهي السلاح الأقوى يواجه به الإنسان شطحات الزمن ونوبات جنونه، ثم وجد أيديهم تمتد إليها، وشعر بها تتناقص، فخبأها عنهم، وقال فيما أسماه أبناؤه خُرف الشيخوخة، إنه سيترك لهم العلامات التي تقودهم إلى العملات الذهبية، وتلك العلامات سوف تكتشف نفسها لمن يستحق منهم. ومات الجد تاركًا أسطورته معلقة بين الأفواه مُضغة للتسلية، لا يصدقها إلا أقلهم. وأما عن ذلك الجنيه بين أصابعه، فقد كان آخر ما بقي من العملات التي أخذها أبوه من جده، وقد أهداه إلى أمه، فأهدته هي له عرفانًا بسيطًا بما حمل على كتفيه من أعباء أسرته جميعًا. وهو لن يفيد شيئًا من ذلك الكنز في شيخوخته، لكن ماذا عن الأبناء؟ أيعرف السر ثم يكتمه عنهم؟ الأب لا يحمل في صدره الضغائن مهما قسا الأولاد، سوف ينبئ داود بالخبر السعيد، وهو حين ينتشل الكنز من براثن الأحراش، ومخالب الجن، ستدفعه نفسه دفعًا إلى ألا يبخس أخواته حقوقهن، مهما يكون من أمر، لقد ربى سري أبناءه فأحسن تربيتهم.

2

أبريل 2018

آلاء على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوي.

رن هاتفي، وكان عبد الحيّ هو المتصل، عرفت أن فضولًا يساوره في معرفة ما آلت إليه الأمور مع ساري صادق، ولم أكن أدري ما أقوله له! الأمر معقد غاية في التعقيد يا عبد الحيّ، والقرار فيه لا يخصني وحدي، حتى وإن مالت نفسي إلى القبول تطهرًا من ذنبي المعلق، فالحق أنه لا كلمة مسموعة لي داخل تلك العائلة! ثم ماذا عن ذلك العائد من غربة طويلة، كيف يعيش في مصر لو افتضح أمره على الملأ! هل يُنشر الكتاب تكفيرًا عن ذنبي فأقع في ذنب اغتراب الرجل؟ مات أبوه وهو بعيد فهل يطيق أن تموت أمه أيضًا وهو مُجبر على غربته! قاطع مصطفى أفكاري قائلًا:

- موبايلك ده؟

فأومأت وأنا أتناول الهاتف لأرد عليه، وكان كلامي مع عبد الحيّ مقتضبًا سريعًا، لم نمنح ساري صادق ردًا، لازم نناقش الأمر مع باقي أفراد الأسرة، ومع السلامة، أراك قريبًا، وسألني مصطفى:

- صاحبك؟

- أيوه..

- صحوبية ولا صداقة؟

- لا طبعًا صداقة!

ويبدو أن صوتي خرج حادًا حيث رأيت وقع المفاجأة على ملامحه، هل أتنكر الآن لكل ما صرت عليه الفترة الأخيرة من حياتي فقط لأن فاضل خرج منها؟ هل كنت أكذب إذًا عليه أم على نفسي أم على الله! وهل أنسى كم احتقرت نفسي بعد أن قلت لصديقتي في الجامعة إن أباها ديوث لأنه رفض بقوة رغبتها في الحجاب وكنت أنا من أقنعتها به! هل أنسى أن تلك الذكرى سيطرت على عقلي لما أخذت قرار التخلي عن الطرحة! آه إنها لذكرى تنهش جسدي كلما عدت إليها، ولم ألحظ كيف يتأثر الجسد بحوادث العقل إلا حين قال لي فاضل خلال يوم غير بعيد: الجسد يتذكر. قالها بينما أحكي أنا عن قصص الحب التي مررت بها من طرف واحد دون أن تتطور إلى أي علاقات جسدية، قالها ليخبرني أن ذلك أفضل جدًا لقلبي، وأيسر حين تنتهي العلاقة وتبدأ فترة تجاوزها! ثم ترك جسدي يعاني آلام الذكرى وابتعد وكأنه

يحيل جملته: «الجسد يتذكر» إلى درس عملي لا ينسى!

قال مصطفى دهشًا من نبرة صوتي:

- طيب، مالك بس؟ أنا قلت حاجة ضايقتك؟

غمغمت برد لا يتضمن أي كلمات، لا أظن أن صداقتي بعبد الحي صارت مما يخجلني، ويسخر مني عقلي: حقًا يا آلاء؟ اطلعي من دول، تقولين عنه لأمك زميلي، تقولين لأصدقائك القدامى زميلي، ومع فاضل وإيمان هارون تسمينه صاحبي، فتضحك إيمان ساخرة منك وهي التي عرفتك وأنت لا تجرئين على تسمية أي رجل «بصاحبي»!

3

مطلع 2009

آلاء كرم، مكتبة الإسكندرية.

تلك أماكن تُخلق على شاكلة وظيفتها.

جدران رمادية باهتة، سقف تمتد خلاله المواسير الأسطوانية السميكة. المعمل الرقمي في «بي فور» أي في الدرك الأسفل لمكتبة الإسكندرية التي أعيد إحياؤها مطلة على زرقة البحر، فإن تركت سطحها وغطست نحو القاع بواسطة المصعد الذي لا مرآة له، فقد تلاشت كل الألوان ولم يعد هنالك سوى لون مُوحد للجدران والأسقف والأبواب، ممرات رمادية تقذف بك نحو قاعة رمادية ضخمة. عند مدخل القاعة بجوار بابها حجرة مستطيلة صغيرة تتسع لستة أفراد، جدرانها الزجاجية تجعلها جزءًا من القاعة، هنا يمكنك أن تتناول طعامك، أو تترك زجاجة المياه الخاصة بك لأنه من غير المسموح أن تعبر بها تلك الحجرة نحو القاعة. في أقصى اليمين حجرة زجاجية أخرى مربعة الهيئة هنالك يجلس المستر شاكر، مدير الديجيتال لاب، خلف مكتبه الذي يحتل ثلاثة أرباع الحجرة.

القاعة نفسها رصت بها الطاولات على هيئة خطوط مستقيمة متتابعة تشبه صفحات كراسة اللغة العربية، فوق تلك الطاولات أجهزة الحاسوب. القسم الداخلي من القاعة، به نوعان من أجهزة الماسح الضوئي، رصت أيضًا على نفس شاكلة الخطوط المستقيمة المتوازية.

لقد حرص المصمم على الالتزام بـ«الرتابة» تصميمًا لقاعة تعكس تلك الرتابة في وظيفتها. هنا المصنع الذي يحول الكتب الورقية إلى صيغة إلكترونية، يهدف المشروع إلى بلوغ مليون كتاب الكتروني في أرشيف مكتبة الإسكندرية، البعض منها متاح للجمهور عبر الموقع الرسمي للمكتبة، وهو عمل على أهميته التي لا يختلف عليها شخصان، مُطرد، مُمل، يكرر ذاته بلا توقف. تتخذ القاعة صفتها منه أو يتخذ هو صفته منها.

أقلب صفحات الكتاب أثبتها عن طريق ضغط أقصى طرف الصفحات بأطراف أصابعي ثم أضغط الزر، يمر الضوء ويرجع فتسجل صورة ضوئية من الصفحة، هكذا صفحة وراء صفحة لا بد من إتمام 3600 صفحة في أربع ساعات لو كنت موظفًا غير طموح مثلي، أما الموظفون الطموحون فهم من يخترقون سقف الأربعة آلاف صفحة أملًا في ترقيات وعلاوات في وقت ما غير معلوم. أقلب الصفحات، أثبتها، أضغط الزر. وإلى جواري كومة الكتب التي تنتظر دورها. كنت قد اخترت من بينهم كتابًا أقرأ منه بينما أعمل، وهو ما

يجعلني أبطأ ولكنه يعطي لذلك الوقت معنى على الأقل بالنسبة لي.

بين آن وآخر كنت أعثر على كتب نادرة ليس بإمكانك الحصول على نسخ منها خارج جدران المكتبة، أو روايات جميلة كنت أخرج من العمل لأبحث عنها حتى أستكمل القصة التي بدأت أقرؤها، ليس مسموحًا أن تضع فلاشة في أجهزة المكتبة، لذا اعتدت أن أرسل بعض صفحات الكتب لنفسي من بريدي الإلكتروني الخاص بالعمل إلى بريدي الإلكتروني الشخصي.

التقيت عبد الحيّ منذ الأيام الأولى لي في المعمل عقب انتهاء التدريب مباشرة، رآني أقرأ كتابًا بينما أسكان آخر، اقترب ومد يده نحو الكتاب الذي أقرؤه لينظر إلى غلافه، جفلت، ظننته واحدًا من المشرفين وسوف يوبخني لأنني أضيع الوقت وأبطئ معدل العمل. لكنه علق مباشرة على رواية «عناقيد الغضب» محتفيًا بها وحاكيًا عن فيلم قديم مأخوذ عنها. ثم مد كفه نحوي قائلًا «عبد الحيّ» فسلمت عليه كارهة لمس رجل أجنبيّ لا يحل لي، منعًا لإحراجه لا أكثر.

في مثل تلك الأحوال كنت سرعان ما أرغب في التعريف عن نفسي بتلك الطريقة «آلاء، متزوجة» درءًا للشبهات وإبعادًا للتوقعات وبدايات المطاردات الغرامية المملة. لكن عوضًا عن ذلك كنت ألمس الدبلة الذهبية وألفها في أصبعي تلك الحركة التي بدأت معي متعمدة ثم صارت عادة كلما اقترب مني رجل، أي رجل.

لكن عبد الحيّ لم يهتم بذلك مطلقًا. كان شغوفًا بالكتب ولاحظ شغفي بها، وهنا في ذلك المعمل الرقمي حيث يتمحور عمل موظفيه حول الكتب، لا تجد شخصًا واحدًا يهتم بها. أراد أن يجد من يتحدث معه حول الكتب والكتاب والسينما ولم يعثر على شخص غيري، وأنا لا أتخذ أخدانًا، فسميته زميلي، وحتى مع تطور علاقتنا إلى ما يشبه الصداقة، أبقيت على الكلمة التي اعتاد أن يسخر منها «زميلي»!

4

سبتمبر 1975

سري علي مصطفى محمد سليمان الجن، بيت داود، الإسكندرية.

متى أضاف داود كل تلك المساحات الشاسعة إلى شقته؟ وأين بالله الحمام! يهرول سري بين جنبات الشقة مزنوقًا لدرجة أنه فكر في قضاء حاجته في ركن المطبخ! ولكنه تحامل واستكمل البحث عن الحمام، وحين وجده أخيرًا دعس بقدمه الحافية شيئًا طريًا، لزجًا وكريه الملمس، ولما ألقى ببصره إليه، رأى قطعة ضخمة من البراز، وإذا به يكتشف أن الممر المفضي إلى المرحاض مليء بقطع براز متنوعة الحجم والهيئة، وقام من نومه ممتعضًا، مزنوقًا. تطارده تلك الكوابيس كلما داهمه نداء الطبيعة وهو نائم.

وكان البيت خاليًا إلا منه، إذ رفض الذهاب إلى غرس صغرى شقيقات نعمة، لم تعد به طاقة إلى الخروج من البيت فضلًا عن احتمال إزعاج حفلات الزفاف. وجلس إلى مقعده بالشرفةبعد أن صنع لنفسه كوب الشاي، ملقيًا ببصره إلى صفحة السماء المصبوغة بلون برتقاليّ دافئ بين قمم البنايات، تركته ذيول الشمس الغاربة، وعصافير المغرب تشق صفحة السماء ظلالًا كمثل الموجودات جميعًا، لم تُضأ مصابيح الشارع بعد، والتقطت أذناه صوت خطوات زاحفة بالشارع، فألقى ببصره إلى الطوار المقابل ليرى ظلًا آدميًا يتحرك مضطربًا نحو شق السور الذي سبق ورأى الحاج سليمان يعبر من خلاله، فانتبهت حواسه جميعًا، وحرص ألا يصدر منه صوت يُجفل المتسلل، ولاحظ بين يديه ظلًا صغيرًا يتلوى، وعبر الرجل الشق فغيبه السور عن عيني سري، ومرت دقائق شعر بها عمر حتى خرج الرجل وقد خلت يداه، وما إن حط بقدمه على الرصيف أمام بيت العفاريت، حتى أطلق ساقيه للريح!

وانزعج سري أيما انزعاج، ما جاء بالرجل هنا؟ ولمَ دخل؟ وما الذي تركه في الداخل! آاااه الكنز لم يعد في مأمن، لو ذاع الخبر أن رجالًا يدخلون ثم يخرجون لا يمسهم ضر لصارت الأرض مشاعًا، ولن يمر وقت طويل إلا ويضع واحد من أولئك الغوغاء يده على كنز الحاج سليمان.

وقد سبق واستدعى داود إلى حضرته بعد أن كشف له الحاج سليمان سره، دفع إليه بالعملة الذهبية المسكوكة عام 1821، تبعًا لما نُقش عليها أسفل صورة الفارس الذي يدوس تنينًا بأعقاب حصانه. فلم يجد منه إلا إنكارًا وخذلانًا، ذكره بوقفته القديمة معه عند احتياجه الفلح للنقود من أجل صفقة المتروبول، لقد ضحى بمدخراته لأجله وها هو لا يبالي بكنز جده! الأسوأ كان ما لمحه في عيني داود من شفقة، وكأنه لا يرى فيه إلا رجلًا مسنًا داهمته

الشيخوخة. حنق عليه وصرفه عنه، وإذ بداود يرجع إليه اليوم التالي، عارضًا عليه أن يرفع شكوىً إلى الحي حول القمامة المتراكمة ببيت العفاريت، علهم ينظفونها ثم يتمكن داود من البحث عن الكنز! ولد غبيّ يريد أن يقدم كنز جد أبيه لعمال الحي لقمة سهلة، سائغة، نهره بشدة بعد أن أخذ منه قسمًا ألا يفكر مجرد تفكير في التواصل مع الحي، وها هو لا ينِي يراقب البناية من شرفته لا يكل ولا يمل.

لو خرج ذاك الرجل من الأرض سليمًا لم يمسه سوء، فلم لا يجرب هو أيضًا؟ الفرصة سانحة بخلو البيت، وشعر أن الدماء تجري متسارعة في عروقه، وبتلك الطاقة العجيبة تداهمه، فنهض وسحب عصاه من على الجدار عازمًا على المضيّ قدمًا.

وفي تلك الأثناء داخل القاعة البيضاء مرتفعة السقف صدحت الدفوف معلنة قرب ظهور العروسين، فجلجلت أم نعمة بـ زغرودة عريضة ممتدة، تبعتها الزغاريد تمتزج مع قرع الدفوف، وفُتحت درفتا باب القاعة المهولتان، المبطنتان من الداخل بالقطيفة الحمراء، وتقدمت ابنتها العروس متأبطة ذراع عريسها، تخطو على سجادة عجمية مزركشة باللون الأحمر، حاملو الدفوف في زيّ موحد من اللون الأحمر يصطفون في صفين يمر بينهما العروسان على مهل، وتتقدم البنات الصغيرات في فساتينهن البيضاء القصيرة، يحملن بين أيديهن سلالًا من الخوص ممتلئة ببتلات ورود بيضاء، فيمطرن بها العروسين، بينما شقت أم نعمة الصفوف تنثر على العروسين ملحًا.

كان داود قد رحب بسعادة بإقامة عرس صهرته في المتروبول. وقد اتخذ لنفسه مجلسًا بالطاولة الكبيرة التي تتصدر القاعة أمام الكوشة مباشرة، يملأ جسده الضخم كرسيه، أنيق داخل حلته الرسمية، وسيم وقد تناثرت شعرات بيضاء مختلطة بسواد شعره الكثيف الناعم، مبتسم ابتسامته المرحة التي تعكس مزاجًا رائقًا. إلى يساره جلست نعمة وقد عقصت شعرها الأسود الغزير فوق رأسها بمشبكٍ من الألماس كعادتها وفستانها الأرجواني أنيق يبرز مفاتنها في غير ابتذال، من يراها لا يصدق أبدًا أن الشاب الجالس على طرف الطاولة، عريض المنكبين، ممتلئ الجسد، وقد نما تحت أنفه شارب شكري سرحان في فيلم البوسطجي، ما هو إلا ابنها البكري صالح. غابت ابتسامة داود وتعكرت ملامحه حين لمح محمد حسين المحاسب يتقدم نحو الطاولة متأبطًا ذراع امرأته، ووقف الجالسون يمدون إليهم أيديهم بالتحية، بينما ظل داود جالسًا وقد تبدلت ابتسامته المرحة إلى أخرى صفراء، قال للرجل في شيء من الاستهزاء الخفي:

- عاش من شافك يا حسين، فينك؟

فردّت امرأته بدلًا عنه بفخر:

- مشغول دايمًا، جوزي بقى واحد من كبار رجال الأعمال.

قال داود بتهكم مفضوح:

- والنبي؟ لأ، أنعم وأكرم..

وتبادل الرجل مع داود نظرات حادة، وقالت نعمة لتكسر التوتر كي لا يفسد عرس أختها:

- اتفضلوا اتفضلوا، نورتونا..

وتحركت تدعوهم أن يتبعوها إلى الطاولة المخصصة لهم، فمشوا خلفها بعد أن أومأ الرجل برأسه مبتسمًا لداود ابتسامة صفراء أراد أن يغيظه بها حتى كاد داود أن يبصق من خلفه لولا أن تمالك نفسه!

وأما كرم ومصطفى فقد تمكنا أخيرًا من الزوغان بعيدًا عن قبضة نعمة، فتسللا إلى خارج قاعة الفرح، ثم انطلقا متجولين بين أرجاء المتروبول، كرم طويل نحيف، يكلل شعَره الكثيف رأسه الصغير، ملامحه السمراء وعيناه العميقتان يذكران بصورة أبيه، وإن كان لم يبلغ شيئًا من جسده عرضًا وامتلاءً، وأما مصطفى وكان مراهقًا في السادسة عشرة من عمره، فقد استمد معظم جيناته عن عمه تمام، عينان خضراوان تومضان من وجه أسمر كمثل سمرة أمه، وشعر بني فاتح مائل للصفرة، ولم ينم طويلًا كأخيه وإن كان مثله نحيلًا.

وقفا عند مدخل بار الفندق يتطلعان إلى القاعة الأنيقة، خافتة الإضاءة، بكراسيها الحمراء المتناثرة حول الطاولات الصغيرة، يجلس إليها نزلاء من الأجانب يحتسون كؤوسًا من الشراب العجيب، مختلفة ألوانه، وقد صكت أنوفهم تلك الرائحة الخاصة بذلك المكان دونًا عن غيره، في الخلفية تصدح موسيقى كلاسيكية خافتة، أحسوا بولوج القاعة كأنهم انتقلوا إلى عالم آخر، وكان عامل البار النوبي يعرفهما، فيبتسم إليهما ابتسامته الودودة الواسعة مرحبًا، وأطلقت ابتسامته الشجاعة في قلب كرم فمضى نحو البار بخطوات واثقة، يتبعه مصطفى، حتى اتخذا مقعديهما أمام الساقي الذي رحب بهما قائلًا:

- يا هلا بالأفندية.

ثم استطرد متسائلًا:

- مش فرح خالتكم في القاعة؟

قال كرم متخذًا ملامح جدية وكأنه رجلٌ ناضج:

- مليش في جو الأفراح.

وضحك منه الساقي ضحكة مرحة قائلًا:

- ماشي يا سي كرم وماله، منورين يا رجالة..

وجاء رجل إلى البار فمضى إليه النادل وسأله عما يطلب ثم أعده له، وكان كرم منتبهًا بجل حواسه لما يقول الرجل، وهو يتقن الإنجليزية، لكنه لا يدري الفرق بين تلك المشروبات الجهنمية، فلما عاد النادل قال له كرم مكررًا ما سمع من الرجل:

- One shot of tequila please.

وقال مصطفى سريعًا، «وأنا!» فجلجلت ضحكة النوبي، ثم قال موجهًا حديثه إلى مصطفى أولًا:

- أنت أجبلك كوباية لبن دافية يا سي مصطفى!

ثم استطرد وهو يتطلع إلى كرم: «وأنت لسه بدري عليك يا سي كرم، عندك كام سنة؟».

- تمانتاشر.

وكان مصطفى قد أغاظه قول النوبي فقال حانقًا:

- كذاب!

فلكزه كرم في ذراعه ثم مال عليه هامسًا في أذنه:

- حدوقك يا عبيط، أسكت. ثم توجه إلى النادل: ماشي في التسعتاشر يعني، فأومأ مصطفى يؤكد كذبته، أملًا في أن ينال مما سيناله أخوه جانبًا.

قال النوبي ولا يزال محتفظًا بابتسامته:

- وفين بطاقتك بقى؟

ولم ينتظر ردًا لأن امرأة جاءت إلى البار فتركهم إليها، وتلك المرة أيضًا أعمل كرم جل حواسه منصتًا لما تطلبه المرأة، فلما رجع إليهم النوبي سأله كرم:

- إيه الفرق بين التيكيلا والواين؟

- النبيذ يا سيدي بيعملوه من العنب، أما التيكيلا فمن..

وانقطع كلام الرجل حين اقترب من البار مجموعة من الزبائن فتوجه إليهم وانشغل معهم، بينما كرم يحرك عينيه بفضول بين الزجاجات الملونة المتراصة على الأرفف خلف البار، يضيق عينيه فيقرأ المكتوب عليها، ويرسل أذنيه منصتًا إلى ما يطلبه الزبائن، وقد أيقن أن

النادل لن يسمح له أن يشرب شيئًا فترك مقعده وقام يتبعه مصطفى، خرجوا من البار وقد وضع كرم هدفًا نُصب عينيه دون أن يُفضي به إلى أخيه، يسأله مصطفى هل يرجعون إلى الفرح؟ فيقول: لا، ويقول رافعًا أصبعه أمام فمه: شششششش. ويتسللون صاعدين الدرج على مهل حريصين ألا يلحظهم عامل الاستقبال، وفي الدور الأول يعبرون الكوريدور خافت الإضاءة وصولًا إلى مكتب داود الفظلم، ومرة أخرى يقول كرم: شششششش. ويفتح الباب ثم يغلقه من ورائه، هناك بالركن الأيمن على الخوان، تتراص زجاجات الخمر من أنواع عدة بلا رقيب.

يقع بيت داود بجوار التلة التي مُد عليها شريط الترام، في منتصف المسافة بين محطتي مصطفى كاملوسيدي جابر المحطة، وهي البناية الأخيرة المنتصبة على ناصية شارع ابن شعبة المتفرع من شارع المشير أحمد إسماعيل، أمام بيت داود يقع بيت العفاريت، وهو بقايا مهدمة لبيت على أرض خربة، كان فيما مضى بيتًا من طابقين تحوطه حديقة، حين مات مالكها العجوز انتقلت ملكيتها لعشرات الأحفاد الذين تنازعوا على الميراث، ثم أطلق واحد منهم إشاعة أنها مسكونة بالعفاريت ليعطل بيع الأرض، فتُركت لأصابع الزمن وسكان الشارع يكومون داخلها قمامتهم.

يتكون البيت من ثلاث طوابق خلاف السطح، وقد كان في البدء بيتًا من طابق واحد تحوطه حديقة صغيرة، ثم أضاف إليه الحاج سري طابقًا ليزوج داود آخر العنقود، وعندما بلغ أبناء داود سن الزواج، جاء بمقاول وطلب إليه بناء طابقين، قسم الدور الثاني إلى شقتين، تزوج كرم في إحداهما وبقيت الأخرى مؤقتًا ملعبًا للأطفال، وأما الطابق الثالث فكان قوامه شقة واحدة سكنها صالح.

شد سري العزم وارتدى بذلته ثم نزل الدرج على مهل، عبر الشارع نحو الجهة الأخرى، ثم وقف أمام شق الجدار مترددًا خائفًا. لقد أُضيء مصباح الشارع ورغم ذلك لم ينفذ منها شعاع واحد عبر الجدار، كان يتطلع إلى فراغ حالك الظلمة لا يبين منه شيئًا، لقد سبق ودخل الحاج سليمان فخبأ كنزه وخرج سالمًا، وحتى إن لم ير ذلك رؤي العين فقد رأى منذ نصف ساعة ذاك الرجل يخرج كما دخل لم يمسه سوء! لكن أواثق هو أن الرجل خرج سليمًا؟ لقد أطلق ساقيه للريح فور أن عبر من الظلمات إلى النور، ترى ألا يكون قد مسه جان! عليه ألا يترك نفسه للخوف يفتت من عزيمته، وأشعل المصباح اليدوي الذي أتى به معه، فوجهه نحو الداخل وإذ به لا يبدد من الظُلمة الكثيفة بالداخل شيئًا، خيط هزيل من النور لا يظهر حوله إلا ذرات الهواء ثم لا شيء، وكأن الداخل لا شيء إلا طبقات عميقة متتالية من ستائر سوداء كثيفة. وجه المصباح إلى الأرض عله يرى موطن قدميه على الأقل، وسحب نفسًا عميقًا إلى

صدره، وهمس بالصمدية، ثم استعان بالله، فدفع بعكازه نحو الداخل أولًا، فإذ به يغوص للأسفل فوجل وتراجع، بدا أن الأرض نفسها بعد السور منخفضة مقدار نصف متر أو ما شابه، بقي جامدًا للحظات، يمرر مصباحه على الأرض أمامه ولا يرى شيئًا، وما المشكلة؟ قال يشجع لنفسه، لن أتراجع لأجل درجتي سلم، ومهما يكن من الأمر بسيطة، واستعان بالله، ومد عكازه ليغوص في الظلمة ثم يثبت مرتعشًا بفعل رجفة يده، وساندًا عليه دفع بقدمه الأولى ثم الثانية، وإذ بساقيه تغوصان إلى ما قبل ركبتيه بقليل في بحر مرتفع من القمامة والنبت العشوائي وأشياء أخرى لا يدري كنهها، ورائحة كريهة نفاذة تداهم أنفه بقوة، إنها لرائحة الموت بلا ريب! وانتابه دوار هائل، وشعر بجسده يميد، وقرر التراجع وبصعوبة بالغة دار على عقبيه، فإذ بشيئًا يقفز عليه من قلب الظُلمة، ففقد اتزانه وسقط منه المصباح الكهربائي ضائعًا في الظُلمة كنار أطفأها الماء، ثم وقع هو أيضًا مدفونًا داخل بحر العفن، وانتابه فزع هائل، لقد دفن نفسه قبل أن يموت، إنه يختنق، الرائحة الكريهة تحاصره وتملأ حواسه فلا تدع له قدرة على التقاط أنفاسه، ومد كفه إلى الأرض يحاول الدفع بجسده إلى القيام، وإذ بكفه تلمس عجينًا كريهًا لا يجد له في عقله صورة! وشعر بمعدته تتقلص بقسوة، لا بد من أن ينهض، واستعاذ وحوقل ولم يكف لسانه عن ترديد المعوذتين، وقفز شيئًا على صدره ففزع وصرخ، وردد سورة الكرسي بصوت عال مرتجف، ووجد رأسًا يلتصق برأسه فعرف من ملمسه أنه قط، أزاح القط بعيدًا عنه وعاد يتلمس بكفه بحثًا عن عصاه، ولسانه لا يكف عن ترديد القرآن، عاد القط يلتصق به ويصعد فوق صدره، وهو يبعده بيد ويبحث عن عصاه بالأخرى، ويبتهل إلى الله بلسانه، إلى أن حطت راحته أخيرًا على عكازه فسحبها إليه واستدعى كل ما بقي فيه من قوة لينهض، ومن خلفه قفز القط متسلقًا ساقه، غارزًا مخالبه في قماش سرواله، صرخ متألمًا وكاد يفقد اتزانه مرة أخرى، ولكنه مال بجذعه فأسند كفيه إلى الرصيف عبر شق الجدار، يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، يكاد صدره أن ينفجر من فرط المجهود، جرى القط على ظهره ثم قفز من فوق رأسه إلى الطوار، واستعان سري بما بقي لديه من طاقة، وإن لم يبق منها شيء فقد استمد من رعبه قوة، لا بد أن ينتشل نفسه من هذا الجحيم، نهض وحط بعكازه على الرصيف، رفع قدمًا ثم أخرى، وحين وجد نفسه أخيرًا في الشارع سقط على الأرض إعياءً، وضلوع صدره تكاد تتمزق عن فوران الدم يضخه قلبه في سرعة وعنف، ومال على جنبه يشهق من فرط الألم، بقي على وضعه، نائمًا على رصيف الشارع دون أن يمر عليه إنسان، دقائق مرت به كالدهر، رأسه الكبير ملقى كبطيخة على الرصيف، ترنو منه عينان لا تريان شيئًا من فرط زوغانهما، وإذ بالقط يقترب منه، يتبادلون النظر للحظات، ثم يقعى أمام عينيه ليتبين تفاصيله للمرة الأولى على ضوء مصباح الشارع، هزيل، شديد النحافة حتى لتظهر عظامه من تحت جلده الهش الأجرب، مجروح في مواضع

عدة، ذلك ما عجز سري عن استيعابه أو فهمه، بل وشهق مرتاعًا من هول ما رأى، أن فك القط كان مخيطًا بخيط أسود سميك!

5

أبريل 2018

آلاء على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوي.

رسائل متتابعة من أمي تأمرني فيها بأن أحتفظ بمذكرات بابا معي إلى أن تصل إلى الإسكندرية، رسالة تخبرني فيها أنها قادمة بصحبة أحمد فرج! وأيضًا زوجها قادم، ثم تؤكد عليّ مرة بعد أخرى ألا يسبقها أحد إلى الأوراق، تقول إنني لا أفهم شيئًا وإن مصطفى هذا الذي أسافر صحبته ما هو إلا قنبلة موقوتة، لو انفجرت لضاعت سمعة الأسرة وتدمر مستقبلي وهيهات أن يقربني عريس بعد الآن! أنا لا أفهم شيئًا؟ أبتسم بل تكاد ضحكة تنفلت مني لولا أن كتمتها! أحاول إقناعها بأن تنتظر حتى الصباح، فلا تأبه لتوسلاتي، أواه كل ذرة في عقلي تتأوه، لا سبيل للنجاة الآن إلا بوضع ثقتي في مصطفى، أفكر في طريقة أشرح له بها الأمر فلا أجد إلا كلامًا يدين، لمَ استأجرت شقة بينما أعيش في بيت داود؟ لأي غرض؟ عليّ أن أحبك كذبة ما لنمر على الشقة، آخذ منها المذكرات وأدسها في الحقيبة فلا يلحظها، لكن ما هي حجة المرور على بيت ما بعد منتصف الليل إذ لن نصل الإسكندرية قبل ذلك الوقت! ثم كيف تأتي بزوجها إلى بيت لا يسمى فيه إلا «الخائن!» هل جننت؟ وأنا التي لا تفهم شيئًا؟ كم أنت ساذجة يا ماما! أعرف كل شيء عن مصطفى، قال لي فاضل مرة إن صديقًا له كان في حاجة إلى مخبأ من أهله ومن الكنيسة وإلا قُبض عليه وأودعوه مصحة، حيث سيعذب ليل نهار، وفعل الحب فعلته فوافقت وآويت الشاب المسكين ليلة وضحاها، في البداية وجدت نفسي أتأمل الشاب وكأنني أشاهد كائنًا فضائيًا، وبمرور الوقت أدهشتني رقته وسعة صدره ومقدار ثقافته رغم صغر سنه، إذ كان في العشرين من عمره. تدريجيًا تبددت عن صدري سطوة المبادئ التي نشأت عليها، فنمت بيننا صداقة من ألطف الصداقات التي خبرتها على مدار حياتي، ثم هاجر مايكل وانقطعت عني سيرته بعد أن ترك في نفسي أثرًا هو مزيج من القبول والحيرة، أين قد أدفن الكلمات المقدسة؟ وكيف أحبها وأستغرق في كلماتها وأرددها فتنزاح الكآبة عن صدري، مخلفة لحنًا جميلًا، وفي الوقت نفسه أحب وأقبل المغضوب عليهم بين سطورها؟ وجرجر السؤال أذياله منسحبًا دون إجابة. ولكن مصطفى تربطني به علاقات الدم! لقد نما من نفس البذرة التي نشأت أنا منها، فماذا أفعل بكل ذلك الهدير داخل عقلي، وها أنا أنكر عليه سؤاله بيجاحة وكأنني لم أتخذ لنفسي حبيبًا، ولولا أن تركني هو لكنت ملتصقة به حتى اللحظة! مالي أغالي في إنكار ذنوب اقترفتها دون أن أرى فيها ذنوبًا! هل كان الأمر كذلك إذًا؟ أتلك هي حقيقة نفسي؟ أعيد تشكيل مبادئي تبعًا لرغبات قلبي! ذلك الرجل له تأثير مُريك على عقلي، ويبدو أن عذاب نفسي بان له أثر على وجهي، إذ

سألني فجأة وكأنما لينتشلني من أفكاري:

- أنتي كنتي متجوزة قبل كده، صح؟

- أيوه..

- يضايقك لو سألت عن سبب الطلاق؟

آاااه سبب الطلاق، سؤال له من الإجابات ألف، كل إجابة منها تخرج ممزوجة بألوان من حالتي المزاجية حين أسأل، وطبيعة السائل، فمن هو مصطفى وأي إجابة منها تصلح له يا ترى؟ وأول ما طرأ على عقلي كانت تلك الإجابة التي لم أبح حتى ولا لأمي، فقط شخصان ممن عرفت على مدار حياتي، هما فاضل وإيمان هارون، إجابة لن يسمعها مني أبدًا بطبيعة الحال!

- متفقناش!

قلت ذلك لمصطفى بديلًا عن الكلمة التي راودتني «متبسطناش!» وأنا أطرد عن عقلي ذكريات الفراش البائسة خلال السنوات الأخيرة لزواجنا، الصد منه في مقابل الرغبة مني! صد لم أعرف له أبدًا سببًا ولم أجرؤ يومًا على السؤال، ولكن أحقًا لا يزال يضايقني صد ياسين؟ أم أنه الصد الأحدث عهدًا حين قابلت فاضل للمرة الأخيرة، وأنا أمد فمي لأقبله فيندفع مبتعدًا عني كمن لدغته عقربة! آاااه هل أرش جسدي بيرسول بدلًا من العطر وأنا لا أدري!

- ولا مخلفتوش؟

- أنا لا إنجابية..

- بجد؟

بان في نبرة صوته تفاؤل لست أعلم دواعيه، هل كنت لا إنجابية مع ياسين؟ بالطبع لا! لقد كنت محظوظة لا أكثر، ولو لم يرزقنا الله العقم لكان أطفال معلقون في رقبتي الآن.

- بقالك قد ايه سايباه؟

- ست سنين!

- وكل ده عايشة single؟

سأل مندهشًا، فكانت دهشته بالنسبة لي أول دلالات غربته الطويلة، السائد عندنا أن تكون سينجل أو مخطوبًا أو متزوجًا، لا وجود للعلاقات إلا تحت الكباري أو خلف الأبواب المغلقة لو

نجحت في تغفيل البواب والجيران. تجاهلت سؤاله وأشعلت سيجارة جديدة وفعل مثلي وقالت لنا الست: «الليل اللي كان غربة، مليته أمان، والعمر اللي كان صحرا، صبح بستان»، وكانت إيمان هارون تعشق أم كلثوم فأحببتها لأن الزن على الودان أقوى من السحر، وكلما اجتمعنا في بيتها كان صوت أم كلثوم يصدح في الخلفية، حتى صارت أغانيها هي الموسيقى التصويرية لتلك الحياة التي عشتها بالقرب من إيمان.

يتكاثف دخان سجائرنا داخل مساحة السيارة، يخالط بعضه بعضًا إلى سحابة واحدة كبيرة، انتبهت لتوي أن ضبابًا بيننا آخذ في الانقشاع رويدًا، وأن لي عمًّا طازجًا لم تفسده عليّ سنوات الألم والخيبات المتتابعة والقرارات الغبية التي أفسد تلاحقها ما بيني وبين أهلي. عليّ إذًا أن أحتويه لا أن ألفظه، هل يحفظ سر شقتي الخاصة لو بحت به! شرقت على وقع أفكاري، فانتابتني نوبة سعال وإذ به يمد يده إلى صندوق العجائب جواره، يفتحه ثم يناولني زجاجة مياه «تابروير» زرقاء وهو يسأل:

- بتقرفي؟

أخذتها منه وأنا أستعيد ذكرى زجاجة مشابهة لتلك، اشتريتها حين قررت الكف عن استخدام البلاستيك، فتحتها وأدركت بينما أشرب كم كنت ظمآنة، كادت الزجاجة تنتهي، قلت له:

- خلصتهالك!

- ولا يهمك، نقف عند أول بنزينة نلاقيها ونجيب ميه.

عاودتني تلك الرغبة في المرح، التي تنبثق عميقًا من أعماق صدري، كنجمة في سماء حالكة السواد تومض لحظة ثم سرعان ما تنطفئ، فقلت له فيما يشبه المزاح، وقد ثبتُّ عيني على الطريق حتى لا تفوتني اللافتة القادمة:

- علشان مشكلة البلاستيك أنا وياسين اتطلقنا..

وكان ذلك سببًا جديدًا للطلاق أحكيه حصريًا لمصطفى وحده دون غيره، نظر إلي متسائلًا، وقالت اللافتة إن الإسكندرية تبعد عنا بمقدار 155 كيلو.

6

أكتوبر 2009

آلاء كرم، مكتبة الإسكندرية.

قررت يومًا أن أقلل من استخدامي للبلاستيك، فكان القرار، على نحو ما، إيذانًا بطلاقي من ياسين الذي وقع عقب ذلك القرار بنحو عامين وبضعة أشهر.

كنت في طريقي عبر ساحة المكتبة متجهة إلى سيارتي صحبة أماني جبريل، حين سمعت نداء باسمي، التفتت إليه فرأيت نورهان بطولها الفارع وابتسامتها المُشرقة فاتحة ذراعيها على اتساعيهما وهي تقترب نحوي. وياااه نورا، منذ متى لم نلتق خارج نطاق السوشيال ميديا! وكم أحببت الصدفة بما دفعته في نفسي من ذكريات الكلية وناسها. وإن لم تكن نورهان من أفراد شلتي في الكلية، فقد كانت عضوًا في شلة موازية غالبًا ما كانت تجاور شلتي في جلستنا داخل الجاليري، وأحيانًا ما كانت تجمعنا رحلة أو خروجة ما. وهي من القلائل الذين لم تبتلعهم الغربة. و«بتعملي إيه هنا يا نورا؟» أشارت إلى تلك الحقيبة القماشية البيضاء تتدلى عن ذراعها، مرسوم عليها بحبر أزرق حوت تلتف حوله نصف دائرة من الكلمات باللغة الإنجليزية: «Enough plastic bags» وأسفل الرسم عدة لوجوهات من بينها لوجو مكتبة الإسكندرية.

ووقفنا نتبادل أخبارنا على عجالة، بينما أشعر بتململ أماني جواري، تحثني على إنهاء اللقاء لكي تعود إلى بيتها، وقد اعتادت أن تستقل معي السيارة فأنزلها عند بيتها الذي يقع في الطريق إلى بيتي. أخبرتني نورا عن مؤتمر المناخ الذي تحضره في المكتبة، وكنت أعلم من خلال الفيسبوك اهتمامها الشديد بقضية التغيرات المناخية، وأحب ذلك منها وإن اكتفيت بمحبة لا تتعدى اللايك والـ love، شجعتها وأثنيت عليها فإذ بها تصمم على إهدائي حقيبتها القماشية، فهي تملك منها أخريات. «ومن هنا ورايح يا آلاء خديها معاكي للشوبينج، بلاش أكياس بلاستيك بليز» وسعدت بالبادرة، وأحببت الحقيبة البيضاء برسوماتها الزرقاء الرقيقة، وعدتها خيرًا ثم افترقنا متواعدين على لقاء قريب لا أظنه ولا تظنه هي أنه سيتم.

صباح الجمعة، أفقت من نومي على أريكة الصالة على صوت ياسين وهو يسألني عن الأكياس، إذ لم يجد أيًا منها حيث اعتدنا أن نخزنها.

طردت عن جفوني النوم، ولم أرد على سؤاله مباشرة، حل بجسمي نشاط ناتج عن شعوري بإنجاز عمل عظيم، فقفزت من على الأريكة وتركته واقفًا في الصالة بينما أقطع الطرقة بخطوات سريعة نحو حجرة النوم، تناولت حقيبة التسوق خاصتي من على المشجب

ثم عدت بها مبتهجة، وأنا أحكي له عن قراري الذي تمكنت من الالتزام به لمدة ثلاثة أسابيع كاملة:

تكدر صفو ملامحه، وسألني ممتعضًا: أين سيضع الشطائر التي أعدها؟ وضربت جبهتي بكفي، كنت قد نسيت تمامًا احتياجه الدائم لتلك الأكياس البلاستيكية حين قررت الاستغناء عنها!

وكان ياسين معتادًا على توزيع تلك الشطائر التي يصنعها بنفسه، عقب صلاة كل جمعة على المساكين الذين عادة ما يتجمعون حول المسجد الذي يصلي فيه، ما بين مسنين وسيدات بأطفالهن، ومتسولين.

وانعقد لساني عن الرد، ثم بعد لحظات من التفكير عرضت عليه أن يبتاع بعض الأكياس البلاستيك من المتجر أسفل المنزل، تحول شحطه إلى غضب، ورأيت في عينيه تلك النظرة التي دومًا ما يترجمها عقلي إلى اتهام صامت منه بمدى غباء تصرفاتي، لكنه نطقها صريحة تلك المرة:

- أنتي غبية؟ يعني لما أشتري أنا الأكياس البلاستيك يبقى كدة ساعدتي البيئة مثلًا؟

شعرت بالارتباك لأن ما قاله كان سليمًا، ولأنني اكتشفت أنني لم أدرس الأمر قبل تنفيذه، ولأن شيئًا في تعبيرات وجهه أثار بداخلي نفورًا هائلًا عرفت من خلاله أنني لا أحب ياسين!

نزل ياسين إلى المتجر، ابتاع الأكياس وغلف شطائره ثم ذهب إلى صلاة الجمعة. عاد هادئًا مسالمًا واعتذر عن زلة لسانه. في تلك الأثناء كنت قد اتخذت قرارًا نهائيًا بالانفصال عنه، أعددت خطابي ورتبت الحجج، حتى إنني كتبتها في ورقة! وإذا بي أراه فيتراجع قراري ساحبًا أذيال خيبته! وجدتني أسامحه بل وأتفق معه على مقدار غبائي، فالبلاستيك الذي وفرته تم استخدامه على أي حال، وكان من الممكن أن أقترح عليه بدائل ورقية لتغليف الشطائر حفاظًا على البيئة، لكن كل ما كان يدور في عقلي في ذلك الوقت هو دهشتي من صلابة قراري السابق بالانفصال عنه، واكتشافي لهشاشة ذلك القرار في مواجهة رُقيّ ياسين وأخلاقه الطيبة.

حين حل الليل أردت أن أختبر قراري السابق علّني أفهم منبعه الحقيقي، أن أجرب ممارسة الحب معه، لأن الجنس في ظني هو بالفعل حب يمارس، ومن دونه فنحن لسنا أكثر من شركاء سكن، يكنان لبعضهما احترامًا وشيئًا من مودة. والحق أننا لم نمارس أي علاقة حميمة منذ ما يزيد على الستة أشهر، وفيما قبل ذلك كانت علاقتنا الحميمية متباعدة ومملة، وأنا أزعم أنها مملة رغم أنني لم أمارس الجنس مع أحد غيره، لأنني ما من مرة كنت معه إلا

وتمنيت خلالها أن تنقضي سريعًا حتى أتمكن من الاستحمام قبل أن يداهمني النوم، فلا أنام على جنابة وبالتالي أعجز عن اللحاق بصلاة الفجر.

وأنا أيضًا لم أشاهد بورن من قبل لأقارن بين ما يجب أن يحدث وما أختبره في علاقتي بزوجي، لكنني أقرأ الكثير من الأدب، مرت علي فقرات جنسية كانت تملؤني اشتياقًا ورغبة، فأتخيل أن الجنس مع ياسين صار يرضيني، إذ تداهمني أحلام يقظة لا يكون خلالها رتيبًا في تعبيره عن رغبته، يغازلني أولًا مستخدمًا كلمات أخجل منها، ينزع عني ملابسي ببطء بينما يتأمل جسدي وعيناه تفيضان نهمًا، يشدني إليه وهو غير قادر على كبح جماح نفسه، يعتليني وقد نَمَتْ لذراعيه وصدره في بحور خيالي عضلات قوية، لا يكاد ينتهي حتى يرغب في بدء جولة ثانية أكثر جموحًا!

ياسين في الواقع هادئ جدًا وخجول، يتبع الأمر القرآني «قدموا لأنفسكم» لكن دون شغف أحس به، وما إن يولجني حتى يصير الجنس بيننا حركات أتوماتيكية، تتسلل النشوة سريعًا، وأنفصل عن جسدي فلا أحس شيئًا، ثم أتخذ وضع المراقب، ويبدو لي المشهد حيوانيًا غريبًا، ما هذا الذي نفعل؟ الحركات نفسها تبدو بلهاء مُضحكة في لحظة، ثم مقرفة في اللحظة التي تليها، ثم أشعر بالعطش والنعاس وأتمنى لو يقذف حتى أذهب لحال سبيلي!

على الرغم من ذلك كله فلم يفارقني الأمل، لربما كانت تلك المسألة هي المنبع الحقيقي لرغبة الانفصال عنه، لو انصلحت قد تتحسن الحياة بيننا! من يدري؟ ياسين على عكسي شخص راضٍ، لا يكره من حياته شيئًا مهما ساءت الظروف، ولا يطلب من الدنيا شيئًا مهما داهمه الاحتياج، هذا إن داهمه أي احتياج، فهو لم يتذمر قط حول جفاف حياتنا الجنسية!

الليلة، بينما كان ياسين يستحم، ارتديت ثيابًا تفضح من جسمي أكثر مما تستر، تزينت ثم تطيبت. أشعلت إضاءة خافتة ولبثت على الفراش أنتظره، بينما أقرأ من «عداء الطائرة الورقية» إلى أن تسرب مني وعي إلى حسان يتعرض للاغتصاب وأمير يجبُن عن إنقاذه. ويبدو أن ياسين خرج من الحمام ولاحظ عبر باب الغرفة أنني قد تركته بالفعل مسافرة على متن الكتاب إلى باكستان، فخرج إلى الصالة يشاهد فيلمًا. لم أنتبه لمرور الوقت حتى شعرت به عائدًا نحو الغرفة، متوجهًا إلى الأباجورة مباشرة، ليسألني قبل أن يطفئها: «لسه؟» تطلعت إليه ذاهلة بعض الشيء، يحاول عقلي لَمّ شتات الواقع من حولي، بينما في الخلفية لا ينفك يتساءل عن مصير حسان: «الساعة كام؟». «واحدة». «فعلًا!». أغلقت الكتاب ووضعته جانبًا إيذانًا له بإطفاء الأباجورة، انحنى يلثم جبهتي، ضغط الزر سادلًا حجب الظلام على الغرفة. راودني عقلي، الذي هبط تؤًا إلى الأرض مستدعيًا التجربة الجنسية، التي كنت قد عزمت عليها، أن أقترب منه وألف ذراعي حول جسده، علّه يشم الرائحة النفاذة للعطر الذي رششته

في كل أنحاء جسمي، لكن إرادتي رفضت مطاوعة عقلي، كما طارت كل رغبتي الجنسية بمجرد أن استلقيت في ظلام الغرفة أتخيل ما يمكنه أن يحصل بيننا، وداهمني النفور نفسه دون ممارسة الجنس. بالطبع لم أكن لأقدر على ذلك أيضًا، أقصد على أن أطلبه بنفسي لممارسة الجنس، فكل ما وصلني عن الجنس خلال سنوات التأسيس الجنسي، أي المراهقة وما يليها يؤكد أن دور المرأة هو التزين، ثم على الرجل أن يشتهيها ويطلبها، أما هي فلا تشتهيه ولا تطلبه.

وما هي إلا لحظات حتى غاب ياسين في موته الصغير، وأما أنا فقد كنت واثقة أن النوم لن يقرب جفوني قبل عدة ساعات. خرجت إلى الصالة صاحبة كتابي معي. على أريكة الصالة وضعت قراري السابق بالانفصال نصب عيني، جعلت أتأمله وأسائله عن مدى صلابته، ثم قرر عقلي أن يرفع رايته البيضاء مستسلمًا إلى الانفلات من الواقع إلى التفكر في أمير وحسان، فرضخت له وأعدت فتح الكتاب.

في الصباح التالي، وعلى وقع حرارة الشاي الساخن، ورائحة البيض المقلي الذي يُعده ياسين، كنت قد نسيت أو تناسيت، كل أفكاري عن الطلاق.

7

أبريل 2018

آلاء على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوي.

حكيت له ما رأيت أنه طريف، وحجبت عنه أغلبه، وكان يردد بيني وبين الطريق، عينان رغم كونهما ملونتين إلا أنهما تُذكران بنظرة أبي لي عبر أثير الشاشات. سألني:

- حسيتي بالإهانة؟

قلت ضاحكة:

- لأ بالغباء!

- بالعكس، كان يقدر يستغنى عن الأكياس ببدائل تانية..

قالها كأنه يرغب في التخفيف عني من وطأة الاتهام بالغباء، ولم أكن أبالي ذلك إطلاقًا، خلق الله أناسًا على تلك الشاكلة، ولو اعترف كل غبيّ بغبائه لصار العالم مكانًا أفضل، وارتد صدري إلى ظلمته. قال لي فاضل خلال لقائنا الأخير إن قلبه أشبه بسلك الإنترنت المهزوز، يأتيه الحب دفقات ثم ينقطع عنه، وهو من فرط تقديره لي لا يحب أن يؤذيني كل ذلك الأذى! كأنه لا يعرف أن الأذى قد وقع فعلًا ولا سبيل لترميمه؟ وقال إنه يعرف وما باليد حيلة، ولم أكرهه يومًا وكأن لي عقلًا يمارس مهامه من داخل قلبي فيدفع بجسدي دفعًا نحو الارتطام بجدار مصمت!

تقول تيته على الهاتف إن أمي قالت لعمي صالح إنها قادمة بصحبة زوجها، ما معنى هذا الكلام الفارغ؟ وكيف تأتي بالخائن إلى بيتنا! كلميها يا آلاء وامنعي هذا بكل وسيلة، لن أستقبل الرجل، أغلق مع تيته الخط وأرسل عينين حائرتين إلى الطريق، ما الذي بوسعي أن أفعله الآن؟ عليّ أن أتصل بماما ولا أقدر، من جديد أشعر بالهوة الشاسعة بين المنطق والإرادة. وتيته لا تكتفي بمهاتفتي بل تجعل عمو صالح يكلم مصطفى، وعمو صالح يؤكد عليه أن يرجع بكل شيء يخص كرم، ويحذره من الاستجابة إلى أمي والعودة إليها بالأوراق! ثم يؤكد عليه أن يمنع أحمد فرج من المجيء إلى الإسكندرية. أرى ابتسامة على وجهه لا تتفق مع الجدية التي يكلم بها أخاه، يغلق الخط ويضحك، يسألني:

- الواد فرج واحشني فشخ، كرشه كبر؟

أبتسم على أثر ومضة من كرش عمو فرج ترد على ذهني، ولكن ابتساماتي لا تكتمل إذ

يبحث عقلي عن مخرج، كيف أردع ماما عن القدوم الليلة، كيف! لو بلغها كلام تيته وصالح لن تزداد إلا عنادًا، يقاطع هو أفكاري متسائلًا:

- بقى اسمه الخاين علشان اتجوز مامتك؟ معقول؟

نعم لطالما كان أحمد فرج خائنًا من وجهة نظري، لقد كان صديقًا مقربًا لبابا فكيف يتزوج زوجته! لطالما كرهت الرجل فلمَ يحتفي هو به؟ قلت بحنق:

- ليهم حق!

- ليه يعني؟ مامتك كان لازم تفضل أرملة بقيت عمرها!

- الرجالة كتير، محبكتش صاحب بابا!

- وده ضر أي حد في إيه؟

وحاصرني بمنطق لم أتوكأ عليه قبلًا لزيارة قناعة متجذرة في أعماقي ثم مرَاجعتها، لكن القناعات لا تفتت بكلمتين، لقد أغضبني قوله وانتابتني رغبة هائلة في أن تنقلب السيارة بنا على الطريق، نموت وتنتهي القصة، لو دفعت ذراعه الممسكة بالدركسيون مثلًا، لو تمكنت من تشتيت انتباهه عن الطريق، ومارس عقلي حيلته المعتادة في استدعاء طرق للموت حين رن هاتفي برقم ماما، وكان صوتها غاضبًا حيث بلغها كلام تيته وعمي صالح من خلال يوسف، أحا! يتواصلون مع يوسف في إنجلترا لأجل تفاهة كتلك! تقول إنها على الطريق وأن نرجع بالسيارة حتى نلتقي بها عند بوابة القاهرة، تستلم مني الأوراق وأعود معها أو أغور في داهية أنا حرة.

ترتفع دقات قلبي وتدريجيًا، أحس أنني ألتقط أنفاسي بصعوبة، إنها نوبة فزع على وشك أن تداهمني، أحني رأسي وأنظر إلى الصور على فخذي علّي أشتت أفكاري، ولكن عيناي زائغتان، أرى كفي التي تفنط الصور كفوفًا عدة، أثبت عند تلك الصورة حيث يقف أبي بين صالح ومصطفى داخل ريسيبشن المتروبول، على طرفها خط داود، المتروبول، 1975، الكلمات تتراقص، أقرأها بصعوبة ثم أنظر إلى وجوههم، يبتسم ثلاثتهم ثم يقطبون ثم يضحكون ثم يغضبون، ملامحهم تتبدل داخل الصورة، أنتبه لأن صوت أنفاسي صار مرتفعًا، أدرك أنني عاجزة عن ردع نوبة الفزع!

8

سبتمبر، 1975

المتروبول.

عند باب مكتب داود، كانت نعمة واقفة تتبادل حديثًا خافتًا مع صالح ومصطفى وكرم. علقت حقيبتها جلد الثعبان على ذراعها بعد أن أخذت منها «البوك»، من داخله انتزعت عملتين ورقيتين قيمة كل منهما جنيه فأعطت واحدًا لكرم والآخر لمصطفى وأشارت إليهما أن يذهبا ولكنهما بقيا واقفين وأعينهما لا تفارق كفي نعمة، كم تعطي لصالح؟

في طريقهم عبر الدهليز كان صالح يتقدمهما بخطوات عدة بينما يتهامس مصطفى وكرم من خلفه، ثم مدا إليه الخطا وحاصراه بينهما، فقال كرم:

- خمسة بحالها؟

وأضاف مصطفى:

- تدي كل واحد منا جنيه وتبقى كمان أخدت زيادة!

قال صالح ممتعضًا:

- أنا شاب جامعي وانتوا لسة في المدارس!

ثم هرول مبتعدًا عنهما فلم يتركاه لحاله، يتبعانه محاولين إقناعه بالتنازل عن بعض نقوده، مر من جوارهم السكرتير سمير مهرولًا مضطربًا في طريقه إلى مكتب داود، لم يلتفت إليهم ولا هم رأوه، كانوا منشغلين بما هم فيه، نعمة دومًا ما تفضل صالح عليهم، لا تعرف للعدل بين الإخوة معنى! ألا تدري أن الفارق بين جنيه وخمسة هو أربعة جنيهات كاملة!

حين اقترب سمير من الباب المفتوح لحجرة المكتب كانت نعمة قد عادت إلى مجلسها أمام مكتب داود، سألها داود وهو يقلب الأوراق في الملف بين يديه:

- ادتيلهم كام؟

قبل أن ترد عليه تصاعدت طرقات سمير على باب الغرفة، فأذن له داود بالدخول ثم مد راحته دون أن يرفع رأسه عن الأوراق، قال الشاب متوترًا:

- أستاذ محمد حسين رفض يسلمني الدفتر!

- أفندم؟

رفع داود رأسه يرمق الشاب بعينين منفجرتين حادتي النظرة.

- استدعيه ييجي هنا حالًا!

قالها داود زاعقًا، مما رفع من توتر الشاب وإن بقي واقفًا مكانه دون حراك يحملق بعينين زائغتين إلى خريطة العالم القديم التي كانت تغطي الحائط خلف مكتب داود، يتبع خطوطًا تفضي إلى سفن ثم تتقاطع معها خطوط تعود به إلى حدود القارات، وحين ذهب بصره عند النقطة المتصلة بين الدائرتين رأى رأس داود الكبير وعينيه المنفرجتين تطقان شررًا، فأحنى رأسه وقد انتفض جسده خفيفًا وانتبه على وقع صوته حادًا آمرًا.

- ما تتحرك!

- أصل..

- إيه؟

- معاه ضيوف في المكتب ومشغول.

لم يرد داود على الشاب وإنما بقي جامدًا في مكانه بينما تتحول ملامحه تدريجيًا من الامتعاض إلى الغضب الخالص، زعق في الشاب الخائف أن ينصرف وقالت نعمة:

- ابن الكلب يسرقنا عيني عينك!

واسترسلت في الحديث تعدد السرقات التي تجري داخل المتروبول، فيما تسمي محمد حسين برئيس العصابة حتى نهض داود عن مكتبه وترك الغرفة في خطوات عاصفة دون أن يرد عليها، تبعته نعمة إلى خارج المكتب ومضيا خلال الممر الطويل يتقدمها داود بخطوات عدة، حتى نفذ من باب مكتب محمد حسين دون استئذان قائلًا:

- إيه معنى الكلام ده!

ولم يكن محمد حسين وحده بالغرفة إذ يجالسه رجلان يعرف داود واحدًا منهما كمتعهد اللحوم بالمتروبول ولا يعرف الآخر. تطلع حسين إلى داود وقد داهمته المفاجأة وإن استطاع أن يسيطر على انفعالاته، فقال بهدوء:

- خير يا داود؟

ثم أشار بذراعه إلى الأريكة قائلًا:

- طب اتفضل بس لحظات وأبقى معاك..

وكانت نعمة قد بلغت الغرفة، فأضاف الرجل:

- أهلًا ست نعمة، اتفضلي.

وجلست نعمة بينما بقي داود واقفًا، قال بصوت آمر:

- هات أجندة المدفوعات!

وانعكست مشاعر الرجل المتباينة على ملامحه، من الحيرة إلى الارتباك إلى غضب على داود الذي لا يظهر له أي احترام، يتهمه بالسرقة، يقتحم مكتبه في حضور ضيوفه دون استئذان، يتدخل في تفاصيل شغله، غضب دفع به إلى أن يهب واقفًا، يشد درج المكتب فيكاد يكسره، ثم يسحب الدفتر من داخله ويلقي به أمامه على المكتب صائحًا بغضب:

- اتفضل بس اسمع، دي آخر مرة أسمح لك فيها تطلع على الدفتر ده....!

كما دخل داود الغرفة عاصفًا خرج منها دون أن يأخذ شيئًا، يترك صوته الجهوري معلقًا بجنبات المكان ويمضي، إنه لن يبتلع تلك الإهانة ويسكت، له كلام آخر مع خريستو، ذلك الرجل لن يمكث في منصبه شهرًا آخر!

عقب خروج داود عاد حسين ينتبه إلى محيطه، يلاحظ تململ ضيوفه، تتلاقى عيناه مع أعينهم فينتابه حرج تتخضب منه وجنتاه وأطراف أذنيه، يبتسم لهما وكأن شيئًا لم يحصل، يقول: منورين. فيومئون برؤوس مرتبكة، يتنحنح ثم يهرب بالتوجه إلى خزانة النقود عند طرف الحجرة، دون أن يلحظ أن نعمة لم تبرح المكان بعد، لقد أوشكت على الخروج حين استوقفها الفضول وهي تراقبه يفتح الخزانة ويشد منها ربطة نقود من بين رزم النقود الممتلئة بها. قبل أن يلاحظ وجودها وفيما يعاود غلق الخزانة، تنطلق نعمة مهرولة نحو مكتب داود، عليها أن تخبره بما رأت! الخزانة ممتلئة عن آخرها والرجل لم يسدد إيجار الفندق منذ عام كامل! اللص!

رجل في الزيّ الأغريقي يجلس ثانيًا رجله ويسند كأسه فوق إحدى ركبتيه، ومن أمامه امرأة في زيها الإغريقي تحمل على كتفها طفلًا ومن أسفلهما أطفال يفصل بينهم ثيران، ثم نساء عدة يتمايلن في رشاقة، كلها منحوتة بالجرانيت الأبيض فوق بانوهات ترابية اللون أعلى حوائط قاعة الاستقبال ممتدة إلى الكمرات بين العواميد، يتأملها تمام وقد رفع رأسه وعقد ذراعيه من خلف ظهره.

لقد نسي تمام شقيق داود منتظرًا في قاعة الاستقبال، نساه الجميع في خضم الأحداث المتتابعة، وكان مدعوًا إلى تناول الغداء صحبة داود ونعمة بمطعم الفندق بدلًا من أن يأكل

في البيت وحده، إذ إن زوجته سافرت بالأولاد إلى طنطا تزور أهلها. شعر بالملل فمضى يتجول في القاعة ويلتقط صورًا بكاميرا داود التي ركب لها فيلمًا جديدًا قبل أن يأتي مباشرة.

في تلك الأثناء، على السلم العريض المفضي إلى القاعة الرئيسية كان كرم قد بلغ منتهى الغضب بسبب تعنت صالح ورفضه مشاركة النقود معهم، صاح:

- طب يا رب تندعق اللوكاندة وتروح من وشنا خالص علشان الظلم ده!

صاح بها خلال تلك اللحظة التي يغيب فيها العقل تمامًا وتتحكم المشاعر وحدها في كل أعضاء الجسد، وعلى الأخص اللسان. صاح بها ثم ندم عليها ولكن صالح لم ينسها له أبدًا! ذكره بها عند كل مصيبة تحل بهم! قبل أن يعبر صالح باب الفندق بوجه قاني الحمرة ناداه عمه تمام فعاد إليه خجل من تجاهله، أوقف تمام ثلاثتهم وطلب منهم أن يبتسموا قبل أن يلتقط لهم الصورة.

9

يناير 2010

آلاء كرم، مكتبة الإسكندرية.

وقفت في ركن الطعام أتناول قهوتي وأقضم من ساندوتش الجبنة، بينما تلقي أماني جبريل، في أذني بعضًا من النمائم الجديدة حول زملاء العمل، وكانت تلك النمائم مما يستهويني سماعه، حيث إنها تنتشلني من الشعور بالغربة تجاه زملائي، وتجعلني أعرف عنهم أكثر من تلك القشور التي أراها منهم، في ظل عجزي الدائم والتاريخي عن الاندماج داخل الجماعات، تلك الإعاقة التي لم تزايلني يومًا مهما مضى بي العمر. رأيت عبد الحي قادمًا وقد لاح بشر على صفحة وجهه، أظنه انعكس على وجهي لأن أماني لكزتني في جنبي بكوعها هامسة:

- حبيبك..

- حبيبي؟

أجبتها مستنكرة وقلبي ينتفض حرجًا وضيقًا، أهكذا يقال عنا يا ترى في جلسات النميمة التي تديرها أماني من وراء ظهري!

قالت تستهجن غضبتي عليها:

- بهزر، الله!

- الهزار ده مش بحبه!

خرج صوتي حادًا غاضبًا، فبادرت إلى الاعتذار بصوت رقيق وقد توردت خجلًا، أشفقت عليها من فرط حدتي وهي الزميلة الوحيدة التي آنس لها وتعيرني اهتمامًا يقترب من حافة الصداقة، ابتسمت لها كي أطمئنها إلى أن سخطي عليها كان عابرًا.

- ولا يهمك حصل خير.

تنفست أماني الصعداء وقد استعادت هيئتها بعض الراحة، على حين لعلع صوت عبد الحي قائلًا:

- أخدت البلازا يا ولاد الكلب!

قالت أماني بصوت مرح:

- مبروووك عبروا أهلك أخيرًا بعد، ممم بقالك كام سنة بتقدم عليها؟

- دي التالتة.

أجبت سريعًا ودون تفكير، ثم لعنت لساني الذي دومًا ما يسبق عقلي، ها أنا أثبت لأماني بالدليل القاطع عمق معرفتي بعبد الحي، سارعت إلى القول رغبة مني في مداراة ما سبق وانزلق به لساني:

- مبروك يا عبد الحي، حتشتهر بقى وتقطع علاقتك بينا وبالديجيتال لاب من بابه!

انفجرت منه قهقهة لا علاقة لها بما قلت وإنما نابعة بشكل أساسي من نشوة سعادته بالمنحة.

- حطلق اللاب بالتلاتة. وضيق عينيه ثم قطب حاجبيه، مقلدًا هيئة كريم عبد العزيز في مشهد من فيلم «ولاد العم» مستكملًا بنبرة مسرحية هامسة:

- بس مش دلوقت!

- في المشمش يا حبيبي..

ردت أماني سريعًا وهي تضحك، لطالما أطلقنا على الديجيتال لاب، نحن العاملين به، أنه فخ تدخله فتعلق به قدماك دون أمل في الترقي، أو الخروج!

الفيلم الذي حصل به عبد الحي على منحة الإنتاج هو ثاني أفلامه القصيرة بعد فيلم «شفاف»، والذي كان قد أرسل إلي رابط لمشاهدته على منصة Vimeo، فأجلست ياسين إلى جواري نشاهده سويًا عبر اللاب توب، ويا ليتني ما فعلت! إذ انعقدت ألسنتنا من فرط راداءة القصة والتمثيل والإخراج. وأخذت أسأل ياسين فيما علي قوله لعبد الحي غدًا حين يسألني عن رأيي، فقال ساخرًا ومقتبسًا من مسلسل الأصدقاء:

- قوليله الإضاءة حلوة! ثم استكمل قائلًا:

- بس مفيش أحضان هه!

يشير بذلك إلى فيبي حين تحتضن جوي بعد أن يسألها عن رأيها في الفيلم الذي أدى فيه دورًا.

في النهاية قلت له: «تجربة لطيفة». ثم وبمرور الوقت وتوطد العلاقة بيننا صرنا نسخر من فيلمه سويًا.

قال لي بعد أن باركت له:

- حتصممي بوستر الفيلم، يمكن نخلص من طولة لسانك!

آه ابن اللذين الخبيث يريد أن يوقعني في شر أعمالي! الحق أن لساني كان طويلًا بالفعل، أغير من علاقته الوطيدة بإيمان هارون فأسخر من كل التصميمات التي تنفذها ثم تشاركها عبر الفيسبوك، أسخر من جهة وأدرك مبعث سخريتي من جهة أخرى فأداريها حتى عن نفسي. لكن لمَ لا أصمم له البوستر؟ أولست قادرة على ذلك؟ ألست أكره عملي بالمكتبة بحجة أنه لا يتضمن أي إبداع حتى حط عليّ الصدأ! لكن آه إنني لم أصمم شيئًا منذ تركت الكلية رأسًا إلى المكتبة، وستكون تلك فرصة عبد الحي للانتقام لمحبوبته بلسان أكثر حدة وسخفًا مما أرميها به، انتقام مستحق، إذ ما أيسر التعريض بإبداع الآخرين وأنت في مأمن من النقد، سألته في محاولة للتملص من المهمة:

- إيمان باعتك ولا ايه؟

- تشتغلوا سوا!

- لا متشكرين يا عم، أنت عاوزني أبقى صبية إيمان!

- خلاص اعمليه لوحدك يا ستي، أنا متفقتش معاها على حاجة.

ولا أدري لمَ انتفض قلبي جزعًا ورفضًا، شعرت أن مزاعمي حول مواهبي التي دفنها الديجيتال سوف تنكشف للعيان، وأنفضح فنانة بلا فن، نصابة، شخص جدير حتى النخاع بالعمل في ذلك المصنع الرتيب ولا أكثر من ذلك. تمتمت أماني جبريل بأن البريك قد انقضت بالفعل منذ دقائق، تطلعنا إلى الساعة وعدنا مهرولين نملأ أماكننا تروسًا في ماكينة لا تتوقف عن العمل.

10

سبتمبر، 1975

المتروبول، الإسكندرية

انضم خريستوفيدس إلى داود في مكتبة بالمتروبول، وكان قد بلغ الإسكندرية عائدًا من اليونان في نفس ذلك الصباح. جاء إلى الفندق في وقت متأخر من الليل، استجابة لإلحاح داود عليه.

- الصايع يقولي أنا: دي آخر مرة أسمح لك فيها بالاطلاع على الدفتر ده، ورفض يخليني أجرد الخزنة، وبقاله 12 شهر ممتنع عن دفع الإيجار لشركة التأمين رغم وجود السيولة و..

داود بشرته السمراء مُعكرة بحُمرة الغضب تمازجها حُمرة الشراب، بينما خريستو ملامحه جامدة، جبهته العريضة لا تشوبها كسرة واحدة، مثل قميص جاء من عند المكوجي للتو، أنفه الشبيه بعلامة استفهام مرفوع دون حتى أن يعني برفعه، عيناه الخضراوان لا يبين داخلهما انفعالًا، قاطع داود قائلًا ببرود:

- أنا بدي أرقام من دفاتر وحسابات اللوكاندة مش مجرد أقوال، والأرقام تنعرض على المحاسب القانوني ويوافيني برأيه مكتوب في صيغة رسمية.

ورفع داود كأسًا ممتلئة حتى نصفها بالنبيذ الأحمر، فجرع منها، ثم فتح درجًا بالمكتب أخذ منه ملفًا وألقى به على المكتب بينهما، وقد عنونت الورقة الأولى بخط أسود سميك:

«الوقائع والحل الجذري»

أخذ خريستو الملف وقرأ في الصفحة الأولى تحت العنوان:

1) فقد لاحظت توقف محمد حسين عن سداد الإيجار على مدى 12 شهرًا...، وبرر ذلك بعدم وجود نقدية بخزينة الفندق، فطلبت خريستوفيدس تليفونيًا وطلبت منه التصرف فورًا لخطورة هذه السابقة.

وقد أكدت هذه الواقعة المادية أن ما يقال من أن حسين يصادر أموال الفندق ليستغلها لحسابه الخاص قول صحيح 100%.

وقلب خريستو بين صفحات الملف فوجد أنها عشرات الصفحات المسودة بخط داود، فأغلقه وقال للرجل وقد تلاشت ابتسامته وانعقد كدر على ملامحه:

- طيب حقرا ده الليلة ونتكلم الصبح.

قال داود:

- لازم يمشي قبل ما يوقع الشركة.

فقطب بين حاجبيه، وتجعدت جبهته، واستغرب داود ذلك منه، لمَ هو متمسك بالرجل؟ إنه مجرد محاسب مختلس! قال خريستو محتفظًا ببروده:

- بلاش نتعجل الأمور.

ورفع داود كأسه فتجرع ثمالته ثم داهمته نوبة طارئة من الضحك وهو يقول:

- ده راجل معفن، بيجيب هدومه تتغسل هنا، حتى كلوتاته هو ومراته الوسخ..

ثم استطرد قائلًا بجدية:

- أنا أصريت تيجي الساعة دي من الليل علشان تطلع تشوف بنفسك، حتلاقيه في البار قاعد يسكر بينما دراعه في المطبخ بيحضرله الصواني، وده على كدة كل يوم ومن بعد نص الليل، قوم يلا تشوف بعيونك..

ونظر إلى خريستو فلم يجد أي أثر للانفعال على وجهه الأشبه بالتمثال، ولكنه نهض عن كرسيه فظن داود أنه سيذهب معه لمداهمة حسين في البار، نهض متحمسًا، إلا أن الرجل رفع كفه في الهواء قائلًا بهدوء:

- داود، أرجوك، أنا راجع من السفر لتوي، مرهق، نقدر نتكلم الصبح..

- الصبح كل الفضايح حتبان، والملفات تتفتح على رؤوس الأشهاد.

ثم قال بصوت منغم، مستسلمًا لدوار الخمر:

- هو ماله ومال مالنا، يكونش فاكرها أبعادية أمه؟ يا يشتغل موظف عندنا يا يروح لحاله!

11

يونيو 2010

آلاء كرم داود، اللوكيشن!

لحِقتُ بصلاة الفجر قبل أن تتشكل خيوط الضوء الأولى في السماء، وقفت أمشط شعري أمام المرآة الصغيرة المعلقة فوق البوفيه في حجرة السفرة، حين لاحظت تحسنه وانسيابه غزيرًا، جميلًا، بلا كسرات. أدركت أن أيامًا معدودة تفصلني عن موعد دورتي الشهرية، حسنًا إذًا فهمت الآن لمَ صحوت وقد تشكلت على صدري سحابة كثيفة من الكدر كنت عاجزة عن منطقتها، آلام البريود أعالجها بالمسكنات، لمَ لا يوجد دواء يفرج عن روحي تلك القفلة الشهرية المقيتة!

قال لي عبد الحيّ أن أرتدي ما أرغب فيه ما دام كاجوال، عليّ أن أضع في حسباني أن ما سأرتديه خلال أول يوم تصوير، هو ذاته ما يجب أن أرتديه اليومين التاليين، في هذا الحر؟ سألته معترضة! أتظن أنه بإمكاني أن ألبس نفس الملابس لمدة ثلاثة أيام بينما أقف طوال النهار تحت شمس يونيو تلفحني بحرارتها الرهيبة، لا أرتدي ملابس عرقانه أنا! قال إذًا اختاري ملابس لديك منها ثلاث قطع وهو يضحك، فلكزته في كتفه حانقة، وأخبرته أنني غلطانة أن وافقت على الظهور في فيلمه الفاشل!

لقد تعاطفت معه وهو يسعى بكل الطرق إلى جمع عدد كبير من الناس يحتاج إليهم «مجاميع» دون أجر، إذ إن مبلغ المنحة الذي حصل عليه:

- يا دوب على القد..

سألت أصدقائي وأقاربي، وحين لاحظ اهتمامي بمساعدته طلب مني أن أقف أيضًا بين المجاميع، استنكرت الفكرة في البداية، قال إنه سيتحدث مع شاكر بنفسه ليمنحني عطلة من العمل، ثم أضاف أنها فرصة لأشهد أيام التصوير مما سيكون ملهمًا لي فيما يخص تصميم البوستر، وبعد عدة أيام عاد يخبرني أنه اختار لي دورًا أكبر حيث أقول جملتين بالكامل، يا للسعادة! قلت ساخرة منه، فقال: «حنجمك» على طريقة عمرو رمزي في برنامجه «حيلهم بينهم».

حسنًا عليّ أن أطمئن نفسي، الجو حار والملابس المغسولة تجف سريعًا، ولكني لا أطمئن، بل تعلو حدة قلقي، ثم أقلق من أن يتسبب القلق نفسه في استعجال دورتي الشهرية، ماذا لو داهمتني اليوم أو غدًا؟ سوف أضطر رغم الألم والضيق أن ألتزم بالتواجد في اللوكيشن

الفلقى في المكس، حيث آخر أعماق الإسكندرية! كما أن اليوم الأول بالذات يكون نزول الدم غزيرًا، فهل أجد هناك حمامًا أبدل فيه الأولويز كل ساعة أو ساعتين!

من فرط شعوري بالحرارة صببت لنفسي كوبًا من الليمون البارد، كان ياسين قد أعد الكثير منه وحفظه في دورق زجاجي بالثلاجة. أخذت الكوب وانتقلت إلى أريكة الصالة بعد أن شغلت المروحة على أقصى درجة، الحرارة لا تُطاق ولم ترتفع الشمس بعد، في مثل ذلك الجو يُعد الجلوس في الديجيتال لاب بتكييفه المركزيّ جنة لا تضاهيها جنة! وشعرت بشعري يتطاير حول وجهي بفعل هواء المروحة، رفعت هاتفي وفتحت الكاميرا الأمامية وأعجبني ما أرى، رغم أنني أكره عينيّ الضيقتين منعدمتي الأهداب والجفون، كما أكره حاجبيّ الخفيفين، إضافة إلى فتحتَي أنفي المنفرجتين عند نهاية أرنبة أنفي على هيئة كهفين عظيمين، ضع كل ذلك مع بشرة لا هي خمرية ولا هي بيضاء! لون لا معنى له كأن تضع القليل جدًا من اللبن على الشاي فيبدو كريهًا، لا يرغب أحد في احتسائه. إلا أن شعري بدا جميلًا وأضفى شيئًا من الملاحة على وجهي، إضاءة أول الصباح الخافتة النافذة من شرفة الصالة أضفت غموضًا محببًا إلى الصورة، قمت أتناول الطرحة وألفها على رأسي لألتقط لنفسي صورة أتمكن من مشاركتها على إنستجرام، لكن ما حصل هو أن السحر تلاشى بمجرد أن خبأت شعري، وبرزت في الصورة عيوب وجهي مؤطرة بإطار أبيض لا يزيده إلا سوادًا! ما علينا لا فائدة! علي أن أنتظر يومًا تبيض وجوه وتسود وجوه فأصير بالقطع جميلة!

قمت أعد كوبين من الشاي وحملت أحدهما إلى حجرة النوم حيث ينام ياسين، وضعت الكوب على الكومودينو ثم انحنيت ألثم جبهته ففتح عينين مثقلتين بالنوم، سألني بنبرة ثقيلة لم يزايلها النعاس بعد:

- نازلة؟

- آه يا دوب..

- بالسلامة حبيبي.

كنت قد بررت ظهوري في الفيلم لياسين ولنفسي على السواء، بأنها فرصة لدس بعض المحجبات في السينما التي تخلو منا تمامًا رغم أننا أغلبية في تلك البلاد الإسلامية الكافرة! لكن أليس الدافع الحقيقي هو معزة عبد الحي ومكانته من نفسي؟ أم أنه الشوق للتجربة؟ إجازة قصيرة من رتابة المعمل الرقمي، موقع التصوير كيف يبدو؟ تلك المشاهد التي نراها على الشاشة غير عابئين بها، كيف تُصنع؟ وأن أظهر على الشاشة؟ أقف خلف الكاميرا، لقد ملأتني التجربة نشوة وحماسًا لم أشعر بهما منذ زمن بعيد، ووجدتني أيضًا شغوفة بتصميم

بوستر الفيلم، سأذهب إلى موقع التصوير صاحبة كاميرتي معي، ألتقط صورًا عدة، وتغدو واحدة منها نواة لتصميم البوستر، إلا أن حرارة الجو وتعكر مزاجي أطاحا بذاك الحماس أدراج الريح، فلم يبق في تلك اللحظة إلا الكدر.

بلغت موقع التصوير منهكة من القيادة تحت وطأة الحر، إلا أن رؤية زرقة البحر وتسرب نسائمه إليّ خففا من وطأة الضيق وعاودتني بعض البهجة، شعرت أن عبد الحيّ لا يشاركني إياها! استقبلني بسلام بارد مشتت، بدا مكفهر الملامح، ضائق الصدر، يتحرك في أرجاء الموقع مضطربًا، يكلم هذا ويزعق في وجه ذاك، وإذ بشخص ما يدفع إليه بمكبر صوت قديم يشبه ذلك الذي نراه في الأفلام، يرفعه على فمه ويصرخ فينا «الممثلين والمجاميع» بأن نتخذ مواقعنا! اتخذت مكاني الذي دلني عليه واحد من مساعدي الإخراج وأنا أكتم قهقهة طارئة، بدا لي عبد الحيّ مضحكًا بوجهه الأحمر المنتفخ، تسربت حمرته إلى صلعته التي تقذف عليها الشمس لهيبًا، وأذنيه المطرطأتين وكأنما تحاولان الانفلات عن رأسه، وانتفاش فتحتي أنفه لم أر عبد الحيّ قبلًا على كل تلك الجدية و.... آلاااااء! رج اسمي الأرجاء عبر مكبر الصوت في حوزته يطالبني بأن أكف عن الحركة وألزم البوكر فيس الذي سبق واتفق معي عليه، ثبتُ مكاني بينما يشتعل وجهي خجلًا وصدري حنقًا عليه.

انتهى المشهد الذي أظهر فيه وحان وقت التقاط الصور من أجل البوستر، انتحيت جانبًا عند أقرب نقطة من البحر، جلست على صخرة ناتئة قرب الشاطئ، أشرب قهوة يتفصد جبيني من حرارتها عرقًا، وأفكر فيما يمكنني أن ألتقط له صورة فيصير نواة جيدة للبوستر، لمست كف خفيفة كتفي فانتفضت ورفعت رأسي لأجد إيمان هارون هنالك فوقي تمامًا، اغتصبت ابتسامة مجاملة وأنا ألقي عليها التحية:

- سلام عليكم.

- وعليكم السلام.

قالتها بصوت مرح لا شائبة فيه، ثم وجدتها تجلس جواري وتسألني عن حالي ثم شعوري بالتجربة، فلا أجد ما أقوله لها إلا: «تمام» تبتسم وتعرض عليّ أن أستعير الكاميرا البروفيشنال الخاصة بها لأجل صور أفضل، أقول لها في عدم اهتمام أصطنعه:

- تحبي تعمليه أنتي؟

- لا لا، قطعًا لا، أنا متحمسة فشخ أشوف إنتاجك..

فشخ، آه يا للأشخاص الذين تُضطرني صداقتي بعبد الحيّ إلى التعامل معهم، يحكي لي عنها كثيرًا فهل يحكي لها عني؟ وما الذي يقوله! وأخذت تسترسل في إسداء نصائح لي فيما

يخص تصميم البوستر، نصائح كدرت صفوي وضايقتني، إذ قد تمنحها كريديت بعد انتهائي من العمل، هل طلب منها عبد الحي ذلك لأنه غير واثق في عملي؟ لمَ طلبه مني إذًا، يتسلل ثعبان الغضب داخل صدري، وأضيق بالفتاة فأجعل حديثي إليها قصيرًا مقتضبًا، حتى بلغتها رسالتي الخفية في رغبتي عن التواصل معها، فتقوم أخيرًا بعد أن تسلم عليّ بنفس الحماس الذي لم أره يفارقها منذ عرفني عليها عبد الحي.

12

أكتوبر، 1975

كرم داود، مدرسة فيكتوريا كولدج.

طلب أستاذ عطية مدرس اللغة العربية من فريد أن يقف في مقدمة الفصل مراقبًا بدقة، على أن يكتب اسم من يتكلم أو يقف أو يتحرك على السبورة. ثم توجه إلى الفصل قائلًا بحزم إن عليهم نقل النص من الكتاب إلى الكراسة ثلاث مرات. وعند عودته سيعاقب من يجد اسمه منوزًا على السبورة عقابًا رادعًا تركهم دون أن يحدد ماهيته. قام فريد بقامته القصيرة الممتلئة وتحرك متبخترًا بفخر مفضوح نحو مقدمة الفصل فتناول الطبشور من أستاذه. كان فريد طالبًا به قدر لا بأس به من الذكاء، إلا أن الذكاء لم يكن السمة التي يعتمد عليها لإبهار أساتذته وتحصيل درجات تكسبه رضاهم عنه. كان اجتهاده هو ما يعتمد عليه بشكل أساسي. مع قدر يسير من التملق لا ضير منه. وعلى الرغم من ذلك فإن فريد كان عنده ما يكفي من الذكاء ليدرك به أنه لن يوشي بزملائه متجنبًا تعريضهم به. ولأنهم هم أيضًا يعلمون منه هذا فقد تبادلوا نظرات وابتسامات متوارية فرحين باختيار أستاذهم لفريد دونًا عن غيره، مما يمنحهم ما يشبه الحصة الخالية. وخرج عطية مغلقًا باب الفصل من خلفه عقب تحذير أخير. انتفض الطلاب من أماكنهم متبعثرين في أنحاء الفصل، بينما فريد يتعثر في مقدمته من طرف لآخر مثل البلية وهو يحذرهم من تسرب أصواتهم إلى الخارج.

وأما كرم فقد وجد فرصته التي كان ينتظرها منذ عدة أيام، انحنى وفتح حقيبته ثم سحب منها زجاجة خضراء ممتلئة إلى أقل من نصفها تقريبًا. أمال جذعه ومد رأسه أسفل الديسك الخشبي ثم رشف رشفة صغيرة بان على أثرها قرف شديد على وجهه، وشعر بها تتحرك حارقة وكأنها كرة من النار نحو أمعائه، ثم دس الزجاجة ورفع رأسه ينظر إلى كاميليا فرآها منكبة على نقل الدرس إلى كراستها.

كاميليا هي الشمس التي أشرقت على دفعتهم مطلع ذلك العام، قادمة من إنجلترا بلهجة مصرية متكسرة تُذيب قلوب الصبيان المُشتعلة أجسادهم بشعور غامض ولذيذ، من أب مصري وأم إنجليزية، شاهقة البياض كاللبن، زرقاء العينين، شعر هو خليط عجائبي من الكاراميل والذهب. وفي تلك اللحظة كانت تجلس على الجهة الثانية من الديسك المجاور له تفصلهما سندس. نزع ورقة من كراسته وكتب فيها شيئًا ثم طواها ومدها نحو سندس قائلًا:

- كاميليا..

فأخذتها منه الفتاة ثم لكزت زميلتها وهي تناولها الورقة ثم غمزت لها قائلة بمكر:

- من كرم..

فتحت كاميليا الورقة وقرأت عليها: «تشربي؟ بصي تحت الديسك بتاعي» وكان يراقبها وهي تقرأ منتظرًا رد فعلها، وحين مدت إليه زرقاويها سحب الزجاجة من حقيبته شيئًا يسيرًا كي تراها، ولدهشته الشديدة أومأت موافقة، فارتبك غير متوقع منها تلك السرعة في قبول عرضه. اعتدل بسرعة فمزق من كراسته ورقتين، وتناول من داخل الديسك بكرة سولتيب ثم عاد ينحني أسفل الديسك ويلف الورقات حول الزجاجة من داخل الحقيبة، ثم يثبتها باللاصق وهي تتابعه بعينين بدتا له كالحلم، ثم أخرج الزجاجة من الحقيبة فشرب منها أولًا مداريًا قدر استطاعته ما يحسه من رغبة في التقيؤ نتيجة للطعم المر، ومد إليها الزجاجة من أسفل عبر الممر الفاصل بين الديسكات، فمدت يدها عبر سندس وأخذتها ثم وضعتها عند قدميها وانبرت تستكمل الكتابة لدقائق وهو يراقبها حائرًا، إلى أن انحنت أخيرًا أسفل الديسك فرشفت منها وهو يراقبها، وابتسم حين لاح أثر الرشفة على وجهها مثل ما يشعر به تمامًا كلما شرب منها! ولم ترد له الزجاجة، جعلت تكتب ثم تشرب رشفات صغيرة. ظل يتطلع نحوها حائرًا، هل يطلب منها أن ترد الزجاجة أم يتركها؟

حين فُتح باب الفصل ليدخل الأستاذ عطية ويرمي ببصره نحو السبورة فيجدها خالية من أي أسماء، يرمق فريد متشككًا بينما يهم الصبيّ بالعودة إلى مكانه، لكنه يستوقفه بإشارة من كفه، فيتركه معلقًا عند مقدمة الفصل بينما يتحرك هو متجولًا بين صفوف الطلاب عاقدًا كفيه خلف ظهره، طويلًا وغاية في النحافة له رأس صغير أبرز ما فيه شارب أسود تتدلى أطرافه المقصوصة فوق شفته العليا. بدا أنه أنهى جولته وهو يسير بنفس إيقاعه متوجهًا نحو باب الفصل وحين مد كفه ليفتح الباب، ربتت نانسي، وكانت تجلس وراء كاميليا، على كتفها هامسة: هاتي بق. تطلعت كاميليا نحو باب الفصل لم يكن أستاذ عطية قد غاب خلفه بعد فتجاهلت نانسي التي ألحت عليها قائلة:

- إيه الأنانية دي يا بنت؟ يلا عاوزه أجربه هاتي بق.

هزت كاميليا منكبيها ثم أخذت الزجاجة من أسفل الديسك لتناولها إلى نانسي، وإذ بأستاذ عطية يلمحهم فيتراجع عائدًا نحو الفصل، تجفل نانسي وترد الزجاجة إلى كاميليا بسرعة وكأنها تتخلص من جثة فتنزلق الورقة التي كان كرم قد ثبتها، ليظهر جزء من الزجاجة، إلا أن كاميليا التي رأت نظرات الأستاذ إليها تخففت من التوتر قدر استطاعتها، واجتهدت للاحتفاظ بملامح محايدة، فأخذت منها الزجاجة ثم أعادتها أسفل الديسك وانبرت تستكمل كتابة النص. ارتبك كرم وتقصد جبينه عرقًا وهو يرى أستاذ عطية متوجهًا بخطى سريعة نحو حبيبته، التي لدهشته الثانية لم تبد خائفة على الإطلاق. هل ستوشي به فتتخلص هي من

التهمة؟ ألهذا هي هادئة بذلك القدر؟ تبًا لنانسي تلك الحمارة. وقف أستاذ عطية فوق رأس كاميليا وهي تستكمل كتابتها كما اعتادت بخط جميل في سطور منمقة وكراسة نظيفة منظمة، مد يده ورفع كراستها يتصفحها ثم ألقى نظرة خاطفة على الزجاجة أسفل الديسك ولم يعلق عليها. وضع الكراسة ثم طلب من كاميليا أن تتبعه وتوجه نحو الباب فمشت خلفه في خطوات واثقة ورأس مرفوع وعينين غير منكسرتين.

سأل كرم نفسه وهو جالس في مكانه غارقًا في حيرته يتعرق بلا انقطاع. هل يذهب خلفها فيعترف على نفسه ويخلصها؟ ماذا لو وصل الأمر إلى أبيه؟ كيف يكون رد فعله لو علم ما اقترفه، ليس فقط أنه شرب خمرًا لكنه سرقها، ولو تجاوز داود عن شربه للخمر لن يتجاوز عن سرقته. عقب انغلاق الباب قام من مكانه متوجهًا نحو مقدمة الفصل، فهتف فريد إليه يأمره بالجلوس ولكن كرم تجاهله وخرج من الفصل بينما يصرخ فريد عليه بصوت صبياني: «والله لأكتب اسمك!». وقف في الممر يتطلع حوله لا يرى أستاذ عطية وكاميليا، فمشى بخفة نحو مكتب المدير مفترضًا أنه أخذها إليه، وحين بلغ المكتب مد بصره عبر الحاجز الزجاجي بأعلى الباب فرأى الناظر جالسًا وحده داخل المكتب. انتابته حيرة شديدة ووقف لحظات يفكر ثم توجه نحو حجرة المعلمين، كان بابها مفتوحًا، اقترب من الباب بحذر وحاول أن يتطلع نحو الداخل دون أن يراه أحد، كان بالمكتب العديد من المدرسين فتفحص الغرفة بعينيه ذهابًا وإيابًا دون أن يعثر عليه وإذ بيد تهبط على كتفه، التفت ليجد أستاذ عطية خلفه:

- بتعمل إيه برا الفصل؟

لم تكن كاميليا معه، أين ذهب بها؟ رد سريعًا:

- خلصت كتابة يا أستاذ..

قال عطية ناهرًا كرم:

- ومين قالك تخرج من الفصل لما تخلص؟ أنت متذنب، روح أقف على باب الفصل وارفع إيدك..

- يا أستاذ والله...

رد عليه زاعقًا: حالًا!

13

يونيو 2010

آلاء كرم داود، مكتبة الإسكندرية.

تلقيت تلك الرسالة الدينية على إيميل العمل، ظللت أتأملها لا أدري ما أفعله بها، كاتب الرسالة ينصحني بإرسالها إلى كل من أعرف ولديه بريد إلكتروني، يُحصي عدد الحسنات التي سوف يُسجلها الملاك على كتفي الأيمن، نعم أنا في حاجة إلى عدد من الحسنات، أليست الحسنات تمحو السيئات؟ السلام عليكم أيها الملاك، أرسل له خمسة سلامات في اليوم عله يثقل ميزاني بما يخط، وألقي بخمسة مثلهم إلى الملاك الآخر، ذاك الذي يثقل كتفي الأيسر، فأشعر به مائلًا، لم لا أرى ميلًا على عبد الحي؟ لربما امتلأت صحيفته اليسرى حتى آخرها وقرر الملاك الآخر أن لا شيء حسن يكتبه عنده فاستقال، وجاء ملاك أيسر قبع على كتفه اليمنى يسجل ذنوبه حتى توازنت الكتفان!

أتأمل الرسالة يخبرني مرسلها أنني ربما لا أستحق ثوابها، وإن لم أرسلها: «فأنا من مغاليق الخير ومفاتيح الشر وممن يصدون عن المعروف» ونحن مأمورون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنا أبتعد عن الصراط شيئًا فشيئًا، بدأت آيات القرآن الكريم تتسرب من صدري، لم أعد حريصة على الصلاة بآيات من سورة البقرة كما اعتدت أن أفعل، ولا أقيم الليل إلا خلال رمضان ووقفة عرفات! لست وحدي من تميل، ياسين أيضًا يرجع من عمله مرهقًا، لا يصلي إلا أربع ركعات فرض العشاء ثم يشغل فيلمًا بينما يتناول طعامه، الأفلام التي يحملها عن طريق التورنت أثناء النهار تحتوي على بعض المشاهد الجنسية، وهو لا يهتم، وأنا لم أعد أهتم، لقد اعتدنا على ذلك حتى صار لا يقع في صدورنا موقع النفور، إنها خطوات الشيطان!

غلُظ القلب، وكفت العين عن البكاء خشية الرحمن ونحن في أمس الحاجة إلى مغفرته بما اقترفت أيدينا من ذنوب. أرسلت الرسالة من بريدي الإلكتروني الخاص بالعمل إلى بريدي الإلكتروني الخارجي، في البيت سأرسلها لكل من أعرف دون أن تمنعني عن ذلك ذنوبي، والليلة سوف تكون لي مع ياسين وقفة، علينا أن نجاهد لكي نستقيم سويًا، أن نأخذ بأيدي بعضنا بعضًا نحو الجنة، ألم يكن ذلك عهدنا قبل الزواج؟

وسيطرت الفكرة على عقلي حتى عجزت عن التفكير إلا فيها، خلال البريك وقفت في الحجرة الزجاجية الصغيرة، أقضم من ساندوتش الجبن، وأشرب كوبًا من الشاي. موبايلي بين أصابعي وأنا أضغط على الحروف صانعة الكلمات التي يضج بها عقلي.

«حبيبي ياسين، واحشني، عاوزة الليلة دي نقعد سوا ونتكلم، بلاش نشوف فيلم الليلة دي،

أنا محتاجالك وأنت كمان محتاجلي، لسه بتحبني؟».

لم أتوقع ردًا على رسالتي، ليس الآن، يندمج ياسين في عمله حتى يصير العالم الخارجي محض هراء لا يعنيه في شيء. لمحت عبد الحيّ يأتي مقتربًا من الحجرة الزجاجية بقامته القصيرة النحيلة، خفضت عيني إلى شاشة الهاتف وكأنني منشغلة به. لقد رأيته في نهاية اليوم الثالث من التصوير وهو يقبل تلك ويحتضن هذه، سمعته وهو يتفق مع أصحابه على الاحتفال بانتهاء التصوير في «الشيخ علي»، بحثت حتى عرفت أن الشيخ علي ذلك ما هو إلا بارًا تلك علاقة لن تكسبني إلا ذنوبًا فوق ذنوب، كيف أخبره أنني لم أعد أرغب في الذنوب التي يقدمها لي دون أن أحرجه؟ لمَ لا أمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معه؟ لأنني جبانة، أخجل من ديني وأقبل فيه الدنيا فلا أستحقه، وجدت يدي تسارع إلى كتابة منشور على فيسبوك: «إحنا عايشين أيام صعبة و تقيلة فعلًا، الدين بتاعنا يشهد أسوأ أيامه بجد كالقابض على الجمر حقيقي، ربنا يثبتنا جميعًا يا رب».

نظر إلى شاشة هاتفه ثم رفع إليّ بصره مبتسمًا فشعرت أنه قرأ ما نشرته على فيسبوك، سألني عن البوستر الذي لم أعد راغبة في تصميمه، أجبته باقتضاب أنني لم أبدأ بعد، لمَ لا أخبره مباشرة أنني لن أعينه على الباطل؟ كم أود لو ألقي على مسمعه بعض ما اعتمل في صدري خلال الأيام القليلة الماضية، الإلحاد سهل أليس كذلك؟ لا ترويض للنفس بل الانصياع الأعمى والمطلق لكل ما تشتهيه، جنس وشُرب وشعر مكشوف وذراعات وأرجل، مايوه في البحر يلطف من حرارة الصيف، لا وضوء ولا صلاة ولا قرآن ولا ذكر، ولا ضمير مُثقل بالهم، الحياة من أجل الحياة، ولم أنطق بتلك الكلمات لأن التفكير فيها أيسر من لفظها، عاد يسألني:

- مالك؟

إنه يعرف بالضبط ما يضايقني، ألم يقرأ ما كتبت؟ ألم يدرك أنه هو تحديدًا مبعثه! أهز منكبيّ بلامبالاة، أبتسم ابتسامة صفراء فيعاود السؤال بنفاد صبر وضيق:

- فيه إيه بجد؟

- مفيش حاجة يا عبد الحيّ، ثم أنت مالك؟ بتسألني ليه أصلًا!

- ده بجد؟

- حاسس إني بهزر؟

دار على عقبيه عائدًا دون كلمة، لم تتعجل البيريود القدوم ولم تداهمني خلال أيام

التصوير، حصل العكس إذ تأخرت تاركة في نفسي نهرًا جاريًا من غضب لا ينتهي، ولن ينتهي إلى حين نزول أول قطرة من دماء!

هذا المساء أشعلت في البيت بخورًا له شذى جميل، عادت به نعمة من حجتها الأخيرة، استحممت، توضأت وتطيبت، استلقيت على الأريكة أنتظر ياسين. أخذت أتنقل بين القنوات حتى وجدت «عائلة سيمبسون» يُعرض على قناة فوكس، تابعت الحلقة بينما اشتياق إلى ياسين يتصاعد في صدري، كنا خلال السنة الأولى من زواجنا، وقبل أن يأكله العمل، نستلقي على تلك الأريكة ونحن نتابع سيمبسون حلقة وراء حلقة، حمّل ياسين المواسم كلها من خلال التورنت، سألته مرة أليس حرامًا استخدام خدمة الإنترنت الخاصة بالعمل في تنزيل الأفلام؟ قال «لا» بثقة العارف، وأنا أثق أنه يتحرى الحلال دائمًا وأبدًا، أشتاق إليه، تراجعت داخلي الرغبة في الكلام عن الذنوب والطريق الذي تعاهدنا على أن نقطعه سويًا، وتعاظمت رغبة في العناق، عناق حميمي يؤدي إلى جنس شغوف مثل ذلك الذي يجري في عوالم خيالي، إنهما لا يتعارضان قلت لنفسي، كلام فصلاة فجنس.

انتفض قلبي وأنا ألتقط صوت مفاتيحه عند باب الشقة، أحبه وإلا لكانت عودته إلى البيت ثقيلة على قلبي، مريح التخفف من وطأة الوساوس التي انتابتني الفترة الماضية، تلك التي كنت أهشها فترجع، لا كرامة لها فتخجل من طول صدي وطول إلحاحها، لقد بدأت علاقتي بعبد الحيّ تتخذ مسارًا مغايرًا في قلبي، تأكد لي ذلك حين بدأ يحكي لي عن مشاعره تجاه إيمان هارون وصدها له مكتفية بعلاقة الصداقة بينهما، الفنانة المبدعة كما قال عنها عشرات المرات، مشاعر الحقد التي تصاعدت في جوفي تجاه الفتاة رغم ما تعاملني به من مودة ولطف! حتى إنني ضبطت نفسي مندمجة في حلم يقظة طويل أتطلق فيه من ياسين، ويجثو عبد الحيّ على ركبته في قلب الديجيتال لاب، لا! من أين أتى ذلك الآن؟ أنا حتى لا أحب شكله، جسده القصير النحيف، صلعته وأذناه الشبيهتان بأذني الفيل بامبي! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! ياسين جميل مثل ملاك، بشرته بيضاء صافية، قامته طويلة وحضنه دافئ، يتراجع ساحبًا جسده من عناق لم أشبع منه بعد، لاحظت أنني كنت أفكر في عبد الحيّ وأنا في حضنه! يا لي من ساقطة! لا لقد كانت أفكارًا سلبية ليست على ذلك القدر من السوء! أبعد وجهي يتفحصه بحنو بالغ متسائلًا:

- أنتي كويسة؟

أبتسم له وأقبل رقته على شفتيه الممتلئتين.

- اتغديتي؟

- أيوة، وأنت؟

- الحمد لله.

وتمدد على الأريكة بعد أن فتح اللاب توب وأوصله بسلك الإتش دي أم أي المثبت في التلفاز، شغل فيلمًا واندمج فيه، لقد قرأ رسالتي فلمَ تجاهلها؟ ألم أخبره أنني راغبة في حديث بيننا الليلة؟ وتذكرت رسالة أخرى وصلتني من يوسف اليوم فقلت له بينما أجلس جواره على الأريكة:

- بكرة السمسار جاي معاه مشتري جديد، تقدر تاخد أجازة؟

لم أتلقَّ منه ردًا، ظل محدقًا بالشاشة يتابع الفيلم.

- ياسين؟

قال بضيق:

- لأ مينفعش آخد أجازة، قوليله يشوف معاد تاني..

- حشوف مع يوسف، بس ياسين إحنا محتاجين ننجز في التدوير على شقة!

نفخ حانقًا ولم يعقب.

- ياسين؟

قال وهو يشير إلى الشاشة وكأنه غاضب من مقاطعتي لمتابعته الفيلم:

- بعدين يا آلاء..

وهاج نهر الغضب القابع داخلي، نهضت أقطع عليه الشاشة، رأيت العرق ينفر على جبهته، صورة الغضب الوحيدة التي عكسها منذ عرفته، نهض وهرول تاركًا الصالة فتبعته إلى حجرة النوم، قال دون أن يرفع صوته:

- هو يوسف مستعجل ليه؟ مش عارف ظروفنا مثلًا! لو مكانش أخوكي!

قالها دون أن يتخلى عن هدوئه ولكنه فيضان نهر الغضب داخلي، ولا حيلة لي ولا حكم لي على لساني، أستدعي القديم قبل الجديد، لماذا يتجاهلني؟ لم يرد على رسالتي ولا حتى اهتم بسؤالي عنها! ثم:

- يوسف ذنبه إيه في ظروفنا؟ واحد في غربة ومحتاج لفلوسه، حقه، صبر علينا سنين ومخدش جنيه إيجار وجاي دلوقت تلومه؟

الشقة التي تزوجنا فيها ملك ليوسف، اشتراها له داود بعد أن سكن ابن عمي شقة أبي في بيت العائلة، كما اشترى لي سيارتي، والآن وقد قرر يوسف أن هجرته إلى إنجلترا دائمة يرغب في بيع الشقة، ونحيت المنطق جانبًا، بل منحت إجازة لأخلاقي، فانفلت لساني بكلمات نارية، مؤلمة، ألا يكفيه أن عاش حتى الآن في بيت أخي دون أن يدفع مليمًا! لمحت انكسارًا في عينيه ولم أبالِ، يحاول إسكاتي ولا أسكت إلى أن ترك الشقة صافعًا بابها من خلفه!

تركني ولم تفرغ نوبة غضبي بعد، فتحت دولابه وبعثرت ملابسه في أرجاء الغرفة، ركضت إلى المطبخ أتناول الأكواب الزجاجية وأقذف بها في كل اتجاه حتى امتلأت أرض المطبخ بهشيم الزجاج، في الصالة أبعثر كتبي عن المكتبة، أبحث عن ولاعتي وعلبة سجائري السرية، تلك التي أخبئها بعناية بين الكتب، أنتقل إلى الشرفة، أترك جسدي يتهاوى على الأرض، أدخن سيجارة وألمح كتابًا على مقربة مني، أمزق منه صفحات ثم أقطعها إربًا وأشعل فيها النيران، لا أهدأ إلا وأنا أراقب النار تتغذى على الورق وكلما أوشكت على الانطفاء أطعمتها المزيد منها.

14

أكتوبر، 1975

كرم داود، مدرسة فيكتوريا كولدج.

حين انطلق الجرس مزغردًا أسقط كرم ذراعيه أخيرًا وجعل ينفضهما محاولًا طرد التنميل والألم اللذين ألمّا بهما. طوال وقفته كان يترقب مرور كاميليا عائدة إلى الفصل فلم تظهر. خمن أنها سبقت الأستاذ إلى الفصل بينما كان هو منشغلًا بمراقبة حجرة المدرسين. وانطلقت سيول الطلبة تتخبط خارجة من الفصول في سعادة من نال حريته أخيرًا عقب سجن طويل. وانتظر مكانه عاجزًا عن دخول الفصل عكس تيار الطلبة حتى انقطع أخيرًا دون أن تظهر كاميليا. دخل الفصل فوجدها في انتظاره. تناولت حقيبتها وسحبت منها الزجاجة وتقدمت نحوه تعطيه إياها فسألها:

- إيه اللي حصل مع أستاذ عطية؟

- Nothing، قال أخد private lecon معاه.

- مقالش حاجة عن الإزازة؟

تطلعت كاميليا نحوه بملامح يشوبها شيء من الارتباك:

- no!

- أنا واثق إنه شافها!

- same here!

صمتا للحظات وكانت كاميليا تستكمل جمع متعلقاتها داخل حقيبة ظهرها استعدادًا للمغادرة، في حين كان كرم يتأمل الأمر حائرًا، لا شك في أن الأستاذ قد رأى الزجاجة، لم يصادرها ولم يذهب بكاميليا إلى مكتب الناظر ولم يطلب منها استدعاء ولي أمرها! طلب منها أن يعطيها درسًا خصوصيًا! هل كان يبتزها؟

ورفع صوته بالسؤال الذي علق على طرف رأسه مستوقفًا الفتاة قبل خروجها:

- وافقتي على الدرس؟

التفتت كاميليا إليه وقالت وهي تهز كتفيها لامبالية:

- no!

وتركته ومضت حتى تلاشت خروجًا من باب الفصل. دس كرم الزجاجة داخل حقيبته المدرسية، وأحكم إغلاقها ثم خرج مهرولًا فرأى كاميليا عند نهاية الطرقة تقف مع أستاذ عطية. تراجع نحو باب الفصل فوقف خلفه وأمال رأسه مراقبًا للحظات، خشي أن يقترب منهما ويكون الأستاذ قد تراجع عن تخطيه للأمر فتفشي كاميليا سره إن سألها عن مصدر الزجاجة. وبعد وهلة اختفيا من أمامه وكأن حائطًا ابتلعهما. خرج من الفصل ومشى بخفة نحو موضع وقوفهم، فرأى بابًا لم يلحظه قبلًا، كان على نفس لون حائط الممر، وعليه لوحة صغيرة مكتوب عليها «للعاملين فقط» تناهت إليه من الداخل أصوت، فاقترب أكثر حتى أمال رأسه متصنتًا. لم يتمكن من تبين ماهية الأصوات التي تصله من الداخل، حركة، خشخشة، احتكاك ما، أعمل السمع حتى تمكن أخيرًا من تمييز صوت كاميليا، كانت تبكي أو تتأوه وهم بفتح الباب حين استوقفه صوت الأستاذ عطية وهو ينهرها بصوت خافت وحازم في الوقت نفسه. «اخرسي خالص وإلا والله لأبلغ عنك يرفدوكي!» وتبع جملته صمت مطبق، ثم حركة خافتة واحتكاك ما ولهاث، بقي كرم في مكانه لحظات قصيرة قبل أن يطلق ساقيه للريح خروجًا من المدرسة كلها ليتخلص من الزجاجة.

15

يونيو 2010

آلاء كرم داود، مكتبة الإسكندرية.

أعدت رص ملابسه في الدولاب، كنست أرضية المطبخ من الزجاج المتهشم وجمعته في كيس الزبالة ثم أغلقته ووضعته في الخارج، أعدت كتبي إلى أرففها وخبأت بينها علبة السجائر والولاعة، عادة اكتسبتها من داود، يدخن حين يغضب فيتسلل دخان سجائره إلى أنفي، أعشق الرائحة ولا أمل استنشاقها، حتى جرؤت مرة وسرقت واحدة من علبته، داهمتني مراراتها قبل أن تأسرني لذتها، بخرت البيت أطرد عنه رائحة السجائر ثم ارتميت منهكة على أريكة الصالة.

شعرت بباب الشقة يُفتح، تطلعت من خلال فتحة ضيقة من عيني اليمنى كي لا يتسرب مني النوم، ولاحظت أن ظُلمة الليل لا تزال راسخة لم يقاطعها شعاع من أول الفجر، أصغيت السمع أتنصت إلى حركة ياسين في الشقة، هل يتوضأ ويصلي الفجر؟

maktabbah.blogspot.com

ولكني أحسست به وهو يدنو مني على مهل، افتعلت الاستغراق في النوم وأنا اشعر بأصابعه تمر على ذراعي برقة، ثم تستكمل المسير دانية من جذعي وحتى ما أسفل فخدي، قبل أن تعاود رحلة الصعود نحو مؤخرتي، اشتعلت جذوة بداخلي وأردت أن يستكمل ما بدأه دون أن يدري باستيقاظي، ولكني خشيت أن يكف، أبقيت عيني مغمضتين ولكني رسمت ابتسامة على محياي، لمحها فلف جسدي بعنف شعرت على أثره بتلك النبضات الممتعة في فرجي، طلب مني بنبرة حازمة أن أفتح عيني ففعلت، أجفلتني نظرته المحمومة إليّ، واشتعل منها جسدي، عدت أغمض عيني خجلة من تلاقي النظرات، ولكنه عاد يأمرني بفتحهما، وحين أطعته رأيت بين يديه كتابًا مفتوحًا، أعرف ذلك الكتاب، سبق ولمحته في مكان ما لا أذكره، في الصفحة رسومات توضيحية لأوضاع جنسية لكل منها عنوان فوق الصورة وشرح أسفلها، سألني أي وضع أحب أن يجربه معي؟ لكنني خجلت وامتنعت عن الرد، قال بنبرة أقرب للفحيح وقد قرب فمه من أذني يرسل داخلها أنفاسه الساخنة: «نجربهم كلهم»، أغمضت عيني شعرت به وهو يلقي الكتاب جانبًا، تركته يجردني من ملابسي وإذ به يرفعني ثم يجلسني من فوقه وقد فرج ما بين قدمي لتحتضنا جذعه، وبلغت النشوة مرة بعد مرة، وضعية بعد أخرى، لا أفتح عيني حتى لا تفر اللذة بالانكشاف، وحين كف عني وتلاشى شعوري بجسده، فتحت عيني لأجد فأرًا ضخمًا فوق بطني! صرخت وأنا أنهض منتفضة، لم يكن ياسين قد عاد بعد وكانت الشرفة مفتوحة عن آخرها، لقد سبق

وسمعت من جيراني عن تلك الفئران التي تسكن شارعنا وتتسلل إلى بيوتهم عبر الشرفات والشبابيك، لقد كنت أحلم به، وأنتفض من اللذة بينما يعلوني فأر! ارتعدت نفوزا وشرعت أركض في أرجاء الشقة وأنا أبحث عن مفتاحي، ولكني رأيت فأرًا آخر ثم آخر، تلاشى صوتي من فرط الصراخ، فررت من الشقة بعد أن صفعت بابها من خلفي، كنت أركض نحو أمي وهي تسألني غاضبة لو نسيت من جديد أن آتي لها بالأمانة التي سبق وخبأتها في بيتي، حاولت أن أشرح لها ما حصل لكن صوتي بُح ثم تلاشى!

استيقظت على وقع ضجيج الهاتف الأرضي.

قمت مترنحة إلى السماعة ورفعتها متوقعة أن يصلني صوت ماما من على الجانب الآخر، إلا أن صوتًا غريبًا وصلني طاردًا ما بقي في عقلي من نعاس:

- صباح الخير، أستاذة آلاء داود؟

- أيوه، مين معايا؟

- أنا مريم إمام سكرتيرة دكتورة هدى مِشعِل.

- أيوه؟ تساءلت وأنا أشعر بوقع الاسم مألوفًا على أذني، دون أن يتمكن عقلي من ربطه بشخص ما.

- مطلوب من حضرتك التواجد في اجتماع في مكتبها في A1 الساعة 12.

- لكن شيفتي انهاردة الساعة 3!

أجبتها دون تفكير، تذكرت عقب كلمة A1 أن دكتورة هدى هي مديرة مديري، تلك التي حين تمر كل فترة على الديجيتال لاب يحوله شاكر إلى ثكنة عسكرية، ويجعل منا عساكره المنضبطين على الساعة، أولئك الذين لا تصدر منهم هفوة، ممنوع استخدام سماعات الأذن، ممنوع ترك مكانك أمام الجهاز، ممنوع الكلام والالتفات والهرش، كن مستغرقًا في عملك وهي تمر، اجعل من نفسك كالآلة التي أنت تشغلها بالضبط، لا ترفع رأسك متتبعًا حركتها بين ممرات الديجيتال لاب، أتذكر في الأساطير القديمة حين يمر الملك المعظم وعلى الشعب السجود والامتناع عن النظر؟ عليك أنت أيضًا أن تنحني ولكن على العمل عوضًا عن تراب الأرض. تداركت، هدى مِشعل لا يقال لاجتماع خاص بها الشيفت بتاعي الساعة الثالثة. والسيدة على الهاتف لم تعقب على قولي في انتظار أن أتراجع عن الكارثة التي نطقت بها.

- آه طبعًا حاضر الساعة 12 حكون موجودة إن شاء الله.

فيمَ ذاك الاجتماع يا ترى؟ تلك سابقة لم أختبرها يومًا منذ عُينت في الديجتال لاب قبل

ما يقرب من أربعة أعوام، رأيت أن أمر على الديجيتال لاب قبيل الاجتماع، لأحصل على جرعة من فهم قد تورثني شيئًا من طمأنينة، لم أدخل مكتب دكتورة هدى في حياتي، ولم أبادلها كلمة، أسمع نبرة صوتها الرفيع الحاد، وكأنه صرير وهي تملي أوامرها وملاحظاتها على شاكر، يضاعفها هو طولًا وتضاعفه هيبة!

قبل أن أبلغ نهاية الممر وصولًا للديجيتال لاب، رأيت شاكر يتقدم عبره وخلفه مجموعة من زملائي، وجوههم مكفهرة بدوا كمن يتبعون نعشًا في جنازة. لمحني شاكر فأشار لي أن أنتظر حيث أنا، أريكني أن أكون على الجانب الآخر من كل تلك الأوجه وحدي، وقفت أهرب ببصري إلى شاشة هاتفي حتى بلغوا مكاني، انضممت إلى الجنازة وأنا أتطلع متسائلة إلى زملائي، لم يعرني أيهم اهتمامًا، بادر شاكر بإلقاء تعليماته في كلمات قصيرة واضحة، نبرتها حازمة:

- حتقفوا قدامها، تسمعوا اللي تقولوا ليكم، محدش ينطق، تخلص كلامها، تعتذروا وتمشوا.

- نعتذر عن إيه؟

تساءلت دون أن أوجه سؤالي إلى شخص بعينه، لا أدري لو بلغ سؤالي أحدهم أم أن صوتي خرج ضعيفًا فضاع بين الهمهمات المتناثرة هنا وهناك، لم يكن بين جماعة الزملاء أحد آلفه لأسأله بأريحية عن الخبر، كانوا جميعًا أناسًا أعرفهم وجوهًا، حيث إن الديجيتال لاب قوامه مئة وعشرون عاملًا، وأنا لم أتبادل كلمات إلا مع خمسة منهم تقريبًا أو ما يزيد قليلًا.

سبقنا شاكر إلى مكتبها، مكث دقائق ثم فُتح الباب وأشار إلينا أن ندخل، وقفنا جنودًا متراصة بخشوع أمام مكتبها الخشبي الضخم، والذي بدت خلفه بجسدها الضئيل كنقطة على سطر في كراسة، من مكانها قلبت نظرات حادة بين وجوهنا، تتفحصنا بدقة كما يمر جهاز السكانر على ورقة الكتاب حافظًا كل تفاصيلها إلى صورة ثابتة، تراجعت بكرسيها إلى الخلف سنتيمترات قليلة، ثم انسابت منها الكلمات سهامًا تهدر بها كرامتنا.

- دكتور إسماعيل طلب مني أرفدكم كلكم من غير حتى ما أضيع وقتي في كلام مع أمثالكم، لولا وساطة شاكر كان ده اللي حيحصل وعقودكم تتفسخ وقتي، ودكتور إسماعيل له ألف حق! سيرفر المكتبة وقع امبارح بسبب الإيميل المتخلف اللي كل واحد منكم بعته لمية ولا ميتين ولا ألف، إيميل الشغل للشغل، مكنتوش عارفين؟ جديدة المعلومة عليكم؟

ولم تغد نقطة صغيرة على سطر، ضخمها الصوت حتى ملأت كرسيها، وملأ كرسيها حجرتها، وتضاءلنا نحن إلى صف ذباب يشبه بعضه بعضًا، اشتغل عقلي سريعًا وأنا أتذكر

إيميل البارحة، ذلك الذي أرسلته من بريدي الإلكتروني الخاص بالعمل إلى بريدي الخاص بي، لم أرسله إلى أحد سواي، لست متهمة هنا فلم ضموني إلى أولئك المذنبين؟ ومضت توزع نظراتها الحادة بين وجوهنا، وتقدمت خطوة، هممت أبرئ نفسي، فلمس شاكر كتفي بأطراف أصابعه واستقر بصرها علي:

- عاوزة تقولي حاجة؟

- أنا وصلني الميل فبعته لنفسي على إيميلي الخاص، مبعتوش لحد، أنا هنا ليه؟

نهضت من كرسيها فتراجعت تلقائيًا أقف بين المتهمين، التفتت نحو شاكر لأراه يتطلع إلي بحدة، تجاهلت تعليماته ودافعت عن نفسي، دفاعًا مستحقًا لست ممن تسببوا في وقوع السيرفر، مالي أنا ومال تلك الوقفة المهينة!

- ميل زي ده يوصلك تمسحيه علطول طالما ملوش دعوة بالشغل!

تهز سبابتها أمام وجهي، يغلي عقلي غيظًا، وتتسارع أفكاري، أرغب في الدفاع عن نفسي، ولكنها لا تتيح لي الفرصة، تسترسل في الكلام بصوت يذكر باحتكاك الطبشورة في السبورة، صوت يقشعر منه بدني نفورًا وتقززًا:

- أنا قلت قبل كدة محدش يخش المكتبة إلا لما يمتحن آي كيو، قلت كدة لأني محبش أشوف كم الأغبياء دول قدامي في أوضة واحدة، أنا لو في إيدي قرارات التعيين مشغلكوش تمسحوا حمامات المكتبة!

هل نطقت حقًا بتلك الكلمات؟ تطلعت ذاهلة نحو زملائي، أكتافهم متهدلة، أبصارهم خاشعة، لا يأتي واحد منهم بنفس، جبناء متخاذلون، فئران! أردت أن أتكلم فلم أجد صوتي، يرتعد جسدي غضبًا وأحس بنقطة الدماء الأولى وهي تنزلق من فرجي، أهرول خروجًا من المكتب ثم أصفق بابه بعنف، باب خذل صورة غضبي لأن به ميكانيزما ضد الصفع، مضى ينغلق من خلفي بالتصوير البطيء!

16

أكتوبر، 1975

كرم داود، مدرسة فيكتوريا كولدج.

بعد أن تخطى كرم باب المدرسة عدوًا فرملت عليه سيارة فثبت منتبهًا لمكانه، زعق فيه السائق معنفًا، تراجع إلى الرصيف ووقف يلهث محاولًا استجماع أفكاره. هل يفعل أستاذ عطية في كاميليا ما يظنه فعلًا؟ هل فر وتركها لذلك المصير! أليس واجبًا عليه أن يرجع وينقذها؟ بالتأكيد ولكن عليه أن يتخلص من الزجاجة أولًا، لو عاد بها ورآها الأستاذ لن يزيد الموقف إلا سوءًا. تطلع حوله، كانت جموع الطلبة قد انفضت وتفرقت بالفعل. مشى نحو حاوية القمامة وحين بلغها التفت حوله يراقب الشارع، رأى أسرة من رجل وامرأته وطفلين يعبرون الطريق فانتظر في مكانه حتى مضوا مبتعدين وعاد يتطلع حوله مرة أخرى، وكلما رأى عابرًا انتظر، لا يمكن لأي شخص أن يراه وهو يتخلص من تلك الزجاجة. ومر به الوقت دون أن يطمئن في أي لحظة لخلو الشارع. وإذ به يلتفت فيراها تخرج من باب المدرسة. بدت له كما هي، لم تكن ملابسها ممزقة ولا شعرها مبعثرًا، لا تنقصها يد ولا قدم، لكن أينقصها شيء أهم؟ تسكن كاميليا غير بعيد عن المدرسة وقد اعتادت أن تجتاز طريقها إلى المدرسة ومنها مشيًا. انطلق خلفها مهرولًا دون أن يدري ما قد يفعله أو يقوله. وحين وقفت لبرهة وجيزة تراقب الشارع قبل أن تعبره ناداها:

- كاميليا..

وكان على بعد أمتار منها، التفتت فرأته وبدأت تعدو عابرة الطريق ثم مبتعدة على طول شارع الإقبال.

لقد انتظر طويلًا، طويلًا جدًا حتى انتهى كل شيء. لكن ما الذي حصل تحديدًا؟ يجب أن يفهم، هل يسألها، هي لن تعرف أبدًا أنه كان أمام الباب وسمع ما حصل بالداخل. جرى خلفها لا يلوي على شيء، لكنه استمر يرفع سرعة عدوه حتى كاد يبلغها، مد ذراعه وأمسك بحقيبة ظهرها، فاستدارت تواجهه.

ملامحها جامدة، شعرها معقوص خلف ظهرها، إلا خصلًا انفلتت متحررة من مشبك شعرها فتناثرت شعاعًا من الشمس حول وجهها الورديّ. تلهث فيرتفع صدرها المكور الصغير ويهبط، شعر أن شفتيها الحمراوين ترتعشان وكأنما تريد أن تقول شيئًا. وداهمته رغبة جارفة في تقبيل تلكما الشفتين. بقيا على تلك الحال للحظات واقفين في مواجهة بعضهما بعضًا كل منهما يلهث ولا أحد يتكلم.

وكانت جميلة حقًا، وكان على حاله تلك أقرب ما يكون إليها مذ شاهدها للمرة الأولى، حين جاءت إلى فصلهم مطلع العام تتعثر في لغتها العربية صابغة عليها لكنها محببة إليه. وكأن عينيها دوامات رمال متحركة. وجد نفسه كمن تاه عن مركبته الفضائية في فضاء لانهائي الامتداد، يسبح هناك بلا وسيلة لتوجيه جسده ولا علامات تدله على الطريق. وأما هي فلم تكن تدري ما تفعل بنفسها. كانت تعدو وكأنما ترغب في إنهاك جسدها مما يؤخر استيعاب عقلها ومشاعرها لما مرت به ولو قليلًا فقط! وذلك الصبي الغريب لمَ استوقفها؟ ماذا يريد! إنها غاضبة ترغب في الانتقام. هي خائفة لا تدري كيف تتصرف، وتائهة لا تفهم ما تحس به الآن. لكن تلك الأصابع القذرة عبثت بها. عبثت بها في كل موضع من جسدها لم تلمسه يد من قبل. وإذ بكرم يرى ذراعه وهي تمتد، يرى أطراف أصابعه وهي تنزلق على وجنتيها زاحفة نحو خصلات شعرها. ودون لحظة تفكير ثنت ساقها فلطمته بركبتها في خصيتيه، صرخ متألمًا وهو يقفز في مكانه كالبهلوان، وهي لم تعنِ به، لم تقف بعد ضربها له لحظة واحدة، وإنما انطلقت تستكمل عدوها.

حين هدأ الألم بعض الشيء، عرف كرم أنه استحق ذلك تمامًا، فاستلذ بنبضات الألم الباقية في جسده وهو يعرج مبتعدًا عن بوابة المدرسة، صدره يمور بالكآبة ولا يرى في الحياة من حوله إلا سوادًا! يفكر في الزجاجة داخل حقيبة ظهره، سوف يتجرعها كاملة داخل إحدى الغرف الخالية باللوكاندة، علّه يموت سكران وينتهي كل ذلك الألم!

17

يونيو 2010

آلاء كرم داود، مكتبة الإسكندرية.

أتدحرج بين ممرات المكتبة لا ألوي شيئًا، يستعيد عقلي كلمات هدى مِشعل فيأبى التصديق، تومض صورة زملائي مطأطئي الرؤوس فينكر عقلي ما سمعته أذناي، هل توهمت أنها قالت ما قالته! لم أدرك أنني كنت أبكي إلا حين لاحظت عيونًا ترمقني في دهشة.

تلفظني ممرات المكتبة إلى النور، يلفح هواء البحر وجهي فأشعر بلسعة الدموع على وجنتيّ، أتصل بياسين مرة بعد مرة، لا أكف عن معاودة الاتصال إلى أن يرد عليّ أخيرًا، يخبرني أنه لا يفهم شيئًا مما أقول، يسأل بقلق، حد جراله حاجة؟ يوسف نعمة وداود كويسين؟ وقع حادث؟ هل أنا بخير؟

- مش دي القصة، كلهم بخير، لازم أشوفك حالًا!

لم أطق صبرًا أن أنتظر ياسين يأتيني إلى الشاطبي عند المكتبة، من سيدي بشر في آخر الدنيا حيث يعمل، ولا أن أذهب إلى البيت فأنتظره هناك، صممت أن نتقابل في سيدي جابر أو ستانلي، منتصف المسافة بيني وبينه، كنت في حاجة لأن أتحرك، أن أقود سيارتي، أن يرسل الراديو داخل أذني هراءه المعتاد، أن تصمت عني أفكاري حتى آوي إلى موضع يُمكنني من تحويلها إلى كلمات.

حين كدت أبلغ جليم هاتفته، كان لا يزال ناحية المحروسة، فقابلته في لوران، جلسنا متقابلين على واحدة من المقاهي المتناثرة أسفل الفنادق الرخيصة على طريق الكورنيش في الجهة المقابلة للبحر، كان الكرسي خشبيًا غير مريح، وأصوات كركرة الشيشة تتصاعد حولنا تصاحبها سحابات كثيفة من الدخان، شخص يزعق عبر الهاتف قريب من أذني، وثلاثة رجال يتضاحكون عقب تبادل كلمات لا شيء يُضحك فيها، والنادل يسألنا عما نود تناوله ثم يتلو علينا لائحة الطلبات شفهيًا، على الطريق تكدست العربات لا تكاد تتحرك، امتزجت أصوات المواتير بعواء الكلكسات والبشر على السواء.

- آلاء؟!

انتشلني صوته من وعاء الكشري الذي شعرت بنفسي أسبح داخله، حاولت تجاهل خليط العدس والمكرونة والأرز والصلصة الذي نحن عائمون فيه، وكان ذلك صعبًا بحق، أردت أن ألطم فك الرجل خلفي كي يتعلم أنه ليس على المحيطين به جميعًا أن يسمعوا تفاصيل

مكالمته الهاتفية، وأن زمن التزنك مضى منذ عقود لو لم يكن لديه فكرة، طلبت منه أن ننتقل إلى كافيتريا مغلقة تسمح لنا بإدارة حديث يمكننا فيه أن نسمع بعضنا بعضًا! ورغب عن ذلك بصرامة من لا يملك مليمًا في جيبه، يقول إنه كان أجدر بي أن أنتظر عودته إلى البيت مساءً لو أردت أن نتكلم في هدوء، ثم يسأل، ما الأمر العاجل الذي فاض صوتك بهستيرياه حتى أبيت الانتظار حتى المساء!

اكتسبت ملامحه تلك الجدية التي تنبئ بنفاد صبره وجاهزيته للصد عن التواصل معي، فسارعت أحكي له قصة الرسالة الإلكترونية من أولها ثم بدأت أعيد على مسامعه كلام هدى مشعل كلمة كلمة، فإذا أساريره تنفرج، يبتسم؟ حقًّا؟ يهش الهواء باستهانة مؤكد أن هذا مما يحصل في أماكن العمل وهو ليس بغريب، وفي رأيه أنني مخطئة حتى لو اكتفيت بإرسال الميل إلى نفسي، بالطبع ليس خطأ مما يُرد عليه بكلمات كتلك، لكن من يدري، لربما تمر الست بفترة دورتها الشهرية، وأنت أعلم الناس بما يحصل معكن من اضطراب هرموني خلال تلك المرحلة الحرجة!

وانفرجت شفتاه كمن أراد أن يضحك على نكتة قالها، ولكنه تراجع على وقع ما رآه من أثر كلماته على ملامحي، الحق أنني كنت أمر بمزيج من الصدمة والغضب. سأل باستهانة:

- معقول هو ده الموقف اللي نزلتيني من الشغل علشانه؟ ثم... (ينظر إلى ساعة هاتفه ويستكمل مستنكرًا) مش عندك شيفت بالليل انهاردة!

ما هذا الذي ينطق به! ألا يعكس وجهي صورة غضبي؟

- حستقيل!

خرج صوتي محشرجًا غليظًا حتى إن أذني أنكرتاه. رأيت دهشة على ملامحه لا تتناسب مع رجل كان يبحث عن زوجة لا تعمل، ثم لما عرف من خالتي قبل أن نلتقي أنني متمسكة بالبقاء في عملي، إلا أنني متدينة ومُحتشمة ولا أنتف حواجبي، وافق أن يمنحني فرصة!

- تستقيلي؟

قالها مستنكرًا، العرق الأزرق في جبهته العريضة البيضاء يهب من نومه نابضًا. نهضت واقفة وأنا أقول بصرامة:

- لو مش فارق معاك كرامة مراتك، فأنا كرامتي غالية عندي!

قال مستدعيًا أغلظ طبقات صوته، وعيناه منفرجتان عن نظرة تطق شررًا:

- أقعدي!

انصعت إليه مرتمية على المقعد حتى كاد يسقط بي، قام هو وتوجه إلى النادل فدفع إليه نقودًا ثم عاد وأشار إلي فقمت أتبع خطواته، لف رأسه يسألني:

- راكنة فين؟

لم أرد عليه وإنما أسرعت في مشيي حتى سبقته بعدة خطوات ليتبعني هو إلى حيث ركنت السيارة، وإذ به يجاورني ثم يمد ذراعه اليمنى حتى تحط كفه على كتفي اليسرى، يستوقفني ثم يلف حقيبتي المستقرة على جنبي إلى خلف ظهري فوق مؤخرتي:

- بتعمل إيه؟

- امشي.

ترتفع دقات قلبي حين أفهم مبعث ما فعله، طبعًا لا بد ليوم كهذا أن يتوج ببقعة دماء في منتصف مؤخرتي، يقول ياسين بصوته الرزين:

- بلاش قرارات انفعالية يا آلاء، بلاش قرارات خالص في الوقت ده من الشهر والنبي!

أركب السيارة ويغلق هو الباب من خلفي قائلًا:

- خدي اليوم مرضي وروحي البيت اهدي وريحي.

أقود سيارتي على طريق الكورنيش وأنا أرى من خلال المرآة الأمامية، ياسين يبتعد بقامته الطويلة نحو الاتجاه المعاكس، يصغر تدريجيًا إلى أن يغيبه الطريق.

18

ابريل 2018

آلاء على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوي.

أدرك مصطفى ما أمر به فركن السيارة إلى جانب الطريق بعد أن ضغط زر الكاسيت طاردًا أم كلثوم منها، ترجل ودار حول العربة ثم فتح الباب الذي يجاورني، انحنى إلى مستوى جلوسي، بلل يده بالماء ومسح بها على وجهي، فاستدعى فاضل متجسدًا أمامي، لقد اعتاد أن يفعل مثل ذلك عند نوبات فزعي! وضع كفه على ظهري وساعدني على تنظيم تنفسي تدريجيًا حتى هدأت، لم يبق داخل زجاجته إلا رشفة ماء طلب مني أن أشربها.

نوبات الفزع تلك جديدة علي، فيما مضى كنت أفرغ مشاعري بالصراخ، السباب، كسر وحرق الأشياء، نوبات الغضب تلك هي التي قادتني إلى الطبيب النفسي، وبدلًا من أن أتخلص منها استبدلتها بنوبات الفزع!

أركز على التقاط أنفاسي، أسكن رويدًا وإذ بمصطفى يتناول هاتفه فيكلم ماما، أسمع نبرة صوته الهادئة وهو يقنعها أن تنتظر حتى الصباح ثم تأتي إلى الإسكندرية، الوقت تأخر والأمر يستدعي بالًا رائقًا ونقاشًا تتشارك فيه كل الأطراف المعنية، آن الوقت لكي تصفي تلك العائلة أحقادها المكمكمة، قال إن أحمد فرج مرحب به في بيت داود ثم طلب منها أن يلقي عليه التحية، يصير صوته مرحًا وهو يكلم الرجل، يداعبه ويتبادلان إفيهات قديمة، أضحك من فرط سخافتها! يدهشني صوت ضحكتي حين يبلغ أذني، لقد ذهبت عني نوبة الفزع تمامًا، كيف فعلها؟ جعل ماما تسمع منه وتقتنع بكلامه! كيف؟ عليه أن يعطيني كورسًا مكثفًا في كيفية التعامل مع تلك المرأة!

أرمقه بإعجاب وأشعر برغبة جارفة في معانقته ولكني لا أفعل، تطمئنه ضحكتي فيعود إلى كرسي القيادة ثم يعود بنا إلى الطريق تنهبه عجلات السيارة ماضية بنا إلى الإسكندرية على وقع صوت أم كلثوم الذي رده إلينا بضغطة زر.

19

يوليو 1994

نجوى سليمان، شقة كرم، بيت داود.

كان يوسف نائمًا حين وضعته نجوى على فراشه الهزاز الصغير جوار فراشها، ثم جاءت بسلم منزلي صغير وأنزلت حقيبتي سفر كبيرتين من فوق دولاب غرفة نومها، ووضعتهما على الفراش، وبدأت تتحرك في أرجاء الشقة وقد زمت شفتيها تمامًا، جسدها متصلب، حركتها عصبية، تفتح ضلفة الدولاب بعنف فتقرقع ثم ترتد منغلقة، فتعاود فتحها بعنف أشد وكأنها تنتقم منها، استيقظ يوسف وبدأ يبكي فتجاهلته مستكملة ما تفعله. آلاء على باب الغرفة منكسة الرأس، جسدها الصغير يرتجف، لم تزعق لها نجوى حين التقطتها من على طريق الكورنيش تركض بصحبة مالك، انفجر فيهم صالح سبًا وتقريعًا، بينما هي تلقتها في حضنها وسكبت دموعًا أحست بها آلاء تنزلق من أعلى مقدمة رأسها نحو جبهتها، همست آلاء: «آسفة» ولم تتكلم نجوى على الإطلاق، مرتا في صعودهما على شقة نعمة بالطابق الأول، حيث أخذت نجوى يوسف منها، وتركت الشقة مهرولة، والتقطت نعمة آلاء تعانقها فخلصت جسدها منها وهرولت تتبع أمها، فلحقت بها وهي تفتح باب الشقة، دخلت آلاء أولًا ثم تبعتها نجوى التي صفعت الباب خلفها بعنف محدثة ارتطامًا انتفض له جسدها الصغير.

تتأرجح نجوى بين دولابها والحقيبة، تسحب ملابسها وتلقي بها داخل الحقيبة في عشوائية، بينما آلاء تود أن تسألها عما تفعله، ترغب في الكلام وتعجز عنه، رن الهاتف الأرضي فسعت نجوى إليه على نفس وتيرتها الغاضبة، وأنصتت آلاء بكامل انتباهها إلى المكالمة، وحين فهمت ما يحصل تلبسها فزع هائل، فقد قالت نجوى لفايزة أمها، إنها الآن تعد الحقائب وستكون في بيتها خلال ساعتين على أقصى تقدير، وأعقبت بعد صمت قصير، أنها ستحمل معها جزءًا من متاعهم، ثم تستكمل نقل البقية فيما بعد.

عادت نجوى صامتة، مزمومة الشفتين ومتصلبة الجسد إلى روتين نقل ملابسها بين الدولاب والحقيبة، بينما تراقبها آلاء وقد بهت لون وجهها وثقلت أنفاسها، شعرت أن صوتها محبوس، وتمنت من شغاف قلبها أن يكون هذا كابوسًا لا أكثر، أرادت أن تصدق أن هذا كابوس فقرصت ذراعها بأصابعها دون أن تستيقظ.

وكان بكاء يوسف لا ينقطع، تقدمت آلاء داخل الغرفة وبدأت تهز فراشه بينما عيناها تتبعان أمها، بدأ صراخه يهدأ رويدًا وإن لم يكف تمامًا عن البكاء.

إن قرار نجوى بترك بيت داود لهو عقاب آلاء الأسوأ على الإطلاق، أن تأخذها إلى بيت

فايزة جدتها لأمها، حيث الشقة الصغيرة الكئيبة، ليس لها فيها غرفة تخصها وحدها، ولا أطفال يلعبون معها، قد تأتي واحدة من خالاتها بأطفالها من وقت لآخر، لكن حتى بنات خالتها لسن أصدقاء لها مثل أولاد عمومتها، أصغرهن وهي سحر تكبرها بستة أعوام، وعلى هذا الأساس يعتبرنها طفلة لا يشاركنها أحاديثهن التي يسمينها «كلام كبار».

صممت آلاء أن تستجمع بعضًا من الشجاعة، ألا تترك نفسها للبحر يسحبها في تياره فتغرق دون مقاومة منها، بدأت نجوى تتحرك في أرجاء الشقة، تجمع بعض الأشياء من هنا وهناك، فتركت آلاء فراش يوسف وخرجت تتبعها، سألتها أخيرًا:

- حنروح عند تيته فايزة؟

لم ترد عليها نجوى، كانوا قد دخلوا غرفة آلاء ففتحت دولابها بنفس وتيرة العنف، وحين وجدته فوضويًا زادت حدة انفعالها، فانبرت تشد الملابس منه وتلقي بها على أرضية الغرفة، قالت لها آلاء برجاء:

- ماما، يا ماما أنا حرتبه والله.

لكن نجوى لم تكف عن بعثرة ملابس الصغيرة في أنحاء الغرفة، ولم تلتفت نحو آلاء أو تكلمها، حملت كومة من الملابس التي رمتها على الأرض وتوجهت بهم نحو غرفتها حيث الحقيبة، بينما قطع من الملابس تتساقط منها في الطريق فتجمعها آلاء من خلفها، ألقت نجوى بكومة الملابس بشكل فوضوي داخل الحقيبة، عادت آلاء تسألها برجاء:

- ماما ردي عليا من فضلك، حنروح عند تيته فايزة؟

ردت نجوى أخيرًا وهي تزعق فيها:

- أيوة أنتي شايفة إيه؟ إيه الغباء ده على المسا؟

بدا أن نجوى عاجزة عن ترتيب أفكارها، بل حتى عن إدراك ما تقول وتفعل، إن ما تفعله لا يشبه أبدًا شخصًا يعد حقائبه للرحيل، وإنما كانت أقرب إلى لص يفتش منزلًا ما بحثًا عن المجوهرات، عادت تسحب ملابسها من الدولاب وتلقي بها داخل الحقيبة بشكل عشوائي تمامًا، سألتها آلاء:

- يعني حنقعد قد إيه عند تيته فايزة؟

ردت بحدة:

- للأبد يا آلاء، لحد يوم القيامة.. ارتحتي؟

قالت آلاء برجاء:

- ماما، أنا آسفة والله، مش حعمل كده تاني، أنا غلطانة، أنا آسفة.

وارتفع بكاء يوسف وتواصل بلا انقطاع حتى صارت ذبذبات صوته تغلف جدران الغرفة من حولهما، ونجوى عاجزة عن نزع لباس الغضب الذي التصق بجسدها كله، ترتعد أصابعها وهي تقبض على ملابس لا تميزها عن بعضها ثم ترمي بها إلى داخل الحقيبة وحولها، وقد علت الملابس عن حافة الحقيبة وبدأت تفور متساقطة عنها، جعلت نجوى تجمعها من على الأرض والفراش، ثم تكومها داخل الحقيبة وتضغطها بعنف، بل كانت تصفعها وكأنها ترى فيها صورة الموت نفسه فتشبعه ضربًا ولطمًا، آلاء تراقبها بخوف بالغ، لا تدري ما تفعله بنفسها، تتساقط دموعها غزيرة، تخرج من الغرفة مهرولة وتعود بمصحف صغير بين يديها، تذهب به للوقوف بين يدي نجوى، تضع كفها الصغيرة على المصحف:

- والمصحف الشريف ده يا ماما ما حعمل كدة تاني.

وكان جسدها يرتجف بالكامل، تتجاهلها نجوى، فيرتفع صوت بكائها عاليًا، تصفع نجوى الملابس المكومة داخل الحقيبتين تضغطها وتحاول إغلاق حقيبة منهما فلا تنغلق، تمشي إلى فراش يوسف فتحمله وتجلس على حافة سريرها، تكشف صدرها وتلقمه حلمتها، تجلس آلاء عند قدمها والمصحف الصغير بين كفيها، تسند رأسها على قدم نجوى المدلاة على الأرض وتنهمر في البكاء، تصرخ نجوى فجأة:

- كفاية كفاية اخرجي برا الأوضة.. اخرجي..

تركض آلاء خارجة من الحجرة، فتسحب نجوى يوسف الذي لم يشبع بعد من على صدرها، فيعاود صراخه بصوت مبحوح، تضعه جانبًا ثم تحني جذعها وتدفن رأسها بين كفيها، يختلج جسدها بشدة، وتغيب في عويل صامت.

بعد ساعة حين لم يتبقَّ من بكاء الثلاثة إلا ست عيون محمرة، تنقل نجوى الحقيبتين أمام باب الشقة ثم تعود وتحمل يوسف على ذراعها وتطلب من آلاء حمل إحدى الحقيبتين، تجر آلاء الحقيبة الثقيلة جرًا إلى الخارج، تتبعها نجوى وهي تحمل يوسف على ذراع والحقيبة مدلاة من كفها الأخرى، تغلق الباب بالمفتاح ثم تشرعان في نزول السلم، لا تتمكن أي منهما من رفع الحقيبة فتنزلان وكل منهما تجرجر حقيبتها خلفها متدحرجة على درجات السلم مصدرة فرقعات متتالية يرددها الصدى الذي يصنعه بئر السلم.

الفصل الثالث

جانب من أوراق «سري علي مصطفى محمد سليمان الجن»:

من بين المنازل التي شيدها جدي: منزل بشارع (صور ومنفس) وأقام به والدي المرحوم علي وتزوج أمي المرحومة ظهرة بنت سيد سليم وأنجب منها اثنى عشر؛ ستة ذكور وست إناث، وتزوج بثلاث نساء أخريات لأنه كان رجلًا صالحًا. وفي الوقت الذي كان يقوم ببناء منازل، اشتغل بصفة وكيل لعائلة الشيخ سعيد باشا، صاحب جامع الشيخ وكان يسافر سنويًا ثلاثة أشهر -الصيف- إلى اليونان وإيطاليا لمباشرة شؤون أملاك أولاد الشيخ ويقضي بقية السنة لمراعاة أولاده وشؤونه الخاصة وكان يتقن اللغة الايطالية كتابة وقراءة واليونانية (كلامًا) فقط، علاوة على إلمامه التام باللغة الشركسية لغته الأصلية لكنه كان يتكلم معنا بلغة أخرى هي العربية ما عدا الشتائم، فإنه كان يستخدم معنا الشتائم الشركسية وكان يضربنا جميعًا كبيرًا وصغيرًا لأقل غلطة ولكنه كان حنونًا، طيبًا، يُدير شؤون بيوته الأربعة وشؤون أبنائه ببراعة، وهكذا كان الناس وقتها، يتزوجون كثيرًا وينجبون كثيرًا جدًا، ولعلي فكرت أن ثروات أبي كانت لتكون ذات قيمة حقيقية لو وُزعت بين عدد أقل من الأبناء، إلا أنني أجاهد لصرف ذلك الوسواس الرجيم عن رأسي، وأشكر الله على كثير نعمه وفضله، وأذكر نفسي وأبنائي أن الثروات ما هي إلا ابتلاء شديد الوطأة يحاسب عليها المرء حسابًا عسيرًا. ورغم ذلك فقد كنت حريصًا كل الحرص على الاقتصاد في إنجاب الأبناء، وكنت وزوجتي لتكتفي بأربعة صبيان وابنتين، نعمة وفضل، إلا أن داود كان رزقًا من الله أتى ثمرة ليلة عاصفة من ليالي الإسكندرية، حيث كانت نواة القاسم، عصفت السماء ريحًا هوجاء تطوف شوارع الإسكندرية وقد هجرها الناس لائذين بدفء بيوتهم، فرقعت السماء بالرعد وتلاه البرق يومض عبر نوافذ بيتنا الصغير، ارتجفت إطارات الشبابيك، وطقطقت الأرضيات الخشبية، ثم انفجر المطر سيولًا ثقيلة تطوق المدينة، واجتمعنا أول الليل في الصالة التماسًا للدفء والونس، ومررت علينا فاطمة أطباق العدس الساخنة اللذيذة، امتلأت بطون الأولاد شبعوا وناموا متلاصقين يدفئون بعضهم بعضًا، كما دفأنا أنا وفاطمة بعضنا بعضًا ليكون داود ثمرة الدفء والحب واللذة.

1

يوليو 1994

ما بعد منتصف الليل، بيت فايزة أم نجوى.

قال كرم لنجوى إنه سيعود على الفور دون تأخير، إلا أنه أكد عليها أن ترجع إلى البيت ولم تكن راغبة في ذلك، لكنها عادت تجر قدميها جرًا، وفي البيت لم تر آلاء ويوسف لكنها عرفت أنهما موجودان بمكان ما في أركان تلك الظلمة الحالكة، ثم ظهرت جدتها لأبيها، كانت جالسة القرفصاء على أرض سوداء لا أبيض في الغرفة سواها، بيضاء بالكامل من رأسها وحتى أخمص قدميها، نحيفة ولها شعر أبيض طويل بالضبط كما تعرفها جيدًا، لكنها كانت تدرك في تلك اللحظة أن جدتها ماتت، وحاولت أن تتصل بكرم لتخبره أن جدتها المتوفاة جاءت إلى البيت، وأنها تخشى حقًا التواجد معها، عجزت عن الوصول إلى كرم، أو إلى باب البيت بحثت عنهما طويلًا دون جدوى، ثم التفتت لتفاجأ أن جدتها تنظر إليها بعينين جامدتين لا حياة فيهما، وبدأت تطفو نحوها، ففزعت نجوى واستيقظت، «كرم قتل نفسه يا نجوى، مرضاش يرجع ليكي، كِره الحياة معاكي»، هل نطقت جدتها بتلك الكلمات عند طرف الحلم؟ أم أن ذلك صوت يردده عقلها! تم كل شيء سريعًا، بلغها خبر موته في القاهرة بعد أن غسلوه وكفنوه وعادوا به رأسًا إلى المقابر، لم تفهم، مات؟ كيف؟ ولماذا؟ حين تركت له البيت لم يكن عن كره وإنما احتجاج، وكانت تشتاق إليه اشتياقًا يؤلمها، وتصر على البعد لأجل أن يصحو من غيبوبته فيشاركها الحياة الزوجية! آااه يا كرم لكم أنت جبان غبي! صارت آلاء يتيمة الأب في نفس العمر الذي صارت هي فيه يتيمة الأب، أتلك لعنه وكتبت عليهم! كيف يفعل ذلك بأبنائه؟ كيف! لم تعرف بأمر انتحاره إلا من أصحابه، فرج وربيع وإسماعيل، عجزت عن مواجهة أهله بما عرفت، ما الذي يمكن قوله؟ آه كم أرادت أن تنفخ فيه الحياة من أجل أن تقتله مرة ثانية وثالثة ورابعة، الوغد، الجبان... لكم تفتقده!

مدت يدها تتلمس الأباجورة على الطاولة الخشبية الصغيرة بجوار الفراش حتى عثرت عليها، لمست قاعدتها بخفة فانبعثت إضاءة برتقالية خافتة، لمستها مرة أخرى فاشتدت الإضاءة بعض الشيء، كان الفراش ملاصقًا للحائط، وقد وضعت حائلًا من عدة مخدات بين الحائط وصغارها، تطلعت ممتعضة إلى بقع العفن الصغيرة المنتشرة عليه من أثر الرطوبة. البقع متفرقة قرب السقف ثم تتكاثف نزولًا نحو الفراش حتى يصير غالبية الجدار موشى بالسواد قرب الأرض. تلك البقع لا تزال هنا منذ كانت صغيرة تتشاجر مع أخواتها البنات كي لا تنام ملاصقة للحائط، ولو خسرت المعركة كانت تفضل النوم على أريكة الصالة على أن تنام ملاصقة لبقع العفن.

اعتدلت على الفراش وتناولت حقيبة يدها من جواره، وأخذت تفتش فيها طويلًا حتى استخرجت منها مقلمة صغيرة، فتحتها وسحبت من داخلها علبة سجائر وولاعة. نهضت ومشت نحو نافذة صغيرة تحتل الجدار المقابل للفراش، أسفل النافذة مكتب خشبي كبير، صعدت تجلس فوقه ثم فتحت النافذة، أشعلت سيجارتها، ثم فرشت ذراعها اليمنى على حافة الشباك وأسندت عليه رأسها، وانبرت تدخن، يطل الشباك على منور صغير تحاوطه خمس بنايات أخرى خلاف البناية التي تسكن فيها فايزة، وعلى الرغم من ذلك الحصار فقد تمكنت بضع نسمات من هواء ما قبل الفجر من النفاذ عبر البنايات لتداعب شعر نجوى البني الطويل، وتربت على وجهها بحنو افتقدته قبل حتى أن ينتحر كرم، منذ اختفى تاركًا البيت دون أن يعلم أحد مكانه، وجدت دموعها تنهمر على أثر دفقات النسيم الحانية، تفكر في آلاء وتتذكر كل ما حصل خلال الساعات الماضية، غضبها ومحاولات آلاء لتهدئتها وإرضائها بشتى الطرق، واستمرار شخطها عليها رغم ذلك، شعرت أن قلبها يكاد ينخلع من مكانه، التفتت من مكانها قرب النافذة ترنو إلى طفليها، تنتابها رغبة هائلة في إيقاظ آلاء والاعتذار لها، أن تعانقها بشدة حتى تتلاشى داخل ضلوعها. وذابت سيجارتها فأشعلت أخرى دون أن تبارح مكانها، وعلى الرغم من كونها لا تدخن إلا في مناسبات نادرة، إلا أنها أتت على العلبة، وصعدت الشمس من خلف البنايات، وقبل أن تحترق سيجارتها الأخيرة كانت قد اتخذت قرارها، ستعود بالأولاد إلى بيت داود، ستوقظ آلاء وتعانقها ثم تبشرها وهي تمطرها بالقبلات أنهم سيرجعون إلى جنتها الصغيرة، وفي تلك اللحظة بالذات فتحت فايزة باب الحجرة ووقفت على عتبتها، طويلة، بدينة، صدرها الضخم يبين متهدلًا عبر جلبابها المنزلي، ولاح على ملامحها امتعاض ممزوج بالاستنكار.

- إيه القرف ده يا نجوى؟ وفي الأوضة وعيالك نايمين فيها؟ بتدخني وجوزك جتته مبردتش لسة؟

استيقظت آلاء على وقع صوت جدتها، واعتدلت في الفراش تفرك عينيها وتتلفت حولها، غير مدركة لمكانها، ألقت نجوى بعقب سيجارتها من النافذة ونزلت من على المكتب وقد تبدلت ملامحها من الحزن إلى شخط، توجهت بالكلام إلى آلاء متجاهلة أمها:

- يلا يا آلاء قومي خشي الحمام واغسلي وشك، حنرجع بيتنا.

أعاد قول نجوى لآلاء ذكريات الأمس دفقة واحدة، وأدركت أنها في بيت جدتها، وها هي أمها تبشرها بالعودة، وثبت من على الفراش وقد غمرتها سعادة بالغة، وكأن الأمس كله لم يكن، ركضت نحو نجوى فاتحة ذراعيها الصغيرتين على آخرهما حتى ضمتهما بشدة حول جذع نجوى وهي تقول:

- شكرًا يا ماما شكرًا أوي، أنا بحبك.

حملتها نجوى، عانقتها، ضغطت جسدها الصغير إلى صدرها، وقبلت رأسها، وكفيها، لكم تتمنى لو بإمكانها أن تمحي ذكريات ما حصل البارحة عن رأسها الصغير البريء. وإذ بيوسف يستيقظ باكيًا، تخطو فايزة نحو الفراش بخطوات غاضبة، تجلس على طرفه، ثم تحمل يوسف على ذراعيها تهدهده وهي تزعق:

- تروحوا فين يا نجوى؟ ومالك فرحانة كدة يا بت يا آلاء؟ أنتي مش بتحبي تقعدي عندي؟

خبأت آلاء وجهها داخل صدر أمها دون أن ترد، وردت نجوى:

- معلش يا ماما لا احنا ولا أنت حنرتاح في الوضع ده..

- وضع إيه وخرا إيه يا نجوى؟ أنتي أرملة دلوقت، ملكيش قعاد في بيت لوحدك! عاوزة تمشي على حل شعرك وتنفخي في سجاير قصاد عيالك! كنتي متجوزة وبتدخني مع جوزك وقلنا ماشي، إنما دلوقت خلاص جوزك مات وبقى فيه حسابات تانيه، مانتيش ماشية من البيت، على جثتي!

تركت نجوى، آلاء تنزل عنها، ثم ربتت على ظهرها بحنو وهي تقول لها متجاهلة فايزة:

- اجري خشي الحمام يا آلاء علشان نمشي دلوقت.

وما إن غادرت آلاء الغرفة ركضًا حتى تطلعت إلى أمها بوجه يكسوه انفعال كالبركان، وصاحت فيها:

- أمشي على حل شعري يا ماما؟ ده كلام تقوليه قدام العيال؟ أنا ماشية واللي عندك اعمليه!

تركت فايزة يوسف على الفراش، ونهضت بجسد يرتجف غضبًا، تبادل نجوى صياحًا بصياح:

- اللي عندي أعمله يا حيوانة يا بنت الكلب؟ بتقولي الكلام ده لأمك؟ ابقي شوفي بكره عيالك حيعملوا فيكي إيه، غوري في ستين ألف داهية، بس اعرفي إنك لو خرجتي من البيت هنا، ملكيش أم يا نجوى، أمك ماتت ماشي؟

قالتها ثم انطلقت ترتج الألواح الخشبية لأرضية الغرفة أسفل قدميها حتى غيبها الدهليز المفضي إلى الصالة.

حين ظهروا في الصالة، نجوى وآلاء ويوسف الصغير محمولاً على ذراع أمه، تشدان حقائبهم من خلفهما، كانت فايزة تجلس مكورة جسدها على الأريكة المواجهة لباب الشقة، وقد دفنت رأسها الملفوف بإيشارب منزلي ملون بين كفيها وجسدها يرتجف بالبكاء، تجاهلتها نجوى وفتحت الباب، تركت آلاء تخرج منه وهي تجر حقيبتها ثم خرجت خلفها وأغلقت الباب.

وكما حدث الليلة الماضية، عادوا إلى بيت داود تجران حقائبهم، لكن تلك المرة كانت آلاء سعيدة لا تهمها مشقة نقل الحقيبة في شيء ما دامت عائدة إلى بيت داود، وأما نجوى فقد داهمها شعور ثقيل بأن ما تسوقه من ورائها ما هو إلا جثة كرم.

2

أبريل 2018

مصطفى على الطريق.

داخل عقلي ثقب أو فراغ، سيان، المهم أنه أشد ظُلمة من ليل الصحراء، أشد ظُلمة من ليالي الأرض قبل أن يخترع الإنسان الكهرباء، أفكاري تتخبط داخله كفيفة فلا تبلغ وجهة، وسرعان ما تتصادم منفجرة إلى شذرات حادة هي التي تُعمل برأسي ذلك الصداع الهائل. تلك الفتاة ليست مراهقة، وهي في الحقيقة امرأة على مشارف الكهولة، أنظر إليها فلا أرى في ملامحها وتكوين جسدها إلا مراهقة تخطت عمر الطفولة للتو. والطريق يمضي مرتجفًا تحت تأثير المصابيح الكهربائية تمطره أنوار صفراء. لقد مات بابا وقد عرف قبلها كيف يحيا، فلا حزن عليه ولا ندم على مفارقته ما يربو عن العشرين عامًا، لأن حياته كانت أفضل دون وجودي، وقد فعلتها الطبيعة معنا فخلقت من صلبه صورة مخالفة لطبيعته، نبتًا شيطانيًا، وعلى النبت الشيطاني أن يرحل لأن وجوده شذوذ ظاهر يشوه الصورة، وهناك بالخارج كان ولا يزال لي عائلة بديلة، فلا حزن ولا ندم.

وهي ابنة كرم إذًا، ويبدو لي أنها مُختلفة عنهم، فهل هذا حق؟ هل تتقبل زرعًا شيطانيًا؟ شيت! لقد نسيت أن المطبات الصناعية في مصر ليست كلها مُلونة بالطلاء الفسفوري الذي يمكن السائق من ملاحظتها، غمغمت اعتذارًا ولكنها كانت مشغولة بلم الصور التي تبعثرت على أرضية السيارة، تلك الصور تختزل حياة كاملة، إلا أنه اختصار مُخل، كل تلك الابتسامات الواسعة، تلك الوجوه الضاحكة، البحر والمنتزة والكابينة واللوكاندة وبيت داود، فأين الألم؟ أين الحزن والعراك والأوجه تفيض غضبًا والأصوات تنجرح منها الحناجر؟ ها هو داود سري الجن يجالس شريكه اليوناني والفرحة تعلو وجهيهما، وفي الخلف بإمكانك أن ترى الجدران العريقة للفندق الذي يُذكر بأمجاد خلت، وتُلتقط الصورة وترحل الابتسامات الزائفة، وتظهر الوجوه الحقيقية، غاضبة، حانقة، وحاقدة، فيقول داود إن خريستوفيدس يسرقه عيانًا بيانًا، وها هي الأرباح تتضاءل منذ تسلمت الإدارة أيها اليوناني النصاب اللص، إنك تخسف بالمتروبول الأرض في مقابل أن تعلو بفندق ريم إلى السماء لأنك تمتلكه وحدك، ألا تدري يا غبي أنني أفهم خطتك السخيفة؟ تريد أن تقلل من قيمة الفندق فأنسحب من الشراكة وأتركه لك لقمة سائغة! هذا في أحلامك!

ويأتي حامل الكاميرا، ويقول «اضحكوا!» وتختفي طبقات الكراهية أسفل الوجوه الزائفة التي لا يخلد الزمن إلاها!

وهي ابنة كرم إذًا، ويبدو لي أنها مُختلفة عنهم، فهل هذا حق؟ هل تتقبل زرعًا شيطانيًا؟ وخلال جلستنا مع الشاب لاحظت نظرات متبادلة بينها وبين الشاب، ما الذي كان يعنيه ذلك؟ هل كانوا يتلمزون عليَ! لاحظت أنها تنظر إلى واحدة من الصور، فأضأت لها نور السيارة وتلك فرصة أتصفح فيها ملامحها علّني أستشف إلى أين يتجه تيار أفكارها، إلا أن ملامحها لا تشف عن شيء، بوكر فيس كما يقول الكتاب! من هي آلاء يا ترى؟ على أي حال شكلتها الدنيا؟

3

ديسمبر 2010

آلاء كرم، الإسكندرية، سبورتنج.

أصحاب الكلية.

مرت سنوات عدة دون أن التقي بهم، منذ ضربنا وباء الزواج واحدة وراء الأخرى كأنه ماراثون من نوع ما، تبعه وباء الإنجاب، طفل وراء الآخر استكمالًا لماراثون عجزت أنا عن مجاراته. لا أنسى ماما بعد مرور سنة على زواجي دون إنجاب وهي تهمس لي عبر الهاتف:

- اتأكدي إنه جابهم جواكي، وأنتي تبقي نايمة على ضهرك وهو اللي فوق، لما يخلص متقوميش من مكانك ولا تخشي تستحمي، خليكي على ضهرك نص ساعة، فاهماني؟ ألو، ألو، آلاء روحتي فين؟

كنت مصدومة، ذاهلة، عاجزة عن النطق، لا أكاد أصدق أن تلك الكلمات خرجت بالفعل من فم أمي! تلك المرأة التي خجلت من أن تحدثني عن الدورة الشهرية، وخجلت بدوري أن أزف عليها خبر بلوغي، فتركت لها البانتي مصبوغًا بدماء دورتي الشهرية الأولى، رسالة صامتة داخل الحمام، ردت عليها بترك علبة الأولويز على طرف البانيو، هي نفس المرأة التي لم تجرؤ على الاتصال بي يوم الصباحية تجنبًا للأسئلة الجنسية المعتادة في تلك الظروف. ربما كانت رغبتها في الأحفاد قوية إلى درجة أن ضغطت على نفسها كي تقول تلك الكلمات، التي كنت واثقة أنها تدربت على قولها أيامًا قبل أن تتمكن من النطق بها، كنت أعرف أن الموقف صعب عليها كما هو عليّ، غمغمت بالموافقة وأغلقنا السماعة بسرعة مثل عاشقين مارسا جنسًا مسروقًا أورث كليهما شعورًا بالعار، وما إن انتهيا منه حتى هرول كل منهما خروجًا من الفراش دون أن تلتقي الأعين.

زززقت رشا مولودًا جديدًا، ولم يكن ذلك تحديدًا هو سبب تجمعنا عقب كل تلك السنوات، شاءت الصدف السعيدة أن يتزامن ميلاد الطفل مع عطلة المغتربين من الأصحاب، جاءت سلوى من دبي، ومي من أمريكا وزينب من الكويت، ورشا نفسها تركت السعودية قبل شهرها السابع لتضع مولودها بالقرب من أمها. كانت تلك فرصة نادرة عجزنا عن تصديق كونها تتحقق بالفعل، منذ هاجرن واحدة وراء الأخرى لم يحصل أن جمعنا مكان واحد، أو جمعتهن عطلة واحدة.

شقة رشا لا تزال بها رائحة الأماكن الوليدة، ظلت مغلقة لا تستخدم إلا نادرًا مذ تزوجت،

دأبت أمها كل شهر على فتح الشقة ومطاردة ذرات التراب المتسللة إليها رغم كل التأمينات، الشبابيك تُغلق بإحكام وتُغلف بالمشمع، المفروشات كلها تُغطى أيضًا بالمشمع، وتأمينات أخرى عرفت عنها من خلال نصائح رشا على جروب الواتس آب، لكل واحدة منهن تستعد هي أيضًا للهجرة، كانت رشا هي أول طيورنا المهاجرة.

مرت نصف ساعة ونحن لا نزال نتبادل العناق والقبلات على باب الشقة، كنت أتساءل عن كيفية احتفاظ عفش رشا برائحة الخشب الطازج رغم مرور كل تلك السنوات، بينما تراجعت سلوى عن عناقي وتطلعت إلى وجهي متسائلة:

- أنتي مين؟

جفلت للحظة وقد هيئ لي أن اسمي قد انزلق بالفعل عن ذاكرتي، وللحظة أخرى شعرت أن سلوى نسيتني، ثم للحظة ثالثة أحسست أنني جئت في المكان الخطأ وأردت أن أتأكد من وجوه أصحابي، ويبدو أنني كنت بالفعل أدير رأسي بينهن حائرة، حتى فوجئت بأنف سلوى يقترب من عنقي، تستنشقه بصوت كاريكاتوري مسموع «شمممشمممم» قبل أن تصدح قائلة:

- آلاء راشه برفيوم؟ الله الله، دا احنا اتغيرنا خالص، وياسين عارف بالكلام ده؟ استني استني...

ومررت طرف أصبعها على شفتي فخرج مصبوغًا بلون وردي:

- أحيه وروج كمان، مش حرام ده يا شيخة آلاء؟

قالتها وهي تتطلع في وجوه الأصحاب يشاركنها الضحك والاستغراب من التغير الذي ألمّ بي، وانتابني حرجٌ هائل لا أدري تحديدًا مصدره، ليس التطيب وأدوات الماكياج مما يثير الحرج لدى الإنسان في العادة. لقد اعتملت في نفسي نشوة لقاء الصحاب بعد طول غياب، حتى تخيرت أفضل ما في دولابي من ملابس، تطيبت على غير عادتي ووضعت روجًا. أو لا.. لم يكن الأمر كذلك، الحق أنني كنت خائفة، خشيت بشدة أن يعكس مظهري حالتي المادية المتقشفة أمام أصحابي، تواريت خلف البرفيوم والروج، خجلًا وشفقة من أن ينفضح لهم وضعي، وربما كان الأمرين معًا. تركنا أنا وياسين شقة يوسف إلى حجرة أبي القديمة في بيت داود، ذهب راتبي وتعسرت الحياة إلى حد التقشف، ياسين كان يتكفل ماديًا بطفل يعيش في ملجأ ولم يقبل أن يوقف كفالته الشهرية رغم انحدار أحوالنا المادية، وحين قلت له أن يوقف الدعم مؤقتًا إلى أن أعثر على عمل وتعود أحوالنا إلى التحسن، قال إن الحسنة بعشر أمثالها، وإن ما ينفقه على الطفل سيرجع لنا أضعافًا مضاعفة، وأوصاني بالصبر، فصبرت! أشعرني تعريضهن بي أن سترًا حرصت عليه، تهتّك، وسارع عقلي يبحث عن حيلة

تشتتهن عن ذلك الموضوع:

- سمعتوا عن حوار بوعزيزي؟

- مين ده؟ شيخ جديد طلع فتوى إن الروج والبرفيوم حلال؟

ضَجَجْنَ في الضحك، بينما انتقلنا من مدخل الشقة إلى الصالون. أجلسن الأطفال في الصالة أمام أفلام الكارتون، وهن يتندّرن عليّ بينما أحاول تغيير مجرى الكلام إلى الأحداث التي تجري في تونس حتى انتبهن أخيرًا دون اهتمام حقيقي بالأمر، حكيت لهن عن إضرام بوعزيزي النار في نفسه، والثورة التي اندلعت في تونس على إثر الحادث، الوقفة الصامتة التي نظمتها صفحة «كلنا خالد سعيد» منذ عدة أشهر، وعن خالد سعيد نفسه! لم تكن لديهن أدنى فكرة عن الأحداث ولا عجب، إذ إننا لا نلبث نندمج في الكلام حول أمر ما حتى يقاطعنا أحد الأطفال يبكي، وآخر عاوز بي بي وثالث لوّث حفاضته، واثنان يتشاجران إما بسبب لعبة أو كارتون لا يرغب أحدهما في مشاهدته. أشعر بأعصابي تتوتر، ويتصاعد داخلي قلق نابع من ذلك الصخب الذي لم أكن معتادة عليه، حياتي في الأغلب الأعم هادئة ما بين بيت صامت وعمل ممنوع فيه الكلام. خفتت رغبتي في الحكي وباخت مشاعري وانفلتت أفكاري بعيدًا عنهن، حيث إن مجرى الحوار راح يتحرك ما بين المدارس وأنواع الحفاضات وطرق التربية الحديثة، والحياة تدور دورتها هؤلاء أصحابي كُنّ بالأمس القريب ينفجرن حياة وآمالًا عِظامًا، الحب، القصص الرومانسية الساخنة، العمل، النجاح الباهر والريادة، هل نفتح مكتب جرافيكس سويًا بعد التخرج؟ اخترنا اسمًا للمكتب وصممنا اللوجو، والحياة لا تندفع إلا في طريق الحفاظ على النوع، هدفها الأسمى، تتحول البنات إلى مرضعات، يتبعن خطوات أزواجهن إلى الغربة حيث ينشغلن بالولادة والتربية دون أن تتاح لهن فرصة البحث عن عمل، سألتني مي فجأة:

- يا آلاء، أنتي سيبتي المكتبة فعلًا؟

- أيوه!

تدخلت زينب في الحوار متسائلة:

- إيه ده سبتي المكتبة ليه؟ أمال رحتي فين دلوقت؟

- بدور على شغل..

عادت مي تقول:

- طب ليه يا بنتي تسيبي شغلك من غير ما تلاقي شغل غيره! إيه اللي حصل؟

رأيت في عيونهن سؤالًا غير منطوق حول ما أفعله بحياتي إن كنت لا أعمل ولم أنجب، وشرعت أقص عليهن الموقف، إلا أنني خجلت من جزئية إرسال الميل لنفسي فكذبت زاعمة أنهم وضعوني بين المتهمين خطأ، انقطع كلامي قبل أن أنتهي إلى قصة الاستقالة المسببة التي ساعدني داود على صياغتها، على أثر ارتفاع بكاء طفل في الداخل فهرولن يستطلعن الأمر. خلا الصالون فجأة، إلا مني أنا ورشا نتبادل نظرات مُرتبكة، عقلي يبحث عن موضوع أفتحه معها، سألت سؤالًا مرتبكًا لا تهمني حقًا إجابته عن شعور أولادها الأكبر بالمولود الجديد، الذي ما إن أتى ذكره حتى ارتفع بكاؤه فتبادلنا ضحكات بينما رفعته هي على صدرها ترضعه بعد أن غطت نفسها بغطاء مخصص للرضاعة.

على طاولة العشاء صار الوضع أكثر فوضوية، شعرت أنني أنا الوحيدة التي تتناول طعامها حقًا، لا تكاد واحدة منهن تتناول لقمة حتى يقاطعها طفلٌ من أبنائها، يبكي أو يرغب في شيء أو يصرخ معترضًا. وانفجرت الحوادث على طاولة الأطفال، طفل يقلب طبق طعامه، وآخر يدلق كوب العصير، والاعتذارات تنهال من هنا وهناك تباعًا لرشا التي انقلب منزلها زريبة، وهي تبتسم وتهش كفها في الهواء أن لا عليكن، هكذا هم الأطفال. شعرت أن رائحة العفش الجديد ضاعت أو ربما طغت عليها رائحة الطعام. انتهيت من طعامي بينما لم يكدن يتناولن شيئًا بعد، استأذنت إلى الحمام ونهضت بينما يغبطنني على راحة البال، ويوصينني أن أستمتع بها قبل أن تهل العيال وتنقلب حياتي مثلهن رأسًا على عقب، فلا أسمع عن خالد سعيد ولا بو كان اسمه بوغازي باين؟ سألن ضاحكات، وأنا أصحح لهن الاسم دون أن تلتقطه أي أذن في خضم الفوضى والضجيج. ذهبت أتوضأ وانتظرتهن نصلي المغرب جماعة، فلحقنا به قبل أذان العشاء بدقائق قليلة.

عقب الصلاة، هدأ الجو بعض الشيء، نام بعض الأطفال فقمن برصهم متجاورين على فراش رشا في حجرة النوم الرئيسية، ووضعن المتبقين أمام كارتون في حجرة المعيشة، وخرجت رشا من المطبخ إلى الصالون حيث نجلس تحمل صينية الشاي، في خضم الهدوء الجزئي تبرعت بإجابة التساؤلات التي أدرك جيدًا أنها تساورهن ولا يجرؤن على قولها:

- كشفت نسا آه، وياسين كمان كشف، كل الدكاترة قالوا إن لا أنا ولا هو عندنا أي موانع، قالوا مسألة وقت!

وانهالت عليّ تعليقات بعضها عن الرزق الذي سوف يأتي في موعده، وبعضها الآخر عن راحة البال ومشقة تربية العيال، أكدت عليهن أن الأمر لا يشغلني على الإطلاق، ولم يكن يشغلني بحق، يكفي أنا أراهن على تلك الحالة حتى أكره الإنجاب والأطفال على السواء، أي عاقل قد يرغب في حياة كتلك؟ والبنون زينة الحياة الدنيا كما قال لنا الله، فلمَ لا أراها زينة

ولا أحس داخلي بتلك الرغبة الفطرية في الأمومة تلك التي طالما سمعت وقرأت عنها، فهل بي عطب ما! ينتابني شعور بالذنب سرعان ما يخمد حين أتذكر تذبذب حياتنا المادية أنا وياسين، وهل ننجب طفلًا لا مأوى له إلى حجرة بائسة في بيت جدي؟ إن الله يعرف أننا لسنا مؤهلين لمحنة أو منحة مثل تلك في الوقت الحالي! نعم هو أعلى وأعلم. كان مجرى الحديث قد طار إلى مخاوف مي من تربية أبنائها في أمريكا، وانفصلت عنهن، يتساءل عقلي: وما الذي ترغبين فيه إذًا يا مسكينة! لا أنت ثابتة على الصراط بين ركب السائرين إلى نعيم الآخرة ولا أنت بين الباحثين عنه في الحياة الدنيا! وما الحياة التي ترغبين فيها إذًا يا آلاء؟

4

أبريل 2018

مصطفى على الطريق.

عليك ألا تكره نفسك، إياك أن تنسى ذلك ولو للحظة! مالك منذ وطأت قدماك البيت القديم وأنت ترتد إلى صورتك الأولى؟ لقد خُضت جلسات طويلة، مرهقة، حتى تبلغ من ذاتك قبولًا، فهل تنتكس الآن؟ ترى ما الذي تقوله لها نجوى عني الآن؟ إنها تكذب على أمها فتقول إننا بلغنا منتصف الطريق إلى الإسكندرية، نعم يا صغيرة الكذب مَنجٌ أحيانًا! وهي لا تغطي شعرها،ثَمَّة أمل أن تحظى لديها بالقبول! وقالت لك الطبيبة ألا تنتظر من أي كائن في العالم مهما يكن القبول، إن عرفت كيف تتقبل ذاتك فقد نجوت. وهي طبيبة ممتازة ولكنها لم تجرب الحياة في مصر ولا تعلم عن ذلك شيئًا وليس من سمع كمن عاش!

نعمة لم تواجهني يومًا وإن رأيت في نظرات عينيها انكسارًا لم يؤلمني من حياتي شيء مثله! تسألني متى أتزوج، في الجوابات التي كنا نتبادلها سرًا دون علم داود، أرسلها لها على عنوان ربيع وتعطيه هي الجواب يرسله لي، هل يعد ذلك إنكارًا أم أنها فعلًا لم تفهم شيئًا؟ ماذا قال لها بابا عني يا ترى؟ وماذا كتب كرم عني في تلك المذكرات التي صارت جزءًا من كتاب!

صوت نجوى ينز داخل فضاء السيارة ولا تصلني الكلمات واضحة أحاول تبينها حين تتصل بي نعمة، تسألني متى نصل؟ وفيمَ كان سفرنا؟ أخبرها أن ننتظر عودتنا فنحكي، لا أريد لها أن تعلم شيئًا عن ذلك الكتاب، لا هي ولا صالح. أعود إلى محاولة تبين كلمات نجوى فأشرد عن مكالمة نعمة التي تنادي عليّ: ألو، ألو يا مصطفى! أضع في نبرة صوتي حنانًا وفي كلماتي ذكر الله لتطمئن قبل أن أغلق معها الخط.

ربما سيجارة تذهب عن رأسي بعض ذلك الصداع الثقيل، نعم لقد تذكرت الآن لقد رأيتها وهي تفعص سيجارتها خارج المقهى، وكانت قد قالت إنها ذاهبة إلى الحمام، إنها تخشاك كما تخشاها، كيف لم تلحظ ذلك قبلًا أيها الأحمق!

عرضت عليها سيجارة فقالت لا! فسألتها ألا تدخن؟ لمَ لا تكشفين أوراقك أيتها الصغيرة، وأكشف لك أوراقي ونتخلى عن الخوف تاركين إياه على قارعة الطريق الصحراوي فلا يلحق بنا إلى الإسكندرية! ويسألنا الشاب لو نوافق على نشر غسيلنا الوسخ، هه ولمَ لا؟ قد يكون فيه شفاء إن قُرئ، الصدمة هي خير دواء للناس، لكن ماذا كتب كرم عني؟ وحين تدعي الفتاة أنها ذاهبة إلى الحمام فيما هي في الحقيقة تدخن خارج المقهى، يغريني الشاب بأن

نسبة من عائد الكتاب سوف تكون من حق الأسرة، وهل تباع الكتب أصلًا حتى نربح من ذلك مليمًا؟ وكم يتبقى من تلك النقود إن وزعت علينا جميعًا! الوضع الأمثل هو أن نعطيه الموافقة مباشرة دون أن نرجع لصالح، فإن نجح الكتاب وبيع، وتمخض الأمر عن بضع جنيهات، تكون من نصيبي أنا وهي. ما الداعي أصلًا لأن يعرف شيئًا؟ يعيش داخل عالمه الصغير فلن يدري عن الكتاب شيئًا، وهو الذي لم يقرأ في حياته إلا كتب المدرسة والجامعة! هل توافق الفتاة على ذلك؟ قالت إن مذكرات كرم بحوزتها، والآن نجوى تعرف أيضًا عن المذكرات! هل تسمح لي ابنة كرم بقراءتها قبل أي شخص آخر، فأحذف منها ما يخصني وحدي، وما قد يؤجج نيرانًا أو يسوء أمي، ترى هل قرأتها هي؟ ماذا عرفت منها، أود أن أسألها لكن عليّ أن أسعى لإذابة الجليد بيننا أولًا، أن أجعلها تثق فيّ لأتمكن من بلوغ اتفاق مناسب وهادئ معها، ولا بد من أن يتم ذلك قبل أن تبلغ الإسكندرية! هل تخاف حقيقتك يا مصطفى؟ لا، لا لست خائفًا كفاني خوفًا! ولكنني أخشى على نعمة من أن تمسها النيران إن اشتعلت في البيت القديم، أحب أن تحظى بسنوات أخيرة هادئة، راقبتها تتصفح الصور بلا تعبير واضح فسألتها أحاول فتح تيار الكلام فيما بيننا:

- عرفتيني في الصور؟

ولم تعقب ولفنا صمت له غرابة ملموسة، فقلت كاسرًا لزوجة الصمت المريب:

- الواد أبو شعر مسبسب وعيون ملونة..

مرة أخرى لا أجد منها إلا صمتًا، ثم ها هي تشعل سيجارة، هل عرفت عني شيئًا إذًا يجعلها راغبة عن التواصل معي؟ ولم اخترت أم كلثوم يصحبنا صوتها داخل السيارة! إنها تمنح الطريق مذاقًا كئيبًا سوداويًا، وسألتها عما تحب أن تسمع لربما وجدت منفذًا إليه، فقالت لامبالية: أم كلثوم، فصار من العسير الآن أن أغير الأغنية إلى شيء آخر يبث فينا بعض الحياة، وسألتني عن نور السيارة لو كان يضايقني واستغربت السؤال، هل تمنحني مدخلًا لها أم أنه بدافع التهذيب ولا أكثر من ذلك. شهقت فجأة، فجفلت وحين انتفضت أسألها عما حصل اعتذرت ثم ناولتني الصورة التي لطالما كانت غذاء كوابيس طفولتي، تسألني عن الصورة! يا الله يا ليتني لا أعرف يا ست! لا سامح الله أفعال الآباء بأبنائهم، وقلت عادة غريبة للناس زمان، وما هي بعادة ولا شيء، إنما هي انعكاس لومضات الجنون التي تتميز بها أسرتنا الكريمة، فهل يا ترى ورثتِ شيئًا من تلك النزعة الجنونية؟

5

ديسمبر1977

مصطفى وكرم داود، شط سبورتنج.

سحابات رمادية ثقيلة تتكاثف في غنج على مد البصر قريبًا جدًا من سطح البحر ثم لا تتقدم بعد ذلك خطوة، تثرثر فيما بينها وهي تدعي أنها لا تلحظ كم يشتهيها البحر، يمد أمواجه عاليًا جدًا حتى يكاد يلمسها فتهزمه الجاذبية ولا تعينه السحابات -المترفعة- على أمرها، وهو لا يستسلم أبدًا، لعبة المطاردة الأبدية بين السماء والأرض، بين الذكر والأنثى، إنها الهرمونات.. خطة الكون الخبيثة التي تذل الكائنات لأجل هدف واحد، وهو استمرار النوع. يراقب مصطفى المشهد مستسلمًا إلى حيرة تكاد تفتك برأسه عن شيء غير مفهوم يعتمل عميقًا داخل جسده دون أن يفصح له عن مخبره، إنه لا يتمكن من التواصل مع أصحابه، لا يفهمهم، يدعي أنه يفهم ويحس ما يحسون به إلى أن يؤلمه الادعاء، تمتلئ نفسه نفورًا وامتعاضًا من نفسه ومنهم. أما أصحاب كرم، فلا يعيرونه انتباهًا، التواجد بينهم أخف وطأة، يستأثر كرم بالانتباه هنا ومصطفى ما هو إلا أخوه الصغير الملتصق بهم لغير سبب واضح، إلا أنهم يتركونه لفائدته من الناحية المادية، فهو أشد كرمًا من أخيه وكثيرًا ما يبارك الشلة بهداياه القيمة، وهو يعشق الحشيش فلا يبخل عليهم ولا على نفسه به أبدًا!

الجريدة مفروشة فوق الرمال بين قدميه، وفوقها كيس التبغ وأصابع الحشيش والولاعة وورق البفرة، يقتطع جزءًا من الحشيش ثم يرفعه فيمرر عليه الولاعة، ثم يفركه فوق كومة مناسبة من التبغ، يلف سيجارة وراء أخرى، يرصها متجاورة على الجريدة، نعم الميزة الأهم لتواجد مصطفى بينهم هي مهارته في لف سجائر الحشيش. إلى يمينه كرم ممددًا على الرمال الباردة، يبدو رائقًا لا يحمل همًا، تنعقد فوق رأسه سحابات سيجارته ثم سرعان ما تبتلعها الظُّلمة، وعلى بعد خطوات على حافة البحر يقف ربيع بجسمه الممشوق وقامته الطويلة، مشمرًا سرواله حتى ركبته ممسكًا بغصن رفيع بني كلون ساقيه، يقلب به كائنًا شفافًا نافقًا ألقى به حظه التعس إلى ذلك الشط ليلفظ أنفاسه الأخيرة، فما الحظ وكيف تُقسم الأرزاق!

وقطع أحمد فرج تيار أفكاره قائلًا لربيع بصوته الأجش:

- لما بتموت السائل بتاعها بيتسرب منها، حتتلسع..

ولم يعِره ربيع اهتمامًا، استمر يقلب الجسد النافق بعصاه متأملًا باستغراب الكائن الشبيه بالكيس البلاستيكي، أين فمه؟ كيف يأكل؟ ثم كيف يتكاثر يا ترى؟ أين هي أعضاؤه

التناسلية؟ ورفع صوته بالسؤال الأخير فقال إسماعيل:

- بسلة.

- زبك يعني!

نبح بها أحمد فرج لإسماعيل فضجوا جميعًا بالضحك، بينما يحاول إسماعيل رد الإهانة بأخرى أشد ولكن صوت الضحكات يعلو على صوته، وألقى ربيع بعصاه على الرمل ثم ابتعد متوجهًا نحو مصطفى، فأخذ سيجارة جديدة ثم تهاوى بجسده على الرمال وهو يقول ضاحكًا:

- حلو الاكتفاء الذاتي يا إسماعيل متزعلش يا حبيبي..

ومرة أخرى يعجز إسماعيل عن الرد إذ يقاطعه فرج قائلًا:

- عارفين جبت إيه من آخر طلعة؟

تطلعوا إليه جميعًا في اهتمام وتساؤل فسكت لحظات منتشيًا بالاستئثار على انتباه أصحابه، يمط جسده القصير اللحيم، فيظهر من خلال قميصه ثديان صغيران وبطن مدوّر، دفع إسماعيل بكفه داخل الرمال ينثرها عليه وهو يقول بنفاد صبر:

- ما تنجز يا خول!

فشاط فرج بقدمه الرمال تجاه إسماعيل انتقامًا وهو يبصق رمالًا عن فيه، ومصطفى يثني الجريدة حتى لا تتناثر الرمال داخلها مختلطة بالتبغ، صرخ فيهم كرم:

- بطلوا يا متخلفين، حندخنوا رمله من تحت راسكم!

وسأل ربيع يعيدهم إلى ما كانوا فيه:

- ما تقول يا فرج جبت إيه؟

- كلوت حريمي!

قالها بفخار وتطلع إليه مصطفى باهتمام، إنه مما يستحق التجربة ما دامت كل المجلات والصور وحتى المانيكانات لم تنفع معه، وسألوه داهشين من أين أتى بالكلوت؟ فقال إنه سرقه من العاهرة، وكان الوحيد بينهم الذي خاض تلك التجربة عدة مرات، في واحد من البيوت الرخيصة المتبقية بشارع تانيس في منطقة كامب شيزار، واتهموه بالكذب فنهض من مكانه وانتصب أمامهم ثم وبحركة مسرحية سحب من جيب سرواله «غيار داخلي حريمي أحمر» من الدانتيلا عارضًا إياه أمام أعينهم النهمة، وأمعنت الشحب في تمنعها فأطلقت

شرارة برق تجاه الموج الذي كادت أصابعه تلامس ثنياتها الشهية، فقال إسماعيل بهلع:

- دخل السجاير في العلبة بسرعة يا مصطفى، الدنيا حتشتي!

واعتدل كرم جالسًا فمد يده إلى جيبه وأخرج علبة سجائر معدنية قديمة، فتحها وبدأ يرص داخلها السجائر التي انتهى مصطفى من لفها وهو يقول:

- لا كمل أنت بس علشان تخلص قبل ما تشتي، فاضل كتير؟

- لا هي حتة صغيرة تعمل سجارتين كمان..

- طب انجز..

وتبع البرقُ رعدٌ فبدا في أذني مصطفى لحن جميل يحاكي الصخب داخل رأسه، ودس كرم العلبة المعدنية في جيبه ثم اقترب من الجريدة التي يعمل عليها مصطفى، فبدأ يلف السيجارة الأخيرة قبل أن ينهمر المطر ويُفسد عليهم الحشيش. وأما إسماعيل ففتح كيسًا ثم فض ورق السوليفان بأطراف أصابعه، فانبعثت الرائحة الشهية للبطاطا المشوية مختلطة برائحة برد الشتاء ويود البحر والحشيش، وتحركت الأمعاء وانضم فرج وربيع إلى إسماعيل يتخطفون البطاطا من الكيس ويأكلون في نهم وهم يصدرون أصوات الاستمتاع بالطعام شبيهة بتأوهات الجنس، قال كرم وهو يكاد ينتهي من لف السيجارة بين أصابعه:

- وحياة أبوك أنت وهو لو خلصتوها لاعبيهالكوا بالرملة!

وأشعل مصطفى السيجارة التي انتهى منها للتو، ثم أغلق كيس التبغ ودسه في حقيبة جلدية صغيرة معلقة على كتفه، وطوى الجريدة فوضعها أيضًا بالحقيبة، ثم قام وانضم إلى الشباب يأخذ من البطاطا قبل أن يأتوا عليها، ، وانضم إليهم كرم فلم يجد إلا واحدة متبقية في الكيس فأخذها وهو يسب طفاسة أصحابه، وانضم إليهم كرم فلم يجد إلا واحدة متبقية في الكيس فأخذها وهو يسب طفاسة أصحابه، بينما سحب ربيع السيجارة التي لفها للتو من بين أصابعه، وبرقت السماء ثم فرقع الرعد، وبدا لهم العالم أسطوريًا حالمًا وتمدد ربيع على الرمال الباردة وقد أشعل السيجارة، فجاء إسماعيل وتمدد جواره وتبادلوا السيجارة، وقام فرج من مجلسه فمشى تجاه البحر ووقف على حافته ثم بدأ يمرر كفه على عضوه المنتصب مهلًا في البداية ثم مدفوعًا بقوة النشوة وهو يتأوه غير عابئ بأصحابه الذين ضجوا بالضحك، وفتح سوستة سرواله وأزاح حاجز الكلوت الأبيض فأخرج عضوه إلى الهواء العاصف موجهًا إياه نحو البحر، وعلت تأوهاته ومضغ مصطفى البطاطا ببطء شديد وهو يشعر بتلك الحركة الخفيفة للكائنات الصغيرة التي أخذت تصحو داخله، ومضى الشباب ينضمون إلى فرج واحدًا بعد آخر، وهو يبالغ في بطء إنهاء وجبته، ويتطلع إلى كرم الذي بدا

متوحدًا مع البطاطا في عالم خاص بهم، وهو لا يريد أن يرى أخاه يفعل ذلك لا يريد أن ينضم إليهم أخوه، ولم يقلق؟ ليس هنا نساء ولا مجلات وها هم جميعًا يستمنون، لا لوم عليه ولا خوف من افتضاح مكنونه الحقيقي، وأراد أن يسبق أخاه في الانضمام إليهم خوفًا من أن يفقد انتصابه، فذهب وجاورهم ولمس ذكره بحنو بالغ، وأنصت إلى مباراة التأوهات، ونقض العهد غير المعلن بينهم، فاختلس نظرات سريعة نحو ذكورهم، واكتمل انتصابه وأغمض عينيه على صورة ذكر ربيع الأسود الضخم، وانضم كرم إلى الصف دون أن ينتبه إليه مصطفى الغائب في نشوته، وانهمر المطر فوق رؤوسهم، وعلت التأوهات وتمازجت، وتدافعت الأمواج تتبارى في مقدار ما تبلغه من ارتفاع، وتلاطمت تنثر عليهم أطنانًا من الماء المالح، وفار المني يخالط ماء البحر.

6

يناير 1977

نعمة، بيت داود.

نعمة تقف على باب الحمام في جلابية بيتي رمادية مزركشة بورود حمراء، وقد ربطت إيشاربًا صغيرًا على شعرها. في الداخل كان الماء ينساب بغزارة من صنبور البانيو داخل جردل بلاستيك أزرق، وتقف أمامه نجاة بجسدها الهزيل القويّ في الوقت ذاته تصب كلوزًا ثم صابونًا داخل الجردل.

- بصي بقى انهارده حتدعكي كل حيطان الشقة، هاه الحيطان اسودت بقالك شهور معملتيهاش..

لاح امتعاض على ملامح نجاة لم تلحظه نعمة لأن نجاة كانت في تلك اللحظة تغلق صنبور الماء بعد امتلاء الجردل، انحنت ترفعه ممتلئًا دون عناء يذكر نهضت وتحركت نحو باب الحمام فتنحت لها نعمة جانبًا لتمر، احتد صوت نعمة بعض الشيء وهي تسألها:

- سمعتيني يا ولية؟

- أيوه أيوه.. يوه.

قالت نجاة وهي تخطو مسرعة بينما الجردل يقطر ماء ممزوجًا بالصابون على بلاط الصالة العاري. بلغت حجرة كرم عند طرف الصالة فمرت عبر الباب ثم أنزلت الجردل، كادت نعمة تفقد توازنها عندما خطت فوق بقعة صابون، توازنت وهي تلعن نجاة التي ستتسبب في كسر قدميها في إحدى تلك المرات. حين لحقت بها إلى الغرفة كانت ابتسامة واسعة قد ارتسمت على ملامح نجاة وهي تدس شيئًا في عب جلابيتها حين لحظتها نعمة فصرخت فيها صرخة انتفض منها جسدها كله:

- قلبي كان حاسس يا حرامية يا بنت الكلب، خبيتي إيه في ستيانتك؟ انطقي والنبي لا افتشك تفتيش ذاتي..

مدت نعمة يدها داخل صدرها تسحب ما كانت قد دسته وهي تصرخ:

- أحيه أحيه يادي البلوة يادي الواقعة السودة المهببة، يا مصيبتك يا نعمة يا مصيبتك..

- مهببة وسودا على نافوخ اللي خلفوكي.

قالت لها ذلك وهي تقترب منها حتى صارت في مواجهتها مباشرة:

- هاتي وريني سرقتي إيه يا حرامية؟

مدت نجاة كفها السمراء الخشنة نحو نعمة ثم فتحتها في حركة مسرحية لتلتمع نجوم صغيرة داخلها، انعكست من نجفة الحجرة على الورقة السوليفان الفضية الصغيرة في بطن كفها.

- إيه ده يا وليه؟

استعانت بأصابع كفها الأخرى وشرعت تفتح ورقة السلوفان على مهل فظهر داخلها قطعة بنية صغيرة، بدا على نعمة عدم الفهم وصرخت فيها بنفاد صبر:

- ما تنطقي، الله!

- حشيش.. يا ست حشيش..

ضربت نعمة بكفها على صدرها وهي تصرخ:

- نعم ياختي؟ هو إيه اللي حشيش؟ فين اللي سرقتيه يا وليه.. ولا والله أجيب العسكري يقلعك بلبوصه!

خطفت السلوفان بأصابعها من قلب كف نجاة فسقطت قطعة الحشيش البنية على الأرض وانحنت نعمة تبحث عنها:

- وكمان جايبة حشيش في بيتي ده أنتي نهارك مش فايت..

وجدت نعمة القطعة البنية الصغيرة فتناولتها بين أصابعها وقربتها من عينيها تتفحصها ثم من أنفها تشمها، وحين بلغتها رائحتها جفلت وأبعدتها كأنها تنزع عقربًا سامًا عن وجهها، قالت ممتعضة:

- والنبي لاخليهم ياخدوكي متلبسة بالبلوة دي!

شدت نجاة ياقة جلبابها سريعًا حتى تمزق جزء منها، شدت السوتيان لتكشف عن صدرين هزيلين مجعدين شبيهين بعنب في طريقه ليصير زبيبًا، تراجعت نعمة للوراء فزعة وقد لاحت ابتسامة ماكرة على وجه نجاة من فم خال إلا من سنتين بنيتين في أقصى شمال فكها.

- ياختي وعلى إيه العسكري؟ أقلعلك ملط وفتشي بنفسك الجلابية والسوتيانه والكلوت كمان لو تحبي!

لاح حنق ممزوج بالخجل على وجه نعمة وهي تشير بكفها إلى نجاة لتخبئ ما بان منها.

- الحشيش كان في الأوضة يا وليه؟

ردت نجاة بسرعة في صوت أجش:

- آه..

ثم تنحنحت متراجعة وهي تدس صدرها داخل حمالة صدرها، ضاقت عينا نعمة وهي تتطلع نحو نجاة قبل أن تباغتها قائلة:

- من إمتى بتلاقي حشيش وتسرقيه من غير ما تقوليلي على البلوة السودة دي يا ولية؟ بتلاقيه فين انطقي؟

اضطربت نجاة بعض الشيء على وقع سؤال نعمة وخرج صوتها مذبذبًا وهي تشير نحو الفراش:

- هنا باين ولا هنا مش عارفة، كت بشيله علشان بس أقولك على المصيبة السودا دي مش علشان اتنيل أسرقه!

- والنبي؟

- آه والنعمة الشريفة، وهو ده اللي همك يا وليه؟ بقولك ابنك شايل حشيش في أوضته، مش تشوفي مصيبتك السودا دي ولا تطلعي غلك على الوليه الغلبانة نجاة!

صمتت نعمة للحظات وهي تتفحص نجاة بملامح مرتابة، ثم سألتها بغتة:

- وأنتي عرفتي منين يا وليه إن ده حشيش؟

- ليه وأنا مولودة أول امبارح؟

- اتلمي وردي على السؤال يا وليه!

- عبده ياختي بيحشش كل ليلة..

- تلقاكي بتحششي معاه!

أفلتت من نجاة ضحكة مانعة طويلة وخشنة، أغضبت نعمة حتى احمر منها الأذنان.

- علشان كدة كنتي بتسرقيه؟ من إمتى وأنتي بتلاقي حشيش عند كرم وتاخديه؟ حد تاني من العيال شايل حشيش؟

لاح إنكار على وجه نجاة تعلن به رفضها لاتهامات نعمة:

- ده جزاتي؟ جاية تسرقيني بعد خدمتي ليكي السنين دي كلها؟ وفي إيه؟ قرش حشيش!

أعادت نعمة غلق ورقة السلوفان ثم خرجت من الحجرة تطرقع بشبشبها على بلاط الأرضية، وهي تصرخ على نجاة:

- ورايا يا وليه الله يجحمك، نفتش أوض العيال!

تحركت نجاة خلفها وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة وهي تهنئ نفسها بإفلاتها من غسيل الحوائط اليوم، ثم لاح كدر على وجهها حين تذكرت أن غنيمتها من الحشيش الأسبوعي من حجرة كرم قد انتهى أمرها!

7

يناير 1977

نعمة، بيت داود.

ربطت نعمة الإيشارب حول وجهها منتهيًا بعقدة أعلى رأسها، متخذة هيئة من حلت به مصيبة ولا حيلة لديه إلا العويل. كان صالح أول الواصلين إلى البيت كعادته، تنتهي محاضراته بالجامعة فيرجع إلى البيت مباشرة، وبعد أن يحيّي نعمة يأوي إلى غرفته مقدار ساعة يتصفح خلالها ما نقله اليوم عن أساتذته في كراسات محاضراته، ينسقها، ويرتبها على مكتبه الخشبي الصغير، في انتظار عودة داود ليتناول ثلاثتهم الغذاء، يستسلم إلى قيلولته اليومية إلى أن توقظه منها نعمة على شذى قهوته التي يرتشفها بتلذذ بينما يتبادل أطراف الحديث مع نعمة، تتناول منه الفنجان الخالي ويأخذ هو الجريدة إلى الحمام حيث يمضي به ما لا يقل عن نصف الساعة، يعود إلى حجرته فيجد شايًا مع كعك تركته له نعمة، يتناولهم بينما يستذكر دروسه لعدة ساعات، وما إن تشير الساعة إلى التاسعة حتى تأتي له نعمة ومعها طبق من شطائر الجبن التركي المذابة في الفرن كما يفضلها، يتناولها وهو يشاهد نشرة أخبار التاسعة، ثم يطفئ نور حجرته ويكون قد غط في نوم عميق قبيل العاشرة والنصف، بينما كرم ومصطفى لم يرجعا إلى البيت بعد.

عرف صالح بحلول كارثة على البيت بمجرد أن وقعت عيناه على نعمة منكمشة في كرسيها بالصالة، وقد أحنت رأسها وضمته بين ذراعيها، هرول إليها متسائلًا قدست يدها داخل صدرها وسحبت السوليفان وعرضته عليه دون كلام، تطلعت بتركيز إلى وجهه، أرادت أن ترى رد فعله، هل سيتعرف على الحشيش؟ لو عرفه تكون تلك بالفعل هي الكارثة، أليس صالح هو ابنها العاقل الذي لم يثقل عليها يومًا بما يخيفها عليه! لاح التساؤل على وجهه، نعم صالح شفاف كالماء، ليس خبيثًا ولا ماكرًا، بالطبع لا يدعي الجهل، بادرته قائلة حين استوثقت من جهله الآمن:

- حشيش...

من القلق على نعمة تغيرت ملامحه إلى بوادر الغضب وهو يسألها:

- مصطفى ولا كرم؟

- كرم..

- عرفتي منين إن ده حشيش؟

- من نجاة! هي اللي لقته.

- بابا عرف؟

- لأ.

- لازم يعرف!

لمحت نعمة على صفحة وجه ابنها ذلك الحزم الذي يثير داخلها مشاعر متناقضة ما بين الفخر برجولته الوليدة، والخوف من قسوة تلك الرجولة على أخويه الصغيرين، هل كان من الأفضل أن تمسك عن الانهيار لحين موعد نومه فلا يعلم من أمر أخيه شيئًا؟ لقد وضعت أمرًا مثل هذا في الاعتبار، ثم داهمها خوف كالفجيعة أثناء سجودها لصلاة العصر، إن الأولاد منذ تخطوها طولًا انفلتت خيوطهم من بين أصابعها، وصارت أوامرها الحنونة والحازمة على السواء، لا تتعدى مجرد ملاحظات بالنسبة إليهم، تلقيها عليهم فتمر كرامًا بلا أثر، لو ضاع كرم سيكون ذلك فشلها الشخصي، هي الأم، هي المربية، هي المسؤولة وهي الحارسَ الذيَ عليه أن يحمي الأولاد من السقوط في الهوة خلال تلك الفترة الدقيقة من أعمارهم. شعرت أنها قليلة الحيلة، ورأت نفسها صغيرة متناهية الصغر، يحاكمها داود من علٍ دون أن يحجبهم ستار عن أعين الخلق، يفضحها لأنها فشلت في ستر بيته، حينها قامت من صلاتها وقد داهمها الاستسلام للمصاب، وجدت في صالح حبل نجاة قد ينتشلها من جوف البئر، وها هو يقول إن داود يجب أن يعلم بالخبر! وتلبدت عيناها بدموع سرعان ما انزلقت متسارعة على وجنتيها السمراوين الناعمتين، وحين رفعت رأسها نحو صالح فلم تجد عليه أثرًا من لين، مررت كفها على وجهها بعنف من يلطم وجهه لا من يجفف دموعه، وهي تطرد انعكاس ضعفها ساعية لأن تسترد هيبة أمومتها، خرج صوتها مبحوحًا سميكًا وهي تنهض قائلة في حزم:

- داود مش حيعرف حاجة خالص دلوقت مفهوم؟

صالح يضاعفها طولًا، وزنه يتزايد بانتظام دون تراجع منذ بلوغه السادسة عشرة من عمره، تطلعت إلى عينيه الثابتتين في رأسه المرتفع وأعادت عليه جملتها وقد خرج صوتها صلدًا كصخرة:

- مفهووووم؟

شعرت برغبة جارفة في مد أصابعها نحو أذنه اليمنى وقرصها بشدة حتى يستجيب لها، ولعلها كانت لتفعلها، لولا أن أذنيه بعيدًا عن متناول يديها. تحرك صالح مبتعدًا نحو باب الشقة دون أن ينطق بكلمة فهرولت خلفه متسائلة ورد هو باقتضاب:

- حروح أجيبه من الجامعة، مش أنتي مصممة بابا ميعرفش؟ يبقى لازم نخلص الحكاية قبل ما يرجع.

وصفع الباب خلفه صفعة وقعت في نفسها موضع من تلقاها على وجهه.

8

وتلبس الجنون كل شيء، استيقظ البركان الخامد منفجرًا في أرجاء البيت. الأولاد يستعينون بأغلظ طبقات أصواتهم تلك الطبقات التي ولدت فيهم قبل البارحة، فأكسبتهم ثقة في رجولتهم الوليدة! رجال هم الآن، كبار ونعمة سيدة صغيرة! وصوت نعمة يضيع في الصخب، يسقط على الأرض دون أن تتلقفه أي أذن، شعرت أنها هي نفسها لا تسمع نفسها، لقد تجسد الكابوس واقفًا تحياه، وداود على وشك العودة إلى المنزل لتتكشف له خيبتها في الحفاظ على بيته وأولاده، فشلها في تربيتهم، تلك المهمة الوحيدة التي أسندها لها فتلقفتها عن طيب خاطر.

يشعر كرم أن نهرًا فاض هنالك في البعيد ومياهه التي تجري جارفة كل ما يقف في طريقها على وشك تحطيم حياته، عليه أن يحول دون انهيار كل شيء، لو بلغ داود الخبر لكانت تلك الواقعة ليس لوقعتها كاذبة، وهي في حالة كرم خافضة لا رافعة! كان يتحامل على انهياره الداخلي ليصمد في وجه أخيه فلا يبدو ضعيفًا مرتجفًا، خائفًا ومذنبًا. يدوس بنعل حنجرته على الخوف المتصاعد من أعماقه كي لا يتفتت فاضحًا أمره. يوزع صراخًا بين صالح ونعمة: كيف يسمح صالح لنفسه بانتشال كرم من بين أصحابه في منتصف الحرم الجامعي، هل جُن؟ وانتي يا ماما تجدين حشيشًا فلا تجدين إلا كرم تلصقين به التهمة؟ بالطبع، وماله، كرم هو ابن البطة السودا في هذا البيت البائس، إنه هو من سقط من قعر القفة.

وصالح صلد، لا يتراجع ولا يهزه ثبات كرم على موقفه، يعلم أنه يكذب ويكذب ويكذب لينجو بنفسه، بل إنه يهرب من جريمته من خلال إلقاء اتهامات سخيفة على صالح، انتشله من وسط أصحابه! يا للهراء، عليه أن يحمد الله أنه لم يفضحه بينهم، هذا إن كانت فضيحة من الأساس: تلاقي صحابك حشاشين زيك! ثم يلتفت نحو مصطفى مقاطعًا دفاعه المستميت عن كرم: وأنت بقى كنت بتحشش معاهم يا سي مصطفى! وتندفع الدماء فورانًا داخل جسد مصطفى: صالح الصالح، الإنسان الذي بلا خطيئة يوزع عليهم الذنوب من جعبته التي لم تنفد يومًا، ومن عينك قائدًا لذلك البيت تأمر فيه وتنهي وتزعق وتتهم!

يتقدم مصطفى قاطعًا الطريق بين صالح وكرم، يقف ثابتًا في مواجهة صالح، يفوقه طولًا، نحيل حتى إنك قد تتمكن بسهولة من عد عظام قفصه الصدري، شعره البني الثقيل الناعم مبعثر مثل خيوط من النايلون حول وجهه الصغير المتعرق، عرقان نافران ينبضان في جبهته ووميض الاهتياج ينفجر عن عينيه الخضراوين، بينما يستعدي أغلظ طبقات صوته في مواجهة اتهامات صالح التي تخطت كرم إليه الآن.

وصالح يجد في دفاع مصطفى عن أخيه تهمة لا مراء فيها، لو كان بريئًا لوقف في صف صالح موبخًا كرم، أو لألزم نفسه الصمت كأضعف الإيمان! يندفع صالح نحو غرفة مصطفى يرغب في تفتشيها، ومصطفى يجري خلفه يمد أصابعه يكلبش قميص صالح من الخلف حتى يكاد يمزقه، يلف صالح جسده لينفلت من أصابع مصطفى ويضع كل قوته في ذراعيه وهو يدفعه بعيدًا عنه ليتراجع إلى الخلف متعرقلًا ثم ساقطًا، تصرخ نعمة ويضيع صوتها، يعتدل مصطفى ويهرول خلف صالح نحو غرفته، ليجده قد فتح دولابه وشد ملابسه من على الأرفف مبعثرًا إياها في أرجاء الغرفة،يندفع نحوه ككتلة من غضب، مكورًا قبضة يلتمع في بنصرها خاتم فضيّ ضخم، يشده كرم من الخلف قبيل توجيه اللطمة مباشرة، فيغلق هو أصابعه على ياقة قميص صالح من الخلف الذي يمسك بدوره رف الدولاب، فيتعرقلون جميعًا سقوطًا بعضهم فوق بعض، ويسقط الرف مرتطمًا على الأرض متزامنًا مع دويّ انفجار يتجمد على أثره المشهد وتتجه العيون الست نحو نعمة عند باب الغرفة، ضئيلة صغيرة، يؤطرها المستطيل الخشبيّ للباب، وجهها يتقد شررًا وقد تناثرت على الأرض حول قدميها المدسوسين في الشبشب البلاستيك قطع محطمة من زجاج الفازة الضخمة التي حطمتها للتو!

نقط صغيرة من الدماء تنز من جروح قدميها، الأولاد مكومون على الأرض مثل قطع دومينو أسقط بعضها بعضًا، وسروال داخلي حريمي أحمر من الدانتيلا الرقيق، واقع بالقرب من قدمي صالح فوق كومة من ملابس مصطفى!

9

هذا السروال الداخلي الأحمر من الدانتيلا لا يخص نعمة! بقي هنالك ممدًا فوق كوم الملابس لا تقربه يد، جيفة تعافها الأنفس، ثماني عيون تتبادل نظرات تمتزج داخلها شتى أنواع المشاعر، أنفس تموج بالاضطراب والحيرة.

لقد حطمت نعمة فازتها المفضلة، تلك الفازة يونانية المنشأ التي طالما اعتزت بها وحرمت عليهم الاقتراب منها، كسرتها لأجل أن يتوقف كل ذلك الجنون، جرجرت قدميها النازفتين خروجًا من الحجرة وتركت جسدها يتهاوى على مقعدها بالصالة المستطيلة، انزاحت كل المشاعر عن صالح إلا خوفه على نعمة.

هرول صالح من الغرفة وراء نعمة، لمحها على مقعدها ورأى نقاطًا صغيرة من الدم تتبعتها إلى حيث استقرت، هرع يجيء بماء وقطن وميكروكروم، انحنى على قدميها يضمد جراحهما بحنان بالغ، قبل رأسها وهو يستشعر حقدًا يتصاعد داخله تجاه أخويه، لا ليست كراهية، إنه خوف مخلوط بذاك الغضب الذي يحجب عن صاحبه صدق ما يعتمل داخله حقًّا تجاه الآخرين، لطالما شعر صالح أنه غريب عن أخويه، لم يشاركهما لعب الطفولة ولا عبث المراهقة، تلك الجدية التي اتسم بها طبعه، صاحبته منذ نعومة أظفاره، كف عن اللعب بمجرد التحاقه بالابتدائي، أوصته نعمة بأخويه الصغيرين حين التحقا بنفس مدرسته، وصية عابرة لم تقصد منها أن تحمله ما لا طاقة له به، إلا أنه تلقاها وساقا لم يتهاون في الحفاظ عليه. لطالما وجد نشوته في إثناء والديه وأساتذته على جديته والتزامه بالمذاكرة وتفوقه في الدراسة وزهده عن الهزل.إنسان، خط مستقيم لا يميل، ليست الحياة لعبًا ولهوًا ولكن إخوته لا يفقهون! بالطبع كانت تنتابه بين آن وآخر تلك الزهوة بالذات حين يذل واحدًا من أخويه، ويتلقى من داود ونعمة نهرًا مخلوطًا بالإشارة إلى صالح الابن البار الذي عليهما أن يقتديا به. لكن أن تُذل قدماهما إلى حد الإدمان؟ هذا مما لا يجوز أبدًا أن يمرره، يشعر بها ذلته هو، استهانته في مسؤوليته تجاه أخويه منذ انتقل من المدرسة إلى الجامعة.

دون أن يتبادلا كلمة، سارع مصطفى وكرم إلى تنظيف موقع الجريمة، ركبا الرف وجمعا ملابس مصطفى المبعثرة في أنحاء الغرفة، حين بلغا الكومة التي يعلوها السروال الأحمر، امتدت أيديهم تسحب قطع الملابس من أسفله كل منهم يتجنب عيني أخيه، حتى لم يبق إلا السروال بقعة حمراء في منتصف الغرفة فوق السجادة، كل منهم يتجاهل وجوده وكأنه خرافة لا تطولها الأيدي، مضوا يكنسون الزجاج المتناثر عند باب الغرفة وخارجها، مسحوا آثار الدماء عن البلاط ثم جاؤوا بماء وصابون يدعكون بهما سجادة الصالة، أدرك الأولاد دون كلمة أن كل شيء يهون على نعمة حتى فازتها الأثيرة، إلا أن يعود داود إلى بيت تهاونت في

الحفاظ عليه!

الحق أنه رغم كل ذلك الصمت فإن البيت لم يكن هادئًا، ظل الغيار الداخلي الأحمر الذي أغلق دونه الباب، صورة معلقة داخل أربعة عقول، تومض بلا انقطاع مثل قنبلة على وشك الانفجار، عاد داود إلى بيت زلزلت أركانه واستقرت بين آله ضغائن ثقيلة الوطأة.

على مائدة الطعام أبدى داود اندهاشه من تواجد مصطفى وكرم بينهم، اندهاشًا قوبل بابتسامات وهمهمات لا معنى لها. بدت الفراخ في وسط السفرة جثة يقتطعون أجزاء منها، ليس داود غبيًا، يُدرك بوضوح تلك السحابة الرمادية المعلقة فوقهم عند السقف، إلا أنه «لا كلام على طعام».

انفضت المائدة الصامتة، رفع الأولاد أطباقهم طوعًا دون زجر من داود الذي ضيق عينيه مستغربًا ذلك الأدب الطارئ على الأولاد، ثم تركهم إلى غرفة المكتب، منتظرًا أن تأتي له نعمة بالشاي وبالحكاية تفسر له حقيقة ما يجري في البيت.

حين أغلق مصطفى حجرته عليه، كان قد انتهى بالفعل إلى قرار، راجعه في عقله مرة بعد مرة على مائدة الغذاء، تناول التهمة الملقاة على الأرض، دسها داخل واحدة من روايات إحسان عبد القدوس التي يمتلك الكثير منها، تجنب النظر إليه، كآدم حين تكشفت له عورته فاستحى، تضطرم نفسه بالخجل والكراهية لذاته، فتح باب غرفته، رأى الصالة خالية فهرول عبرها نحو حجرة بابا سري.

وقف صالح جوار نعمة وهي تعد الشاي في المطبخ، يتتبع خُطاها أينما حلت، عند الحوض تغسل البراد ثم تملؤه ماء، عند البوتاجاز تشعل عيدان الكبريت واحدًا تلو الآخر بعد أن أدارت الزر إلى أن تنفجر زُرقة الموقد، عند الحوض تغسل أطباق الغداء وصالح يوسوس في أذنيها، بابا يستشعر بالفعل وجود خطب ما، ألا تريحين نفسك من عناء مسؤولية مُهلكة؟ لو تهاوى كرم إلى الإدمان صاحبًا مصطفى معه. ألن يعلم وقتها بعد أن يفوت الأوان ويضيع مستقبلهما معًا! أمام الموقد تتأمل ماء البراد وكرات صغيرة من الماء بدأت تتشكل على سطحه. لو علم الآن فلا لوم عليك أو عليّ. تسحب برطمان الشاي من على الرخامة جوار البوتاجاز. لكن لو انتظرنا وحلت الكارثة فلن تكون إلا غلطتنا نحن. تلف غطاء البرطمان لتفتحه، تصب حبات الشاي السوداء في قلب كفها، يصمت صالح، لا يدري كيف يشير إلى السروال الداخلي بحجرة مصطفى، ماذا يقول لها؟ تُسقط حبات الشاي في قلب الماء المغلي، تتركه لحظات قليلة ثم تلف زر البوتاجاز، يرتفع الماء حتى حافة البراد ثم يهدأ، هل يخصها ذلك السروال ووضعته نجاة بين ملابس مصطفى عن طريق الخطأ! كيف يسألها؟ تغلق غطاء البراد وتتناول قماشة سميكة من على الرخامة، ترفع بها البراد من على الموقد وتتجه إلى الصينية حيث رصت ثلاثة أكواب خالية، يقف جوارها، تلتقي أعينهما وتنسكب قطرات من الشاي المغلي على إصبعها فتنتفض تاركة البراد، تدس أصابعها الصغيرة أسفل ماء الصنبور البارد، يستكمل هو صب الشاي:

- الكلوت ده مش بتاعي..

تباغته جملتها، يترك براد الشاي ويتحرك نحو الصنبور حيث تقف، عيناها مثبتتان على بلاط الحائط.

- حتقوليله؟

تغلق الصنبور وتمرر جسدها الهزيل من جواره عائدة نحو الرخامة، تتناول برطمان السكر وتلف غطاءه، بالداخل ملعقة بلاستيكية صغيرة بيضاء، تضع خمس ملاعق من السكر داخل كوب داود، ثلاثة في كوب صالح، وطرف الملعقة لكوبها هي، تميل بجذعها على الرخامة، تسند إليها كفيها، أصابعها منفرجة تتلقى برودة الرخامة، بين ذراعيها المفرودتين تقبع صينية الشاي يتصاعد منها الدخان لاهبًا بشرتها الرقيقة.

- عندك تفسير للكلوت في أوضة مصطفى؟ عاوزني أقول إيه لداود بالضبط؟ ابنك حشاش والتاني زاني؟

يتراجع صالح بضع خطوات حتى يستند بجذعه إلى الرخامة المقابلة، يمرر أصابع كفه بين خصلات شعره الجافة المقصوصة، يتنحنح:

- حنقوله على الحشيش بس دلوقت.

نعمة تتراجع خطوتين ثم تترك جسدها يتهاوى على المقعد الخشبيّ المجاور للباب، يتبادلان نظرات حائرة، تسحب نفسًا عميقًا وتنهض متجهة نحو صينية الشاي:

- داود ميحبش يشرب الشاي بارد!

11

أبريل 2018

مصطفى داود على الطريق.

لمَ لا ترد على هاتفها ولا تكتمه؟ إنه يئز ضجيجًا مزعجًا معلقًا فيما بيننا في فراغ السيارة، والإسكندرية ليست بعيدة جدًا، البيت القديم غزت حديقته البراغيث، ونما العفن بأركانه ولا أحد يبالي! وسألتها عن الهاتف قبل أن تنهار أعصابي، فردت عليه أخيرًا وكانت تتحدث مع شاب ما، ترى هل تُحب؟ الحب قادر على إذابة قساوة القلوب مهما نمت وتصلبت عبر الأعوام، ألم تكن متزوجة فيما أظن؟ لا، أظن أنها ظلقت أذكر أن نعمة قالت شيئًا كهذا، أم أنها كانت تقول ذلك عن داليا ابنة صالح الكبرى؟ وأغلقت الهاتف فسألتها متخليًا عن بعض حذري:

- صاحبك ولا صديقك؟

فقالت بصوت جاف وشى بغضب مكتوم «إنه بالطبع صديق»، أنت غبي يا مصطفى، مهلًا مهلًا لن تكشف لك أوراقها بتلك البساطة، وأنت عم لها، هل تصدق ذلك يا رجل؟ وهي تجربتها مع فكرة العم تتلخص في «صالح» وأنت تعرف جيدًا كيف هو صالح، عليك أن تكتسب ثقتها واحدة واحدة. وألاحظ اندماجها الكامل داخل شاشة هاتفها، تراسل شخصًا ما، ضاغطة على شاشة الهاتف بأصابع يبدو في حركتها السريعة الغضب، وقد بدا الغضب على ملامحها، وكأنها في خضم مشاجرة نصية. قررت أن أقطع اندماجها مع الهاتف، ما زلت أسعى إليها، لا مفر من ذلك وإلا انقضى الطريق دون اتفاق بيننا، سألتها لو كانت بالفعل تزوجت ثم طلقت، وحين ردت بالإيجاب، التقطت طرف الخيط، كل إنسان يحب أن يحكي حكايته، وحكايات الطلاق لا تقاوم، أحقاد متراكمة يرحب الإنسان دومًا بالتنفيس عنها ولو مع الغرباء، سألتها إذًا عن سبب الطلاق، فلخصتها في كلمة واحدة: «ما اتفقناش» كمن لا يرغب في تبادل الحديث ويود لو ينطوي بنا الطريق كما بدأناه...غرباء ننحدر من ذات الجذر!

12

ما بين عامي 1977 و2011.

بيت داود، الإسكندرية.

رأى كرم نفسه يعب من الويسكي مباشرة دون أن يكسره أو يخالطه بشيء، لم يكن هناك نادل خلف البار، كان هو النادل دون أثر لزبائن، يصب من زجاجة الويسكي واقفًا خلف البار ثم يشربه جالسًا على كرسيّ البار العالي في الجهة الأخرى، شرب كثيرًا حتى صار التنميل الزاحف عبر جسده حتى رأسه شعورًا بالطيران، ورأى نفسه من علٍ روحًا تحاول الهبوط إلى جسد مال جذعه على البار وتفشل، عرفت روحه أن الحلول في الجسد ليس سهلًا، إنها مهمة شاقة تستدعي تدريبًا وعلمًا دقيقًا، كما عرفت في الوقت ذاته أن جسده في طريقه إلى التحلل، لو لم تبلغ روحه ضالتها لبقيت تائهة بلا جسد إلى أن يأذن الله لها بجسد جديد. رأت روحه الطائرة نعمة وهي تسعى في طريقها إلى جسده، لو عثرت عليه جسدًا بلا روح ستحزن عليه، وشد العزم على الحلول، بَسمَلَ مرة بعد مرة، توكل على الله وانقض هابطًا إلى جسده. قام من نومه منتفضًا على وقع فتح باب حجرته، حلت روحه في جسده واعتدل جالسًا يرمق في ذهول جسد أبيه يملأ فراغ الباب، إلا أن بالأمر شيئًا غريبًا، إذ إن داود كان يحمل في يده جردلًا بلاستيكيًا وخرقة، هل لا يزال يحلم؟ أدار رأسه ناحية الشباك فرأى نورًا خافتًا يتسرب من بين فُرجات الشيش معلنًا عن باكورة الصبح، ألقى داود بالجردل على الأرض محدثًا ارتطامًا طيَّر بقايا النوم عن رأسه وأقنعه أن هذا ليس بحلم.

- مشينا نجاة، من هنا ورايح تنضيف البيت مسؤوليتك، تخلص محاضرات وترجع على طول، صالح حيبلغني كونك ملتزم ولا لأ وبناء عليه حتكون عواقب أنت مش قدها، وآه...

أمسك داوود بكفه الضخمة ضلفة الباب ففتحه حتى آخره مستكملًا:

- الباب ده ميتقفلش من هنا ورايح.

شاط داود الجردل والخرقة بعيدًا عن قدميه، ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه ومضى. أدرك كرم أن صالح فعلها، رغم رفض نعمة ورغم كل شيء إلا أن الشيطان لم يطق صبرًا على تدمير عالمه، تنظيف البيت؟ جُن داود بالطبع، هل يظن أنه سيجعل منه خادمًا بالبيت! انتابه شخط هائل حين وقع بصره على الجردل والخرقة ملقيين في قلب الغرفة، عاد يندس بجسده في الفراش وشد عليه الغطاء حتى رأسه.

***

استغرقت في النوم على فراش بابا داخل غرفته القديمة التي صارت لنا أنا وياسين بيتًا، نمت الليلة الماضية على وقع صوت عمار الشريعي يخاطب منى الشاذلي، يتكلم بما يعتمل في صدري، صوته يتهدج بالبكاء، يباهي بنا، بذاك الجيل الذي لم يُتوقع منه أبدًا أن يرتفع له حس، الجيل الذي وُلد ونشأ في فترة من البلاد حياتها السياسية خاملة كصيف ممتد لا ينتهي هواؤه ثقيلًا معبأ بالرطوبة فلا يرف له جفن. فتحت عيني أتأمل خيوط النور والظل المتتابعة على الحائط المقابل للشيش، وأستعيد حلم الليلة الماضية على وقع أصوات الكركبة الآتية من خارج الغرفة. كنت في الميدان، وكان بابا هناك أيضًا وكان الميدان صالة بيت جدي، في قلبها جلس بابا على كرسي وثير يبتسم مشجعًا المرابطين على الاستمرار حتى النفس الأخير، ثم جاءت تيته وخلفها نجاة أرادت أن تزيح كرسي بابا لأجل أن تغسل نجاة السجادة الممتدة أسفله، وتلاشى الميدان وانسلت رائحة الكلور إلى أنفي، تمسح به نجاة الأرض لأن نعمة ضاقت باتساخ البيت ولم تعد تحتمل فجاءت بنجاة تقيم معنا، إذ كان من العسير عليها أن تأتي وتذهب إلى منزلها في ظل الانفلات الأمني.

زغرد جرس الباب فتركت فراشي وأسدلت لباس الصلاة فوق بيجامتي ونهضت أستطلع القادم، كان ياسين ومعه علي يونس زوج شريهان ابنة عمي صالح وداود الصغير أخوها، عائدين يدفعهم وقود الحماس، حكوا بينما ترتج صدورهم بالانفعال عن المسيرة التي انتهت بهم إلى قسم الرمل، فما كان منهم إلا أن فوجئوا برجال من بين المتظاهرين يقذفون مبنى القسم بالمولوتوف، حكوا عن الحرائق المتفرقة للأقسام في كل أرجاء الإسكندرية، المباني تشتعل دون أن يطفئها أحد فتصير رمادًا، ثارت نعمة غاضبة عليهم أن ذلك مما لا يجوز أبدًا:

- تولعوا في بلدكم؟ فرقتوا إيه عن الهمج وولاد الكلب اللي بينهبوا البلد؟

فانطفأت حماستهم وانبروا ينكرون مشاركتهم في إشعال الحرائق نفسها، وعلى الرغم من كل الإنكار والتبرير الذي لهجت به ألسنتهم إلا أنني رأيت لمعة الفرحة في عيني ياسين، وكأن مقلتي عينيه احتفظتا بصورة النار وهي تأكل القسم فحط المشهد على قلبه بردًا وسلامًا.

***

حين خفتت كل الأصوات بالخارج عرف كرم أن صالح وداود خرجا من البيت، ترك فراشه ونهض متجهًا إلى باب الغرفة، استطلع الصالة بعينيه قبل أن يخطو خارجًا، لا يرغب في أن يلتقي أحدًا، فلما اطمأن إلى خلوها هرول نحو الحمام عند نهاية الصالة.

لدى خروجه من الحمام وجد نعمة تنتظره، بدت مرتبكة وهي تخبره أنها أعدت له الإفطار، وهو شعر أنه لو نظر إلى عينيها لذاب خجلًا، غمغم بتأخره عن الجامعة واختفى خلف باب

حجرته ولم يجد في قلبها الجردل والخرقة، عرف أن نعمة أعادتهما إلى المطبخ أثناء تواجده في الحمام. خرج من حجرته وقد ارتدى ملابسه مستعدًا، لم يطرق باب مصطفى كعادته كل صباح، ولو طرق بابه لما وجده، لقد ترك مصطفى البيت فجرًا بينما نعمة تصلي راغبًا عن مقابلة أي شخص من الأسرة بما فيهم كرم.

عاد صالح قبيل موعده المعتاد وانتفض شخطًا حين وجد البيت خاليًا إلا من نعمة، حكى لها أن الشوارع في الخارج مقلوبة وأن لا محاضرات اليوم بالجامعة حيث إن الطلبة وزعوا المنشورات، وانضموا إلى الفوضى وأعمال الشغب التي انطلقت في أرجاء الإسكندرية، فلماذا لم يرجع مصطفى وكرم مباشرة إلى البيت إلا لو قررا الانضمام إلى تلك المسخرة!

أراد صالح أن يخرج إلى الجامعة ليعود بأخويه ولكن نعمة رجته بقلب مرتجف ألا يفعل، جلست تبكي وتندب تلك الأيام التي لا تتابع عليها إلا بالمصائب: «اتحسدنا ورب الكعبة اتحسدنا» وإذ بهدير يعلو على صوتها فتصغي السمع هي وصالح ثم ينهضان مهرولين نحو شباك غرفة النوم المطل على الشارع الرئيسي لتتضح الهتافات رويدًا: «يا سادات ليه معلش، كيلو اللحمة بستين قرش» و«يا حكومة هز الوسط، كيلو اللحمة بقى بالقسط، يسقط يسقط أنور السادات» وكانت المسيرة من عمال شركة النحاس في سيدي جابر، على مبعدة أمتار من بيت داود، وقد خرجوا لينضموا إلى عمال شركة الغزل والنسيج القادمين من باكوس. واستغرقت نعمة في المشهد تمامًا حتى شعرت بقشعريرة جارفة تسري في بدنها، بينما تتطلع في وجوه العابرين أسفل شباكها على أمل أن ترى بينهم وجهي ابنيها، ولكنهم بدوا جميعًا من العمال لا الطلبة مما أحبطها وخيب أملها، وأحس صالح في داخله شيئًا على وقع الهدير المقشعر للأبدان، ولكنه سارع إلى إنكاره حتى عن نفسه قائلًا بغير صدق: «شوية همج».

قال لها داود عبر الهاتف إنه سيبقى في المتروبول إلى أن تهدأ الأمور، لم تخبره عن غياب كرم ومصطفى وأخذ قلبها يتقلب على الجمر يؤججه صالح حتى حل الليل، وزغرد جرس الباب فهرولت إليه نعمة ودخل مصطفى وكرم مندفعين بوقود الحماس، عيونهما محمرة من فرط ما تعرضت لقنابل الغاز، يتحدثان في وقت واحد دون أن يسمع أي منهم الآخر، يحكيان عن مبنى الاتحاد الاشتراكي وقد اشتعلت به النيران، لتضرب نعمة صدرها ويتدخل صالح قائلًا إن ذلك من أفعال الهمج والبلطجية ولا يصح أبدًا لمثلهم المشاركة في تلك الأمور:

- بتحرقوا بلدكم؟ فرقتم إيه عن ولاد الكلب الهمج!

لينطفئ حماس الأخوين وينكر مصطفى بشدة مشاركتهم في إشعال الحرائق، إذ إنهما

انضما فقط إلى المسيرات وحين بدأت أعمال الشغل عادا مهرولين إلى البيت.

غاب صالح في المطبخ وعاد إلى الصالة حاملًا الجردل والمساحة، وقف منتصبًا أمام كرم بقلب ثابت ووجه حازم يمد له ذراعه منهية بالجردل بينما يقف كرم أمامه مبهوتًا دون حراك.

***

كنا لا نطفئ تلفزيون الصالة لحظة، نتفرج على الأحداث تبثها قناة الجزيرة، ذاب قلبي حزنًا وأنا لا أشترك في الثورة إلا بالمشاهدة والمشاركات السخيفة التافهة على الفيسبوك لأن ماما لا تسمح لي، يشجعها على ذلك ياسين الذي لا ينفك يخبرني عن التحرش بالسيدات في خضم الفوضى، ثم يرجع البيت كل ليلة ينتفض جسده حماسا ويرسل رائحة غريبة عرفت أنها آثار قنابل الغاز التي تقذف بها الداخلية المتظاهرين، بينما أنتفض أنا غيرة وحنقًا، أعرف أن تاريخًا يُكتب وفي ذلك التاريخ سوف يسطر اسمي مع قوائم حزب الكنبة!

وجدي هزته الثورة من الأعماق، لقد قام من أمام مكتبه وترك ملفاته وانضمَ إلىَ اللجان الشعبية لما داهمنا الانفلات الأمني، وكنت مهما رجعت بذاكرتي إلى الوراء لا أذكره إلا جالسًا امام مكتبه، منكبًا على ملفاته يكتب فيها ويقرأ منها ولا ينطق جملة ليست القضية والمتروبول جزءًا منها! ومع ذلك لم ألحظ عليه حزنًا أو يأسًا، اعتدت أن أراه بين حالتي المرح والغضب، تغلب عليه الأولى فيغني مع شيرين التي أحبها منذ ظهرت في كليب «آه يا ليل» صحبة تامر حسني، أو يقول جملًا مسجوعة بالعامية مخلوطة بكلمات قبيحة دون أن يعبأ بأن نسمع منه كلمات كتلك. ونوبات الغضب غالبًا ما تهيجها عوارض بسيطة لا تستأهل في رأيي ما يبديه من غضب، كأن يقيم الجيران شادرًا في شارعنا لأجل فرح ابنتهم، يزعق فيهم ويبادر إلى الاتصال بالبوليس، ومن عجب أن البوليس خلال تلك الفترة كان يظهر فعلًا، فيفسد الفرح وتصير بيننا وبين الجيران عداوة. كانت تصرفات كتلك تضايقني إلى أن مررت أنا نفسي بنوبات غضب مماثلة، وبت أشعر أنها بالنسبة إليه المتنفس، ما دام لم يترك نفسه للحزن ينهشه طوال تلك السنوات فلا بد له من متنفس إذًا! وبدا أن ثورة الخامس والعشرين من يناير صارت متنفسه الحقيقي، ومن فرط حماسه لها شعرت أنه إن لم يكن سجينًا لجسده الذي شاخ لذهب بنفسه إلى الميدان ورابط فيه إلى أن يسقط مبارك.

كنت قد شاهدت فيلم «النسخة النهائية» للمخرج الأمريكي/ الأردني عمر نعيم، ومن بطولة «روبن ويليامز». في الفيلم يتخيل الكاتب عالمًا حيث يمكن للآباء أن يختاروا تثبيت كاميرات في حدقتي عيون أطفالهما عند الميلاد، بحيث تُسجل جميع لحظات حياتهم، ثم عند الموت يتم استخراج تلك الداتا، وبطل الفيلم يصنع من خلال المونتاج نسخة نهائية ومختصرة عن حياة الشخص، يحتفظ بها أحباؤه أو تعرض خلال حفل تأبينه، وأحيانًا ما

كان بطل الفيلم يصنع نسخًا لنفسه، لأجل متعته الخاصة، واحدة من تلك النسخ كانت لطفل يدعك أسنانه أمام المرآة، ويمر عليه الزمن فتتغير صورته المنعكسة في المرآة من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة وأخيرًا الشيخوخة، هكذا رأيت داود، يجلس إلى مكتبه، يكتب ويقرأ ويتحدث عن القضية ويشيب في مكانه عبر السنوات.

وقد صار بيت جدي معسكرًا، حيث صمم عمي صالح على أن ترجع بناته إلى بيت العائلة حتى تستقر الأحوال، يخشى عليهن من الانفلات الأمني. وأما مالك ويوسف فكانا يتصلان بنا كل ليلة من الخارج عبر سكايب لأجل الاطمئنان علينا. أتابع ما يكتبه الناس عبر الفيسبوك كما أحاول متابعة ما يحصل عبر التلفاز رغم ذلك العائق من الضجة التي يثيرها العيال - أحفاد عمي صالح- منتشرين في كل حجرات البيت بلا رادع.

وإذ بي أصير تدريجيًا، جزءًا من حضانة وليس جزءًا من الثورة! بينما ياسين وأحمد وداود الصغير، وحتى عمي صالح وجدي داود نفسه، مرابطون في الشارع منضمين إلى اللجان الشعبية التي أنشئت في كل مكان عقب غياب الداخلية، أردت بشدة أن أكون رجلًا ولو خلال تلك الفترة فقط يا الله، ليس مكاني في تلك الحضانة البائسة بين الأمهات ينظفن، يطعمن، يرضعن ويزعقن في الشياطين الصغار.

جاءت نعمة بصينية الشاي فوضعتها وهي تقول:

- كل حد فيكم ياخد كوبايته علطول قبل ما العيال يقلبوا الشاي.

على الرغم من كل ذاك الصخب في بيت نعمة، إلا أنني شعرت أن الحياة ردت إليها، خلف قشرة الإرهاق والضيق بالفوضى التي نشرها الأطفال في أرجاء شقتها، كنت ألمح سعادة بالونس وقرب أبناء أحفادها منها ليلًا نهارًا بعدما كانت تشحذ رؤيتهم. نهضت أتناول كوب الشاي الخاص بي من الصينية، ووجدت أن أي محاولة للإنصات إلى التلفاز الآن عبثية تمامًا مهما رفعت درجة الصوت، تركت الصالة واتجهت إلى الشُرفة الملحقة بغرفة بابا سري، أسندت ذراعي على سور الشُرفة وملت أتفرج على الرجال في اللجنة الشعبية والغيرة تنصب من قلبي فوق رؤوسهم. زصت المقاعد فيما يشبه نصف دائرة أسفل عمارتنا مباشرة، في منتصفها وضعوا تلفازًا صغيرًا، يتوسط هلال الكراسي المتراصة، كرسي داود الجلدي الوثير بارز بين بقية المقاعد الخشبية وكأنه مدير عام اللجنة الشعبية، جواره عمي صالح مندمجًا مع ابنه داود في حوار ما، وعلى الطرف جلس علي يونس مع عدد من الجيران يلعبون الكوتشينة بينما يدخنون. على امتداد الشارع تشكلت أنصاف دوائر أخرى، وقد أحضر بعض الجيران نراجيل ربما جاؤوا بها من بيوتهم أو من قهوة ما لست أدري، ترتفع سحابات الدخان إلى موقفي بشرفة الطابق الأول، تحملها نسائم الليل إلى أنفي فأشعر أنني طفل

معاقب بالحرمان من المشاركة في اللعب! ليس الرجال إلا أطفالًا أنانيين، يريدون الملعب لأنفسهم فقط، متبجحين علينا بكلمات مثل «الحماية» و«القوامة»، لقد حولوا اللجان الشعبية إلى مقاهٍ أسفل بيوتهم، وانطلقوا متحررين من قيود بيوتهم، لا لوم عليهم من زوجة أو أم! أطفال سافرت أمهم فانطلقوا صائحين: أمي مسافرة وحعمل حفلة! الحق أن ياسين بدا بينهم جادًا في مهمة الحراسة، كرسيه خالٍ منه، يتحرك جيئة وذهابًا على طول الشارع، لا يدخن ولا يلعب ولا يشاهد التلفاز، ينظم مناوبات الحراسة بين الرجال في الليل ثم يشارك في المسيرات بالنهار، كان ياسين خلال تلك الفترة كلها، ممتلئًا بالنشاط والحيوية، حيًا كما لم أره من قبل أبدًا.

ارتفع صوت داليا كبرى بنات عمي صالح، قادمًا من الداخل وهي تزعق بما يفوق المعتاد من نهرها لأولادها، لحظات وصاحب صراخها بكاء ابنها الذي جاء يركض عبر السفرة إلى الصالة وهي خلفه، خرجت مهرولة فرأيتها تشد بالصغير المسكين من تلابيبه بينما يصرخ مرتعبًا، أسرعنا أنا و شريهان أختها نفصل بينهما، انهارت داليا على الكنبة تبكي، بينما ضمت شيريهان الصبيّ وهو يرتجف خوفًا، جلست جوار داليا أسألها عما حصل، فلا أحصل على جواب إلا نهنهة وشهقات متواصلة، جاءت نعمة فتنحيت لها تجلس جوار داليا، فتحت ذراعيها وسحبت داليا إلى حضنها وجعلت تمرر أصابعها بين خصلات شعرها لتهدأ داليا رويدًا. في تلك الأثناء كانت شيريهان قد شغلت للصبيّ كارتونًا على هاتفها فاندمج فيه بينما دموعه لم تجف عن وجهه، وأنفه مبلل بالمخاط.

هدأ الصخب رويدًا حتى وضح صوت الهتاف خارجًا من التلفاز: «مش حنمشي هو يمشي» وذابت روحي في الميدان، تتسارع أفكاري متخبطة، جسدي هنا وحده بينما قلبي هناك! أريد أن أهتف معهم وأغني وأرابط، وأسارع إلى حمل المصابين والذهاب بهم إلى المستشفيات الميدانية، أو حتى أكون واحدة من المصابين! جسدي ينتفض بالحماس فلا أجد له تصريفًا! لمَ لا أدعي الرغبة في زيارة أمي في القاهرة وحين أصل أذهب رأسًا إلى الميدان! ترى هل أقدر؟ وإذ بزعيق يعلو في الشارع مشتتًا أفكاري، ركضنا نستطلع ما يحصل من نافذة غرفة نوم داود ونعمة، رأينا محمد عرفان زوج داليا يتشاجر مع صالح، يحاول محمد بلوغ باب العمارة وصالح يمنعه، وياسين يأتي راكضًا من رأس الشارع حيث كان يقف، خرج صوت داليا مبحوحًا في جملة سائلة وهي تخبرنا:

- عُمر كلمه من موبايلي!

مشيرة إلى ابنها الذي وبخته قبل قليل، ثم رفعت صوتها تصرخ عبر الشباك:

- محمد، امشي، امشي من هنا.

رفع عمي صالح رأسه نحونا موجهًا نظرة تقطر تحذيرًا ووعيدًا، ونهض داود من مقعده ووجهه مصبوغ بدماء الغضب واتجه إلى محمد فوقف قبالته ليتراجع محمد خجلًا، فنكث الرأس، زعق صالح بنا:

- ادخلوا جوا!

ولمَ أعود إلى الداخل أنا؟ هل أُمنع أيضًا من التطلع عبر الشباك! مالي أنا ومال تلك الدراما العائلية التي تحيل أيام الثورة التي يقف فيها المصريون قلبًا واحدًا، إلى مهزلة! عدنا إلى الداخل وجسدي ينتفض سخطًا ومقتًا.

هدأ الشارع وجلست داليا تقص علينا أنها كانت قد أغلقت هاتفها المحمول حتى لا يعلم زوجها عن مكانها هي والأولاد، وفتح ابنها الموبايل دون إذنها فكلم أباه وعرف منه أنهم في بيت داود.

- وهو ده ينفع؟ مهما كنتم متخانقين حقه يعرف أولاده فين!

تدخلت معترضة، فقوبل رأيي بإعصار من الصراخ والشرح والحكايات عما يفعله محمد بداليا وأبنائها، وكونه يستحق ما هو أكثر من ذلك. ومضوا يخوضون في حديث يدور حول المعركة المستعرة أبدًا بين داليا ومحمد عرفان، وكأن ما يدور في البلاد لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد. ضقت بحديثهم ذرعًا فتسللت من بينهم متوجهة إلى أوضة بابا سري، حيث رأيت أن محمد عرفان قد انصرف وعاد الرجال إلى ما كانوا عليه.

***

عرف كرم من وقع الطرقات الثقيلة على الباب أنه صالح، أخرج رأسه من تحت الغطاء، ومد ذراعه حتى بلغ أصبعه زر الكاسيت، فلفه يرفع من صوته بينما فتح صالح الباب وأغلقه من ورائه، ثم تقدم جالسًا على طرف الفراش.

لم يرفع رأسه إليه، أبقى عينيه مثبتتين على سقف الغرفة، يريد أن يتجاهل حضور صالح، بل يود لو يزعق فيه أن يخرج من حجرته ولا يريه وجهه حتى الأبدية وما بعدها، إلا أنه تصبر بالتجاهل حتى تنحنح صالح قائلًا:

- لازم نفكر حنعمل إيه مع مصطفى..

آه لقد عبث بحياته والآن يرغب في تدمير حياة مصطفى بالمرة، واستغرب كرم كيف عرف صالح أن مصطفى يشاركه هو وأصحابه جلسات الحشيش؟ ولو كانت الوشاية بمصطفى تصب في مصلحته لفعلها، لمَ يُعاقب وحده؟ ولكن الوشاية بأخيه الصغير لن تزيد

موقفه إلا سوءًا، منذ الطفولة وأي مصيبة يقومان بها سويًا يعاقب هو عليها وحده، بحجة أن مصطفى صغير وأنت الكبير العاقل! سوف يقولون له، آه أنت يا كرم غير مسؤول لدرجة أنك تجر قدمي أخيك معك إلى الهوة، وعليه أن يماطل صالح لحين عودة مصطفى من الخارج ليتبين منه الخبر، وتطلع إليه متسائلًا وهو يغمغم بـ: نعم؟

- وطي الكاسيت!

- لأ!

قام صالح من مكانه متوجهًا إلى الكاسيت ومد أصبعه يريد إغلاقه، فاعتدل كرم جالسًا وقد مسه الغضب، وصفع كف صالح بعيدًا، فداهمت الأخير المفاجأة وانعقدت الدهشة على ملامحه، إذ لم يتوقع من أخيه كل هذا الغضب، فقط لأنه يرغب في أن يبادله الحديث!

- في إيه؟ عاوزة أتكلم معاك!

قال كرم بملل:

- وأنا مش عاوز يا أخي!

- ليه؟

سأل ببراءة أضحكت كرم، إن صالح لا يدرك حتى مقدار غبائه، قال من بين ضحكاته التي سالت مخضبة بالحنق والاستهزاء:

- معلش، كنت بمسح الشقة وملحقتش أذاكر.

علت خمرة خفيفة وجه صالح الأسمر، إنه ساذج كطفل! وقال بجدية:

- مش حعطلك، كلمتين وأقوم..

قال كرم وهو ينفخ:

- روح يا صالح شوف مذاكرتك..

- لا ما انا شايف مذاكرتي كويس، الدور والباقي على واحد متجه لطريق الإدمان، والتاني الظاهر بيزني!

- بيزني؟

انقلبت ملامح كرم إلى شيء بين الهزال والدهشة، إذ أضحكته الكلمة كما استغلق عليه فهم بواعثها إلى أن ومض السروال الداخلي الأحمر في ذاكرته فاستدرك: آآآه وانفرجت

أسارير صالح بعض الشيء، أحس أن كرم وارب له بابًا ينفذ منه إليه، فيسمعه أخيرًا.

- يمكن بتاع ماما ونجاة حطته بالغلط عند مصطفى!

- لأ، قالت مش بتاعها ولا شافته في حياتها!

وعم صمت للحظات، أذهب من غرابته صوت مرور الترام القريب، ذبذباته تكاد ترج الغرفة رجًا، يتجنبون تبادل النظرات وكرم يبحث عن كذبة تنقذ أخاه فتنقذه بالتبعية.

- صارحني، تعرف حاجة عن الموضوع؟

سأل صالح بنبرة حنونة، بينما صوت احتكاك عجلات الترام بالقضبان الحديدية، يسحب أذياله الأخيرة متلاشيًا، هز كرم رأسه بعنف وقال في لهجة صارمة لا يدري كيف استطاع ألا تفصح عن الرجفة التي اعتملت في نفسه.

- لا طبعًا، بس ممكن أتكلم معاه..

- حلو، هو مش حيصارح حد غيرك، اتكلم معاه من غير ما يعرف إني كلمتك لا يخبي عليك، أنت راخر، هاه فاهمني؟ وقولي ونفكر سوا بعدها، ماشي؟

وخبط بكفه على كتف كرم مشجعًا، ثم نهض وخرج من الغرفة تاركًا بابها مفتوحًا على اتساعه، وإذ هم كرم بالنداء عليه ليغلق الباب، عاد خطوات ومد رأسه عبر الباب قائلًا في شيء من الحزم وإن لم تبارحه الحنية التي كان عليها منذ لحظات:

- بابا قال مفيش أبواب أوض تتقفل في البيت ده من هنا ورايح، نسيت؟

تسرب إلى الغرفة صوت فردوس عبد الحميد وهي تخبر ميزو، أنها: «عزمت كل الشلة» على خلفية من موسيقى غربية. نفض كرم الغطاء عنه غاضبًا، اعتدل في جلسته يحاول أن يغالب الغضب ليتمكن من الخلوص إلى حبل نجاة، لو فُتح تحقيق حول ذلك الكلوت اللعين لتفاقمت حالته سوءًا وهو من يسعى إلى التهدئة كي تزول الغمة، لماذا أخذ مصطفى كلوت العاهرة من فرج! ذلك الغبي الأحمق! ونهض خارجًا من غرفته، فرأى نعمة على كرسيها بالصالة المظلمة إلا من نور التلفاز ينعكس على وجهها المستغرق فيما تشاهد، إلا أنها أحست به فحولت رأسها عن التلفاز وسألته مبتسمة:

- أعملك شاي؟

- شكرًا.

وحين رأته متوجهًا نحو غرفة مصطفى أخبرته أن مصطفى لم يرجع بعد، وشعر أنه حبيس

تلك الجدران الضيقة الخانقة، هل يمكث في البيت مساءً مثل النسوة.. أو مثل صالح، وهو قد وجد نفسه مضطرًا إلى الخضوع إلى عقوبة داود، فقط حتى لا يقطع عنه مصروفه، رأى أن شهرًا في البيت، أهون من أعوام الجامعة يقضيها كلها بلا مليم في جيبة! فلا يجد ثمن الحشيش والبيرة التي يشربها مع أصحابه فتذهب بعضًا من الكآبة عن صدره، لكن الشهر لا يكاد يمر، إنه يختنق يشعر أن روحه تنتفض داخل جسده عاجزة، يستيقظ صباحًا فلا يشعر بقدرة على مبارحة الفراش، يفكر في ألف طريقة للموت ثم يشفق على نعمة من إيجاد جثته. وأدرك فجأة أنه كان يدور في الصالة حائرًا، حانقًا، ورأت منه نعمة ذلك فقامت إلى التلفاز، خفضت صوته وطلبت منه بإشارة من كفها أن يجلس قبالتها، وقد رغبت نفسه عن محادثتها، فتذرع بالمذاكرة وقفل عائدًا نحو غرفته، إلا أنها استوقفته قائلة:

- خمس دقايق بس وروح ذاكر..

جلس أمامها مرغمًا، نافد الصبر، وتطلعت هي إليه بملامح تفيض حنانًا أغاظه، إذ لاحظ في تلك اللحظة مقدار التشابه بينها وبين صالح.

- توعدني تكون صادق معايا حبيبي، أنت عارف خوفي عليك، صح؟

- فيه إيه يا ماما بس؟

قالها متأففًا فلم تسخط عليه، وثابرت على التمسك بالهدوء نحوه لربما تمكنت من النفاذ إلى صدره واستخلاص الحقيقة منه كما كانت تنجح في ذلك زمان، حين كان صبيها الصغير اللطيف، وجمدت صورة ذلك الصبي أمام ناظري عقلها مستمدة منها الأناة والحكمة.

- حبيبي، أنا عارفة كويس، إن تفتيش أوضتك، ونراقبك، وبابك ميتقفلش ده مش الحل، مش يمكن بتتعاطى برا بالنهار ما بين الحصص مثلًا؟

- بتعاطى والحصص!

وكما مرت كلمة «بيزني» على أذنيه تاركة وقعًا يجمع ما بين الدهشة والهزل، فقد تركت عليه تلك الكلمات نفس الأثر، ووجد نفسه يجاهد حتى لا يضحك فتظنه نعمة مستهزئًا بمخاوفها.

- زي ما قولتلكم ميت مرة، ده كان بتاع واحد صاحبي، خلتهوله عندي فترة علشان خاف أهله يقفشوه، وخلصنا، دي الحكاية!

وجعلت تتطلع إليه بنظرات مكتظة بالشك والقلق، أرادت أن تحصل منه على اعتراف ثم وعد، إذ إنها تُدرك بفطرتها أن لا شفاء له إن لم يعترف.

- حبيبي..

قالت بحنو بالغ وهي تنهض من كرسيها ثم تقطع خطوات صغيرة وصولًا إلى أريكته، فتجلس جواره تأخذ كفه بين يديها فتلاحظ أظافره الطويلة السوداء، ثم ترفع كفها الأخرى فتمررها على ذقنه الذي كف عن حلاقته، تقول:

- ضوافرك ودقنك؟

يسحب يده من يدها متضايقًا، هل تظنه صبيًا يحتاج إلى تعليمات من أمه كي يقص أظفاره ويحلق ذقنه! لا ينقصها إلا أن تأخذه إلى البانيو فتحممه بنفسها!

- حتى البيجاما لابسها ليك أسبوع، فيك إيه؟

- حخش استحمى حاضر!

نطقها بنبرة قاسية وهو يهم بالنهوض، فتشده من راحته كي يبقى جوارها، تلف ذراعيها حول جذعه ترغب في عناقه، بينما هو جامد لا يُبدي رد فعل، لا يقدر على صد حنانها ولا يتمكن من التجاوب معه، يشعر بالقرف منها ومن كل شيء، تراجعت بجذعها عنه حين استشعرت من جسده صدًا، إلا أنها لم تستسلم تمامًا، أرخت راحتها اليمنى على فخذه، فانتابه شعور هائل بعدم الارتياح وأراد دفع كفها بعيدًا، قالت له:

- سنك طبيعي تحب تجرب، المهم متنساقش ورا التجربة وتذل وتوصل للإدمان، ريحني وقولي إنك جربت، وإنها مرة ومش حتتكرر..

- المسلسل حيفوتك يا ماما، وأنا عندي مذاكرة!

قالها وهو يهم بالنهوض، وزايلها الحنان إلى الغضب، يصدها صدًا لا لين فيه ولا مراعاة لأمومتها، ذلك الإصرار على الإنكار لا يعني لها إلا أن قدميه ذلتا بالفعل ولا استغناء له عن المخدر، هل تحبسه عن الجامعة إلى أن يتعافى! وعجز عن النهوض إذ ضغطت براحتيها على فخده، فذهِش من قوتها، ليس أن قوته عاجزة عن دفعها بعيدًا وهي هزيلة الجسد صغيرة الحجم، لكن لانه لا يحب أن يفعل بها ذلك رغم رغبته الجارفة في مفارقتها اللحظة!

- يندعق المسلسل، أنت أدمنت خلاص؟ مش قادر تبطلها؟

وانساب الحنان عائدًا إلى صوتها وهي تستكمل:

- قولي حبيبي متخافش، حساعدك...

فلم يتمالك إلا أن انفلتت منه الضحكات تلك المرة، نغمة منساقة إلى ما تشاهده من دراما،

ويذكر أنهم ذهبوا معًا للتفرج على «ثرثرة فوق النيل» في السينما منذ عدة سنوات، وقد خيل إليه أنها سوف تصرخ الآن متقمصة الشخصية التي أداها «عماد حمدي»: فوقوا بقى فوقوووا، أما هي فقد رأت في ضحكه استهزاء بها، فطار صبرها عليه أدراج الرياح، وانفجر الغيظ مخضبًا بشرتها السمراء:

- طااايب يا كرم..

قالت وهي تنهض غاضبة، ولكنه استوقفها قبل أن يعلو حسها وينفلت منه زمام الموقف، فسارع إلى سحب راحتها ثم قبلها وجعل يشدها لتعاود الجلوس جواره.

- ماما، عاوزاني أعترف بحاجة معملتهاش، ما انا ممكن أكذب عليكي وأقولك آه جربت مرة ومش راجعله، بس ده يبقى كذب بريحك بيه، يرضيكي أكذب؟

هذا إنه لن يعترف أبدًا بما لن تفهمه نعمة، كيف له أن يشرح لها أن الحشيش لا يسبب الإدمان! وإنه لا يعتبره إلا استجلابًا للمرح والتخفف من الضغوط في نهاية الأسبوع، وأن داود يشرب الخمر فيسكر وذلك مثل تلك! محال أن تستوعب هي ذلك، واعترافه لن يكون إلا جرًّا لقدميه إلى مزيد من القهر والقيود. وبدت على ملامحها حيرة يخالطها شيء من الشك ورغبة في تصديقه، وحل بينهما صمت للحظات ونعمة تتفكر فيما عليها قوله، فما كان منها إلا أن سألته عن الغيار الداخلي الأحمر، لو استشفت منه صدقًا فيما يخص تلك الرواية، ربما تصدق مزاعمه عن الرواية الأخرى، قال لها بهدوء واستسلام وهو يتنهد:

- أنا وعدت صالح حتكلم معاه..

- متعرفش يعني حاجة؟

- حعرف وأقولك وعد، ماشي؟

وأعاد تقبيل راحتها التي ما زالت بين يديه، ثم نهض متوجهًا إلى غرفته وأغلق الباب من خلفه دون أن تعترض هي.

***

لم أكن قد استغرقت في النوم حين فتح ياسين باب الغرفة ثم أغلقه بخفة، سحبت هاتفي من أسفل الوسادة أنظر إلى الساعة فكانت الثالثة ما بعد منتصف الليل، اتجه ياسين إلى التلفاز المفتوح على قناة الجزيرة أبدًا فرفع صوته، اعتدلت في الفراش أتطلع إليه مستغربة، وأنا أخبره بما يعرف بأن الناس في البيت نيام، رأيت ملامحه تشرق بابتسامة واسعة وهو يقترب من الفراش ثم يشد الغطاء من فوق جسدي، يتطلع إليه طويلًا حتى

توردت وجنتاي خجلًا وأنا أتساءل:

- في إيه؟

- فيه إنك جميلة!

ثم مد ذراعه يخلع عني بيجامتي وما إن تعرى جسدي، وانكشف ثدياي، حتى انتابني خجل شديد فأسرعت أشد الغطاء فوق جسدي، ليشده هو بعيدًا ويهوي بجسده فوقي يقبل نهديّ بينما يخلع عني سروالي، وصوت عايدة الأيوبي مع كاريوكي يطوقان الغرفة صادحين بأصوات عذبة: ياه يا الميدان كنت فين من زمان! وأنا أفكر أنه بالفعل: كنت فين من زمان! لم أشهد ياسين في حياتنا المشتركة كلها حيًا، منتشيًا، يمنحني جنسًا شغوفًا ممتعًا، كما هو خلال تلك الأيام المباركة حقًا وصدقًا.

***

عاد كرم يدفن نفسه تحت غطائه، يحاول إقناع نفسه بالاستحمام فلا تتحرك من جسده عضلة مستجيبة لإلحاح عقله، يروح في النوم وتداهمه كوابيس يستيقظ منها فزعًا، ثم يعاوده النوم وتعاوده الكوابيس حلقات متتابعة بلا توقف. سمع باب الشقة يُفتح قبل الفجر بقليل، وعرف أنه مصطفى فخرج يتسحب حتى لا يستيقظ النيام، وانضم إلى مصطفى داخل حجرته وبمجرد أن أغلق الباب من خلفهما قال حانقًا:

- فين الكلوت؟

وقبل أن ينطق مصطفى انفتح باب الحجرة عن نعمة، فالتفتا نحوها مندهشين، اجتازت باب الغرفة بعدة خطوات وأشارت لهما أن يتبعاها ثم ضغطت زر النور لتغرق الغرفة في الظلام. مشت بهدوء فاجتازت الصالة إلى حجرة الطعام ومنها إلى حجرة مكتب داود، وهما خلفها يتبادلان النظرات في اضطراب ودهشة، أضاءت نور غرفة المكتب ثم جلست على الكرسي وأشارت لهما إلى الأريكة أن يجلسا، تساءل كرم دون أن يجلس:

- إيه صحاكي دلوقت بس؟

- أقعد..

وجلس مستسلمًا إلى جوار أخيه، وكانت تتفحصهما بعيني محقق صمم أن ينزع اعترافًا عن المذنبين، وتثاءب مصطفى وقال بملل وخمول مُصطنع:

- عاوز أنام.

- جبت الكلوت منين يا مصطفى؟

وقال كرم:

- أنا مالي طيب؟

- أسكت أنت دلوقت!

لقد جفاها النوم وسيطر القلق على مشاعرها وصورة الغيار الداخلي تومض في رأسها بلا انقطاع، في البداية أرادت أن تتجنب مواجهته، لربما تضع الأمر كله بين يدي داود وتحت تصرفه، ذلك أنسب، وحين فتشت غرفته هذا الصباح دون أن تعثر على التهمة احتارت في أمرها وأرادت أن تقنع نفسها أن ما رأته كان وهمًا، ولكن صالح حجب تلك الرفاهية عنها بإصراره على مناقشة الموضوع معها دون توقف، قال مصطفى بهدوء:

- مش فاهم!

قالت بغيظ:

- يا مصطفى، كلنا شفناه واقع من دولابك ديك النهار، جبته منين؟

فرد ببساطة:

- آاااه قصدك اللي وقع من دولابي؟ ده نجاة حطته بالغلط عندي، كانت بتنضف بيه..

- كلام فارغ! جابته من بيتها يعني؟

- لا من أوضة بابا سري!

- نعم؟

- أيوة في درج الدولاب التحتاني بتوع تيته الله يرحمها، نجاة دايمًا بتسرقهم من وراه وتنضف بيهم... أو تلبسهم، مخدتيش بالك؟

- لا طبعًا نجاة تحت عيني طول النهار! وبابا سري حيعمل إيه بحاجة زي دي في دولابه يا ولد؟

- ما أنتي بتسيبيها تنضف وتروحي المطبخ تطبخي، وبابا سري جاب معاه كتير من هدوم تيته على فكرة!

- أنت كذاب!

- متشكر يا ماما!

- عرفت منين؟

- شفتها!

وكان كرم ينظر إليه ذاهلًا، متى وكيف اختلق تلك القصة العجيبة؟ وكيف يظن أن نعمة يمكنها ببساطة أن تبتلعها، وحل صمت بالغرفة حتى تركت نعمة كرسيها متجهة إلى المكتب ففتحت الدرج الكبير وأخذت منه كشاف النور، ثم قالت لهم:

- يلا نشوف!

رد كرم ذاهلًا:

- نشوف إيه؟

- دولاب بابا سري!

واتجهت بحزم نحو باب الغرفة فأغلقت النور غير تاركة لهما فرصة للاعتراض، ومضيا خلفها وبدا مصطفى لكرم واثق الخطى غير عابئ بانكشاف كذبته، ومشيا خلف نعمة على هذي المصباح الكهربائي تمده أمامها، عبروا الصالة إلى الصالون الصغير ومنه إلى غرفة بابا سري الذي كان مستغرقًا في نوم عميق يصدر عنه غطيط منتظم، وضعت أصبعها أمام فمها «شششش» وفتحت باب الغرفة بهدوء، قالت لمصطفى هامسة:

- وريني..

فتقدم وأخذ منها المصباح ثم توجه إلى الدولاب الخشبي ففتح درجه السفلي ووجه إليه النور، أزاح الغيارات الداخلية البيضاء الخاصة بسري، ومن أسفلها بانت غيارات داخلية نسائية صغيرة وأنيقة متراصة بعناية بالغة يتوسطها الغيار الداخلي الأحمر من الدانتيلا.

13

أبريل 2018

مصطفى داود على الطريق.

ردودها المقتضبة على أسئلتي لم تدفعني إلى حافة اليأس بعد، لكل إنسان مدخل ولكل واحد حكايته التي يتوق إلى أذن تسمعها، إنها بلا أطفال، هل كان ذلك الدافع للطلاق، سألت لأستفز رغبة الحكي فيها:

- ولا مخلفتوش؟

قالت إنها لا إنجابية، مثير! أليس هذا مما يتعارض مع الدين؟ دعيني أعرف عنك أكثر، وأخذت أتتبع الخيط متبعًا سؤالًا بسؤال، الحب أيضًا مما يثير شهية الحكي، أسألها:

- وكل ده عايشة single؟

صمتت! وسارعت كفها المرتعشة إلى إشعال سيجارة، لو لم تكن مرت بأي علاقات عاطفية، لأنكرت قولي واستاءت منه، أما أن تصمت فتلك قصة أخرى، أشعلت سيجارة أيضًا فالمشاركة في التدخين لهي أيضًا مما يذيب الحواجز بين الناس، وإذ بي أدندن مع أم كلثوم التي فرضت سطوتها على أذني فما عاد صوتها يضايقني:

«الليل اللي كان غربة، مليته أمان، والعمر اللي كان صحرا، صبح بستان».

وكما يقال: «الزن على الودان أقوى من السحر» وما الذي يمكن اعتباره إلحاحًا أكثر من أغنية تتخطى مدتها الساعة؟

وتشتتت أفكاري على وقع السعال يتصاعد من جوفها، آاه إنني أشرد، علي أن أبقي ذهني منتبهًا معها فلا أفقد خيط التواصل الناشئ بيننا، أعطيتها زجاجتي وأنا أسألها هل تقرف؟ وشربت، ربما خشية من رفض يحرجني، ثم قالت وهي تتأمل زجاجتي شبه منتهية، إن البلاستيك لم يتسبب فقط بالأذى للكوكب، وإنما كان سببًا في طلاقها، ومضت تحكي لي، أسمعها وأبتسم، بينما يردد عقلي:

- بينجوا عفارم عليك يا واد يا مصطفى..

احكي يا آلاء فكلما استدعيتِ ذكرياتك؛ أرسل عقلك المزيد من الإشارات، وأنشأ روابط تستدعي منك المزيد من الذكريات، ثم تنفك عقدة لسانك، بل وتتخلين عن حذرك، حتى تكشف كلماتك، ولو أبيتِ ذلك، عن مخبرك، دعيني أتعرف إلى مكنون نفسك لأفهم من أنت

ثم أكون قادرًا على عقد اتفاق ملائم معك، ومن يدري، قد ينجح ذلك الكتاب ويصير بالنسبة لنا مصدرًا لا بأس به لدخل جانبيّ يسد عند الحاجة!

14

Alaa Karam <l84dawood@hotmail.com> Fr, Jun 12, 2013 at 06:14 PM

To: yass77@hotmail.com

Subject: Miss u

وحشتني.

تايهة أوي من غيرك، والحياة في بيت جدو مش لطيفة لأن داليا هنا علطول بولادها.

المشكلة بين محمد وداليا كبرت خالص وشكلهم داخل في طلاق، عايشين في نكد رهيب وعمو صالح هايج على محمد ولا هوجة التور، وداليا أكيد حتنزل الطفل خلاص، خايفه ده يغضب ربنا.

حتقدر تبعتلي فلوس قريب؟ أنا مكسوفة جدًا من جدو، طبعًا هو مش حيرضى أشارك في مصاريف البيت، بس نظرات عمو وداليا ليا بقعدتي عند جدو مش مريحة أبدًا. كمان في مشكلة مواصلاتي ومصاريفي الشخصية زي الشامبو بتاعي والشاور جل والأولويز وخلافه، مليش عين أطلب منه. شغل البوسترات اللي عملته للأفلام القصيرة مش حاخد عليه فلوس، احتمال عبد الحي يقدر يجيبلي غلاف كتاب تاني غير اللي عملته، بس ضروري علشان أقدر أخد فلوس أبني لنفسي بورتفوليو قوي الأول، وعمو صالح خد السي في بتاعي يقدملي عنده في المينا، بس مش حاسة إن ده حيحصل، مش حاساه مهتم أصلًا، قالي فنون جميلة تعملي إيه في المينا؟ قولتله مش عارفة لو مكنش في المينا شوف أي شركة وحد من معارفك ووسايط كده، راح قالي حجرب وربك بيرزق، وأديني بحاول وخلاص. وإيمان أقنعتني أقدم معاها على ورشة الكاريكاتور في جوته، ولما شفت تفاصيل الورشة تحمست ليها جدًا، دعواتك اتقبل.

طلعت امبارح عند داود الصغير ورقية في بيتهم، عزموني على الغدا، ملقتش خالص البيت اللي اتولدت فيه، هدوا حيطان وبنوا حيطان ودهنوا حيطان، حسيت كأن جزء مني راح، كنت واثقة أني ححس ده علشان كدة كنت بتجنب أطلع عندهم من وقت ما اتجوزوا وسكنوا الشقة، كنت بعرف أتلكك بالشغل وإني بعيد في بيتنا (اللي كان بيتنا) لكن دلوقت مبقاش ينفع ولا يصح، كان لازم أطلع.

عارف هما مصممين أطلع ليه من رأيي؟ علشان يحسوا إنهم مغلطوش في حقي وحق

أبويا الله يرحمه لما خدوا الشقة ورموا لماما عفشها برا لما اتجوزت عمو فرج! عفشي كله مرمي فوق على السطح، وداود الصغير من بجاحته يقولي لو بس عندنا مكان كنا شيلنا عفشك فوق راسنا! أنا عرضت العفش للبيع ويا رب يتباع بسرعة قبل ما يتبهدل فوق، أنا آه غلفته كله بمشمع لكن مظنش حيصمد، لو دخل الشتا من غير ما يتباع يبقى عليه العوض.

المهم، احكيلي عنك وعن البلد، حلوة؟ مبسوط؟ والعقد مضيته؟ طمني أرجوك، أنا هنا على أعصابي.

مستنية رسالتك وحبعتلك تاني بكرة.

بحبك

آلاء

**

Yassin Abdallah <yass77@hotmail.com> Fr, Jun 12, 2013 at 12:26 AM

To: l84dawood@hotmail.com

Subject: Miss u 2

hi dear , my sweet love

miss u 2 too much

elbalad hena gamela awy but i am upset without u

i am very fine n7amd allah

by the way i am writing in english cause keyboard just eng :)

No news lesa about my 3a2d, 7atemenek lama ykon feh gded, ok?

I will try to send some money soon, meanwhile plz try to manage w olely masarefek, no need for shower gel w shampoo, use el sabona ya lolo, fatra w tmor

isa bokra yekon agmal :)

muuuaaaaaaah

16

Alaa Karam <l84dawood@hotmail.com> Fr Aug 25, 2013 at 11:10 PM

To: yass77@hotmail.com

Subject: replay please!

ياسين، أنت فين؟ ده خامس ميل من غير ما أسمع منك!

عندي كذا حكاية ...:)

بس عاوزه لما ابعتلك واحكيلك تبعتلي وترد عليا وتحكيلي

:)

أهم وأحلى حاجة إني مندمجة جدًا في ورشة الكاريكاتور، وفكرتني بالكوميكس اللي كنت برسمها زمان، وأنا صغيرة، فاكرهم؟

انهاردة كنت مع ماما، جت اسكندرية بس رفضت تبات، سلمت على جدو وتيته سلام ناشف وهما كمان مكنوش مرحبين أوي، لا هي عاوزة تنسى ولا هما كمان.

لما نزلنا فضلت بردو تقولي كلام عن الشقة وإنها ورثي من أبويا وإن تيته طول عمرها تحب صالح وتدلعه وتظلم بابا حتى بعد ما مات.

جبنا نص نقل حملت السفرة وأوضة النوم، وادتني فلوسهم واهم ينفعوا الفترة دي لحد ما تبعت فلوس.

هي عرفت تبيع عفشها بتاع شقة القاهرة قبل ما تيجي، ماهو كان اتبهدل كدة كدة لما اتركن على السطوح شهور.

نزلت معاها الإبراهيمية بتجيب فوط و ملايات من شارع لاجيتيه.

خد بالك، ضروري تلحقني قبل ما ابوظ.

امبارح كنت بحلم بحد معرفوش بيدلعني وبيعاكسني

وبيهتم بيا

أنا محتاجة لحنان ولو بالكلام.

وانا بكتبلك الميل ده نرمين كلمتني وفكرتني إنه عندنا قرآن بكرة

بفكر أخلع منه خالص

مفيش فلوس!!!!!

أخبار شغلك ايه؟

والعقد يا ياسين؟ مضيت العقد؟ حتاخدني من هنا إمتى، البلد خلاص حيحكمها العسكر ومعدش لينا عيش فيها!

17

أغسطس 2013

آلاء كرم داود، معهد جوته بالإسكندرية.

أتخذ ركنًا من القاعة البيضاء الصغيرة، بعد أن ألقي عليهم تحيات سريعة مصحوبة بابتسامات مجاملة، يردون التحية بمثلها أو أقل منها. الحق أنني لم أشعر أبدًا أن لي وجودًا بينهم.

أتفحص هاتفي وأعاود تفحصه، أين اختفى ياسين؟ أحلم بالسفر إليه، لم يعد في قلبي لتلك البلاد إلا مقت وبغض، لمَ تسير الأمور بسلاسة في حياة أصحابي، يتزوجون، يسافرون، ينجبون، وعند عتبتي تتعرقل الأشياء البسيطة، تنكسر أقدامها، تحتضر، تموت، فلا أحظى من الحياة إلا بجثث متعفنة! وإنه لجهاد من نوع ما أن أجد نفسي بين أولئك الناس، يسبون دين الإخوان المسلمين ليلًا نهارًا وكأن الإخوان هم المصدر الوحيد والحصري لكل مشاكلهم في الحياة، لا يقيمون وزنًا لحرمة الدم الذي سال في فض اعتصام رابعة العدوية، تلك الجريمة البشعة التي ستظل أبدًا نقطة سوداء في تاريخ مصر! لقد شاركوا جميعًا في الكرنفال الفضحك يوم الثلاثين من يونيو مدعين أنها «ثورة»! ومال ما حصل ومال الثورة؟ يقفون إلى جوار الداخلية قدمًا لقدم ويدعون أن تلك ثورة؟ أليست تلك الداخلية نفسها التي بينها وبين الشعب ثأر لم يؤخذ بعد! هراء.

يغضبني حديثهم كما أغضبتني حلقة باسم يوسف وهو يقفز كالبهلوان فوق جثث شهداء لم تجف دماؤهم بعد، ولولا تلك الورشة ما برحت المنزل قط كي لا أؤذي أذني بنباح الناس في الشوارع، ولكن الأذى الحقيقي يقع هنا، داخل تلك الغرفة المكتظة بالموبقات، أبدان معروضة، شعور مكشوفة، يتبادلون التحية بالأحضان رجالًا وسيدات، لا عجب أن يكرهوا الإخوان بكل ذلك القدر، يريدون لمصر أن تكون علمانية ليطلقوا شهواتهم بلا قيد ولا شرط!

قرأت اقتباسًا يتداوله الناس على الفيسبوك، منسوبًا لنجيب محفوظ: «إني أرى الشهوة غريزة حقيرة، وأمقت فكرة الاستسلام لها، لعلها لم تخلق فينا إلا كي تُلهمنا الشعور بالمقاومةِ والتسامي، حتى نعلو عن جدارة إلى مرتبة الإنسانية الحقة، إما أن أكون إنسانًا أو أن أكون حيوانًا» ويا إلهي كم أحببته، أردت أن أدفع به إلى عقول من يسمون أنفسهم بـ«المثقفين» وكل ما يبغونه حقًا هو إطلاق العنان لشهواتهم دون رادع يعكر أمزجتهم بكلام عن الحلال والحرام، ما يجوز وما لا يجوز. أولئك الذين اختاروا أهواءهم ربًا مطاعًا عوضًا عن الرحمن العظيم القادر المعز المذل، واهمين أنفسهم أنهم بذلك أحرار من العبودية، وما هم إلا عبيد

غرائزهم!

وقد أعدت نشر المقولة مرارًا وتكرارًا وبي رغبة لا أستسلم لها بأن أرسلها إلى أشخاص بعينهم، لأرى ما عندهم من حجة في مقابل كلمات كتلك. إنهم لا يقيمون لكلمات الله ورسوله وزنًا ولا اعتبارًا، فإن أردت أن تحاجيهم عليك بكلمات العلم وعلماء الغرب الذين من لم يؤمن بهم فقد ضل وحُرم من جنة الانتماء إلى دوائرهم. وقد كنت للأسف في حاجة إلى دوائرهم لأتمكن من إيجاد مكان لنفسي كمصممة لأغلفة الكتب. لا بد أن يتاح لي تصميم عدة أغلفة ولو لكتاب لم يسمع عنهم أحد، لكي أتمكن من بناء بورتفوليو قوي أستطيع من خلاله إيجاد عمل ثابت في دار نشر أو مكتب تصاميم يعمل لصالح دور النشر، أما عن بوسترات الأفلام فما هي إلا فترة مؤقتة، لبنات أستهل بها البناء، وأدفع بها نفسي خطوات صغيرة على الطريق، وإن كنت لا أنوي التوغل في طريقها، ما هي إلا سيئات جارية لا قبل لي بها وقد أثقلت ميزاني بالفعل.

هدأت القاعة بوصول زين خير، رفعت رأسي أتطلع إليه، عظام وجهه تلك المنحوتة مثل التماثيل اليونانية، مؤطرة بشعره الأسود الغزير، الناعم، يجمعه على هيئة ذيل حصان عند مؤخرة رأسه، لِمَ لَم يفرض الله الحجاب على الرجال؟ أليست عضلات صدره تلك يبروز ما بدا منها مثلث القميص الذي ترك أغلب أزراره مفتوحة، مثيرة للشهوات! تلح على عقلي ذكرى حلم الليلة الماضية، فيرتجف لها قلبي، كان هو من زارني فيه يغرقني حنانًا واهتمامًا لا أراه منه في الحقيقة، إذ كان متباعدًا، باردًا، وجميلًا! جميلًا؟ أستغفر الله العظيم يا رب، لو لم يدركني ياسين قريبًا جدًا لهلكت واستسلمت أنا أيضًا لما يجعل مني حيوانًا، لا، ليس واردًا مهما زلت قدمي، أن أتقرب من زين على أرض الواقع، إن ذلك مما يفوق قدراتي أصلًا، إلى جانب بالطبع أن زين نفسه لا يعلم بوجودي على سطح الأرض، فإن وقعت عيناه عليّ أثناء الورشة لا يميز بيني وبين الطاولة التي أجلس إليها، وإن ذلتي لن تعدو أن تكون محض خيال، أضع بعض الموسيقى الهادئة، أظلم الغرفة إلا من شمعة لها عطرٌ هادئ، أغمض عيني وأدع زين في عين خيالي يعبث داخل أحلام يقظتي حتى أبلغ النشوة، وعقب النشوة أتجرع مرارة الذنب وأنا أذكر ياسين مغتربًا يشارك غرباء حجرة واحدة لأجل أن تنصلح حياتنا! نعم فعلتها من قبل وندمت عليها ندمًا مريرًا، تبت من ذنبي إلى الله وصرفت خيال الليالي عن زين، حتى جاء يزورني في الحلم! لعنة الله على الشيطان ألف مرة، مر على ياسين في غربته ما يزيد على خمسة أشهر، فمتى يأتيني الخلاص؟

وانكب زين يركب توصيلات البروجكتور، ثم جعل يضبط الصورة على شاشة العرض البيضاء في صدر القاعة، وأنا أراجع هاتفي فلا أجد رسائل من ياسين، تنتابني رغبة جارفة

في قذف موبايلي تجاه ذلك الحائط أمامي ليتهشم قطعًا صغيرة، ثم أهشم رأسي على نفس الحائط! ونفخ زين خير ساخطًا حيث كانت الصورة المنعكسة من البروجكتور تعانده فتظهر صغيرة جدًا أو ضخمة، مهزوزة أو منسابة أطرافها خارج نطاق الشاشة إلى الحائط، وهو يضغط أزرارًا ويعالج مشكلة لتظهر أخرى، قامت إيمان وذهبت إلى الخارج ثم عادت بشاب غامق السُمرة، متوسط الطول رشيق الجسد، تومض في وجهه الأسمر عينان واسعتان بلا أهداب، شعره الأسود الطويل مجدول في ضفائر كثيرة، من هذا؟ اتجه رأسًا إلى البروجكتور وتنحى له زين خير، فلم يتطلب الأمر منه إلا دقائق معدودة حتى صارت الصورة مضبوطة، واضحة، وسألت إيمان التي عادت تجلس إلى جواري عن الشاب فقالت إنه فاضل، شاب نوبي وُلد في أمريكا، وهو الآن في مصر مؤقتًا على جناح منحة إقامة لأجل دراسة أنثروبولوجية، ثم مضت تحكي عن جمال الندوات التي ينظمها فاضل حول «مقارنة الأديان» في عدة أماكن بالإسكندرية، من بينها: «وكالة بهنا». ظلت عيناي مثبتتين على الرجل حتى انتهى من تبادل بضع كلمات مع زين وخرج من القاعة، ما هو علم مقارنة الأديان يا ترى؟ دفعني الفضول تجاه الشاب وما يفعله إلى أن أتفق مع إيمان أن تأخذني معها لإحدى تلك الندوات التي ينظمها.

اتجه زين إلى الحائط جوار الباب حيث زر النور لإطفائه وبدء العرض، إذ بصوت فرقعة مكتومة يرتفع بينما تغرق القاعة في ظلام حالك. «انقطع النور!».

"What the fuck"أفلتت من زين في نبرة حانقة بينما يفتح باب القاعة، يتطلع نحو الخارج، ثم يمرر رأسه عبر الباب معلنًا «بريك» لحين عودة الكهرباء، وجاءني إشعار برسالة إلكترونية من ياسين ففتحتها بسرعة:

18

Yassin Abdallah <yass77@hotmail.com> Fr Aug 25, 2013 at 07:10 PM

To: l84dawood@hotmail.com

Subject: .جرب حتى لو لم تكن غير مصدقًا

أرسل هذه الأسماء الحسنى الخمسة إلى أحد عشر من أصدقائك وسترى أن أكبر مشكلة عندك ستنحل بإذن الله تعالى.

جربها حتى لو لم تكن مقتنعًا بها:

يا الله

يا كريم

يا أول

يا آخر

يا مجيب

يا فارج الهمّ،

ويا كاشف الغمّ،

فرّج همي ويسّر أمري

وارحم ضعفي وقلة حيلتي

وارزقني من حيث

لا أحتسب يا ربّ العالمين

قال صلّى الله عليه وسلّم:

«من قرأ هذا الدعاء وأخبر الناس به فرّج الله همّه».

Alaa Karam <l84adodawood@hotmail.com> Fr Aug 25, 2013 at 07:12 PM

To: yass77@hotmail.com

Subject: wtf!

WHAT THE FUCK!

Yassin Abdallah <yass77@hotmail.com>

Fr Aug 25, 2013 at 09:25 PM

To: l84dawood@hotmail.com

حوصل مصر كمان أسبوعين إن شاء الله. تعالي نتقابل في شقة سيدي بشر ونتكلم شوية.

نوفمبر 2013

آلاء كرم داود، أمام مكتب المحامي، الإسكندرية.

حط ياسين على حياتي على جناح دعوة مُجابة. ما كانت خالتي سامية إلا الأداة التي استخدمها الله ليجمع شملنا. قالت لأمي إن قريبًا لزوج ابنتها يبحث عن عروس، وارتسم النفور المعتاد على وجهي، ألا تمل تلك العائلة من محاولات تزويجي التي تبوء كلها بالفشل! ألم يدركوا بعد أنني قبيحة، مملة، فلات، لا أجذب تلك النوعية من العرسان الذين ينتقون من بين الفتيات كما تنتقي طنط سامية نفسها الفراخ من عند الفرارجي!

إلا أنني وافقت على اللقاء إكرامًا لطنط سامية، التي دومًا ما أرى منها حبًا ممزوجًا بالشفقة على عنوستي المرتقبة. شفقة لا تسعى إلى مداراتها إذ تنتهي من تقبيلي ثلاث قبلات ثم تمصمص شفتيها قائلة في حسرة: «والنبي دمك سكر، وتستاهلي سيد العرسان».

والحق أنني ذهبت مستاءة، فما وقعت عيناي عليه حتى طار استيائي مهب غمازتيه! طويل جميل مُشرق الوجه، صدر عريض تبرز عضلاته واضحة من تحت التي شيرت، «آاااه أحدهم يذهب إلى الجيم»، عينان عسليتان مكحولتان بلا كحل، هذا إلى تلكما الغمازتين تضيئان وجنتيه كلما ابتسم لي، وهو لا يكف عن الابتسام! وفي اللحظة التالية لتبخر استيائي، جاءني كدر في صورة أنني لن أتلقى إلا رفضًا جديدًا، ولمَ قد يتزوجني ذلك الشاب الوسيم، الذي هو صدقًا أجمل مني!

إلا أننا، أنا وماما، فوجئنا به يطلب لقاء آخر! ونعم حتى ماما فاجأها الأمر، فهي لم تكن يومًا من تلك الأمهات اللاتي يتراءى لهن قردهن غزالًا، لطالما أخبرتني أن أكف عن «التناكة» ورفض العرسان، لأنني متوسطة الجمال، ولست حتى من عائلة ذات مال، بعد أن فقد جدي المتروبول وبدد كله أمواله على القضاء والمحامين!

خلال اللقاء التالي عرفت لما لم يرفضني ياسين، عرفت ذلك حين حكى لي أنه أحيانًا ما يؤم المصلين في صلاة التراويح بمسجد سيدي بشر، لم أعترف له وقتها أنه جاء إليَّ استجابة لإلحاحي في الدعاء رمضان الماضي، عرف ذلك مني فيما بعد، عند مكتب المحامي حيث جاء المأذون يُطلقنا.

بعد ذلك الإعجاب الأول بهيئة ياسين، وخلال اللقاءات التالية، لم يغادر قلبي منطقة الإعجاب إلى منطقة العشق، لكنني تزرعت بالحكمة، وقلت لنفسي إنها العشرة، بها يتحرك

قلبي إلى ما أصبو إليه من عشق، ووجدتني أنساق إلى رغبته المتعجلة في تخطي الخطبة إلى كتب الكتاب، ثم زواج بعده بأشهر قليلة. لمَ لا أليس هو استجابة لدعواتي؟ أليس خلوقًا، هادئًا، متدينًا ورزينًا! وجميلًا، إنه جميل أشعر بالفخر وأنا أسير إلى جواره في المناسبات العائلية وتجمعات الأصدقاء، فخر الفتاة التي اعتادت على نظرات الشفقة من أعين الجميع، لأنه من المستحيل أن يتزوجها أحد.

والحق أن ياسين بمرور الوقت وطول العشرة بيننا أثبت أنه بالفعل طيب وخلوق، هادئ بشكل مبالغ فيه كما تبين لي فيما بعد. وقد اعترفت له أنني لست هادئة كما قد يبدو مني، وأنني قد أنساق إلى نوبات غضب غير مبررة وليست منطقية، وتلقى اعترافي مبتسمًا، يومئ رأسه متفهمًا. هل تتحمل مني ذلك؟ طبعًا، دون شك! وقد صدق. لا يغضب قط مهما بدر مني من نوبات هيستيرية ونفاد صبر وقلة حيلة، هذا لأن ياسين لا يخلف الوعود التي قطعها على الشاطئ حين كانت الشمس مشرقة، والبحر رائق، مهما ظهرت وعورة الماء وعصفت الريح فيما بعد، يظل صلدًا باقيًا على الوعد. هكذا هو ياسين، شخص ثابت لا يتغير، بينما أتغير أنا.

بعد أن وثق المأذون طلاقنا بشكل رسمي، مضى ياسين على الورقة التي تضمن مستحقاتي وسلمها لي مع نفقة الشهر الأول. في الأسفل عند باب العمارة أخبرني أن طائرته سوف تقلع فجر اليوم، ودعنا بعضنا بعضًا دون سلام بالأيدي، وكان ذلك غريبًا، لقد صار ياسين الذي عشت معه ست سنوات تحت سقف واحد أجنبيًا، ياسين الذي لم يرَني أحدًا سواه عارية، ولا حتى أمي، صار غريبًا لا يحل له حتى أن يلمس كفي.

قدت سيارتي على الطريق دون أن أحدد لنفسي وجهة، تدفقت على رأسي كل اللحظات الحلوة التي خبرتها مع ياسين دون ذكرى واحدة سيئة، تومض في عين رأسي عيناه الطيبتان، ابتسامته الرقيقة وغمازتاه، أمطرتني شتى المشاعر المتناقضة، هل كان قرارًا خاطئًا؟ هل أعيش حياتي كلها وحدي؟ ومن ذا الذي يقبل بي وأنا القبيحة المطلقة! خفق قلبي بعنف، حاولت أن أذكر نفسي عبثًا أن ذلك قرار ارتحت إليه بعد الكثير والكثير من صلوات الاستخارة، فضلًا عن أيام من التفكير والسهاد والنقاش مع ياسين. شعرت بنفسي دائخة وأردت لعقلي شيئًا من الراحة، لو كلمت ماما الآن لن أجد منها إلا غضبًا وتوبيخًا، لم أخبرها عن طلاقي بعد، كما لم يخبر ياسين أحدًا من أهله، كان قرارنا المشترك الذي اتفقنا على ألا يتدخل أي شخص في تفاصيله.

وجدت نفسي أكلم عبد الحي، سألته عن مكانه فأخبرني أنه مع إيمان في طريقهما إلى نادي سبورتنج حيث ينزلان البيسين المغطى، قال إنهم يدفئون ماء البيسين خلال شهور الشتاء، ثم عرض عليّ أن أنضم إليهما فوافقت دون تفكير! لم أجد في نفسي قدرة على

المرور ببيت داود لإحضار المايوه، الفلوس التي أخذتها من ياسين تملأ محفظتي، قررت شراء مايوه من متجر النادي رغم ارتفاع أسعاره.

قاعة البيسين المغطى كانت دافئة حرفيًا ومجازًا، البخار يتصاعد من حمام السباحة سابحًا في الهواء، الإضاءة برتقالية خافتة، وخطوط متموجة زرقاء تنعكس على الجدران والسقف، كما أنها كانت خالية إلا من إيمان وعبد الحيّ وكأنها خصصت لنا وحدنا!

ما إن وقفت على حافة البيسين، حتى قفزت داخله ثم غطست داخل المياه الدافئة طويلًا، أعمل ذراعيّ وقدميّ سباحة على طول البيسين، أشعر أن عضلات جسدي تفك وترتاح رويدًا، أغطس وأسكب دموعًا داخل الماء ثم أخرج، وحين أسندت ذراعيّ إلى حافة البيسين لأرتاح جاء عبد الحيّ جواري فقلت له فجأة ودون ترتيب:

- أنا وياسين اتطلقنا!

فتح ذراعه وتلقفني داخل حضنه دون معارضة مني، كان وهنًا يتلبسني وكم كنت في حاجة إلى عناق صديق! هدأت مشاعري بينما ينتفض قلبي محبة لذلك الصديق الوفيّ الذي تلقى صدي له وبرودي معه برحابة صدر، ثم وجد طريقه عائدًا إلى حياتي بالضبط كما فعلت مونيكا مع فيبي، ارتفع صوت الصفارة من خارج البيسين تحذرنا من مخالفة القواعد، فاشتعل وجهي خجلًا وأنا أبتعد عنه، قالت إيمان ضاحكة وهي ترفع رأسها من تحت الماء:

- كسمهم..

وقلت أنا لعبد الحيّ مستدعية جملة مونيكا لفيبي:

- Of all the people I have cut out, you are the only who ever clawed his way back in!

الفصل الرابع

جانب من أوراق «سري علي مصطفى محمد سليمان الجن»:

ولي من الأخوات تسعة، من بينهم صفية وتزوجت ابن عمتها المرحوم مالك سيف الله (تركي طبقًا) وأنجبت منه مؤمن وراضية وعفاف وعبد الفتاح وهي مقيمة بكفر الزيات مع ابنها مؤمن موظف بالبلدية المعاش. وكانت الاتصالات بينها وبين باقي العائلة شبه مقطوعة لانشغال كل إنسان بأموره. وماتت عن 92 عامًا تقريبًا وأبناؤها لا يتصلون بنا إطلاقًا بتحريض من أبيهم المعلون لأنه كان حقيرًا وطماعًا وكان يرغب في أن نساعده على المعيشة وكان يرغب في أن يرمي جثته علينا، فيما لم يكن في وسعنا أن نساعده لانشغال كل منا في حاله، وكنا صغارًا وكان هو في حالة مالية أحسن منا، ولكن غباءه وإسرافه جعله يتصور أننا ملزمون بإعالته رحمه الله ورحمنا.

وأما أصغر إخوتي فهو محمد وكان تعيسًا غير موفق في حياته، وعاش بائسًا معذبًا من ظلم من أخينا الأكبر مصطفى، وسيحاسبه الله حسابًا عسيرًا على ظلمه لنا جميعًا، وأكل حقوق العائلة كلها بالباطل، هو والمدعو مصطفى ابن امرأته لعنهم الله جميعًا، ومات محمد عقيمًا رحمه الله ولعن أخاه مصطفى الذي أذاه وأذاقه العذاب طوال عمره.

1

مايو، 1993

آلاء مع أبناء عمها صالح، قاعة البيانو، المتروبول.

يمرر مالك أصابعه على لوحة مفاتيح البيانو، يعزف لحنًا عشوائيًا، مضيقًا عينيه، يهز رأسه المرفوع خفيفًا بثقة ووقار عازف يعتز بما ترسله أصابعه من ألحان. الحق أن الصوت الدائر في غرفة البيانو العريقة لم يكن إلا نشازًا لم تنفذ منه حتى ولا جملة موسيقية واحدة سليمة. إلا أن مالك بدا عن جد مندمجًا تتبع أذناه بفضول ما تخط به أصابعه على جدران الفراغ حوله من موسيقى، كما تتبع عيناه حركة أصابعه على لوحة مفاتيح البيانو، كلما ضغط منها زرًا ثم آخر، أدهشه تنوع النغمات وتباين طبقاتها وتفاوت درجة علوها حسب لمسته حتى لنفس المفتاح. رفع رأسه عاليًا، متخيلًا جمهورًا عريضًا يتحلق من حوله، وقد كان بالقاعة جمهور بالفعل، إلا أن ذلك الجمهور يترقب بصبر فارغ أن ينتهي مالك من معزوفته حتى يحين دور كل منهم. ينهي مالك المقطوعة بثلاث ضغطات طويلة على المفاتيح الثلاثة الأخيرة بينما يتطلع إلى جمهوره بابتسامة يملؤها الفخار، يصفق الأطفال جميعًا ثم سرعان ما تتداخل أصواتهم كلٌ يطالب بالدور التالي لنفسه.

قاعة البيانو داخل المتروبول هي ملعبهم المفضل على الإطلاق. يلمع خشب البيانو الأسود عاكسًا ضوء الشمس المتسلل من نوافذ القاعة الكلاسيكية. يُسمح لهم باللهو داخل القاعة خلال ذلك الوقت من النهار، إذ إن العازف لا يأتي إلا مساء، حينها يجتمع بعض نزلاء الفندق على المقاعد الكلاسيكية الحمراء، ينصتون إلى موسيقاه بينما يحتسون كؤوسًا من مشروبات مُحرمة، يراقبهم الأطفال إن تواجدوا بالفندق ليلًا بأعين فضولية عبر باب القاعة، لا يبدو عليهم شكر مما يرونه على أبطال الأفلام، فلا يرونهم يترنحون هازلين بألسنةٍ ثقال، وإنما يجلسون في وقار واندماج، ثم يصفقون بحرارة عند نهاية كل وصلة موسيقية.

maktabbah.blogspot.com

الآن يتشاجر الأطفال فيمن عليه الدور ليكون العازف تلك المرة، كل واحد منهم يكره أن يكون الجمهور، كل واحد منهم يشعر أن عزفه متناغم وممتع بينما الآخرون لا يصدرون إلا نشازًا مزعجًا.

تُسكت آلاء شجارهم بششششش حازمة، لو عبرت أصواتهم باب القاعة فانزعج منها النزلاء وتقدموا بالشكوى، ستكون العواقب وخيمة، قد يمنعهم داود عن اللعب في تلك الغرفة نهائيًا. تجري آلاء نحو رأس القاعة ثم تعود بحقيبة ظهرها، تسحب من بطنها أحد دفاترها، تقطع منه ورقة، تقصها إلى أوراق صغيرة، ثم تخط عليها الأسماء «داود» «داليا» «شريهان»

«آلاء» تستثني مالك لأنه عزف للتو، ستطوي تلك الأوراق الصغيرة، تخلطها جيدًا، ويسحب مالك منها بالدور ليحددوا تتابع العزف دون شجار.

رجت آلاء الورقات داخل كفيها الصغيرتين، مدتهما إلى مالك متلاصقتين، تطلع إليها لحظات بعيونه السود الواسعة، ثم همس شيئًا في أذنها اليمنى قبل أن يسحب الورقة الأولى.

- حقول تعويذة سحرية تخلي اسمك يطلع الأول.

بادلته النظر في حب وامتنان، فرك كفيه بشدة، قربهم من فاه ثم همس داخلهما، مد أصابعه وسحب ورقة، فتحها ببطء، ابتسم وأدار الورقة تجاه عيون الأطفال ليقرؤوا داخلها (آلاء).

2

أبريل 2018

آلاء ومصطفى على الطريق.

تمهلت السيارة شيئًا فشيئًا وهي تقترب من محطة الوقود حتى دخلتها، ركن مصطفى السيارة بمحاذاة المبنى الأحمر الصغير الملحق بالمحطة، تتصدره لافتة ضخمة، حروفها اللاتينية مضاءة بلمبات حمراء، «Highway coffee».

داخل «إتش.ك» سألها مصطفى لو تأكل شيئًا مع قهوتها، فرفضت شاكرة ووقفت في الطابور أمام الكاشير، بينما ذهب مصطفى إلى الفاترينة الزجاجية عند نهاية الكاونتر، فمرر بصره على المعروضات ثم عاد إلى طابور الكاشير وكان خلف آلاء رجلان فوقف خلفهما بينما يتساءل عقله أليس من الذوق أن يدفع عنها حساب قهوتها؟ لكنها دفعت قهوتها وتنحت جانبًا إلى حيث تنتظر استلامها، وحين انتهى وقف جوارها وهو يقول بصوت مرح:

- جبت تشيز كيك ومافن، نشير مع بعض بقى.

فقالت إنها ليست جائعة على الإطلاق، وهو سكت متضايقًا بعض الشيء دون أن يفهم تحديدًا ما ضايقه، وكانت تتساءل إن كانوا سيجلسون في إتش.ك، إذ ظنت أنهما سيبتاعان القهوة ثم يرجعان إلى الطريق مباشرة، وحين استلمت قهوتها وقفت حائرة لدقائق حتى قال لها أن تجلس إلى أن يتسلم هو أيضًا طلبه:

- حنقعد هنا؟

- آه نشرب قهوتنا وناكل، عندك مانع؟

- لا..

وتحركت نحو البار المرتفع عند الفاترينة الزجاجية لإتش.ك فجلست وأشعلت سيجارة وشعرت أنها كانت سخيفة معه، والآن عليها أن تجاريه، قد يطلب منها مذكرات كرم بمجرد وصولهما إلى البيت، ونجوى قادمة في الصباح، والآن أيضًا مع استراحة الطريق تلك نوبة الفزع التي سبقتها قد يبلغان الإسكندرية في حدود الثانية صباحًا، كيف تخرج من بيت داود بعد أن تصل إليه في ذلك الوقت المتأخر! متى تصل نجوى يا ترى؟ إنها مخاطرة أن تنتظر حتى الصباح، لا بد أن تتحرك من بيت داود فجرًا، سوف تحس بها نعمة وتسألها أين تذهب في مثل ذلك الوقت، فما هي الكذبة المناسبة؟ أم لعله أفضل لو عرفت كيف تتحايل على مصطفى لتجعله يمر بها على الشقة قبل بلوغهما بيت داود، ما هي القصة التي يمكن أن

تؤلفها فيصدقها؟ وشعرت برأسها يؤلمها، أرادت أن تختفي ببساطة فلا تترك أثرًا حتى من ذكرى، وكأنها لم تكن ولم توجد ولم يعرفها أحد، تختفي هنا في منتصف الطريق بين القاهرة والإسكندرية. وكم كانت حياة داود زاخرة أليست خسارة فادحة أن يؤول ذلك كله إلى تراب؟ وقد ساق الله زهير فؤاد إلى تلك الشقة لا ليموت هو أيضًا بلا طائل، ولماذا تبدو فكرة «الموت» مغرية؟ لطالما عرفت أن أباها مات منتحرًا ولكن لماذا انتحر؟ هل كان بائسًا في الحب مثلها! لم تتمكن من قراءة المذكرات بعد، إنها حتى لا تقدر على الذهاب إلى شقتها التي أوت كل لحظات الحب مع فاضل، أشهر مرت وهي لا تزال عاجزة عن تجاوزه. تتدفق على عقلها كل الذكريات بلا انقطاع، على وقع أغنية أحباها سويًا، بيت شعر قرأه عليها، رواية تناقشا فيها، إنها حتى تنهمر في البكاء إن مرت بالقرب من شقتها، فكيف تقدر على دخولها؟ إنها ليست في حاجة لأن تقرأ مذكراته حتى تعرف السبب! قرار كهذا محال أن يكون نابعًا من أسباب واضحة ومفهومة للآخرين مهما حاولوا! نعم يا بابا أفهمك تمامًا، الضغط على زر النهاية بإرادتك الحرة بعد أن انفلتت أصابعك عن كل الموجودات، ليتكشف لك أنك مكثت عمرًا طويلًا تتشبث بسراب، وأن العالم لم ولن يعمل وفق إرادتك. فما يتبقى لك إلا موتك، تُخضعه لإرادتك الحرة!

رص مصطفى مشترياته من التشيز كيك والمافن أمامها على الكاونتر، وضع قهوته، ثم جلس.

3

يناير 2015

آلاء كرم، الإسكندرية/ القاهرة.

وقفت بالقرب من باب محطة سيدي جابر أنتظر وصول عبد الحيّ، وقد وضعت نظارات شمسية ضخمة على وجهي، ليس لأن الشمس اشتدت، إذ إنها نادرًا ما تشتد خلال يناير، ولكن لأنني لم أكن قادرة بعد على تلقي أي شعاع منها مهما خفّت، الناس يمرون جماعات وفرادى حاملين حقائب ضخمة وأخرى صغيرة، يعبرون حشودًا من باب المحطة الذي لم يسبق وتجاوزته، لا أدري كيف تكون الحال داخل المحطة، أين أتجه وكيف أعثر على القطار الذي سوف أركبه، وفي ذلك أعتمد اعتمادًا كاملًا على عبد الحيّ وإيمان، لا أحب الانتظار، يضعني في حالة سيئة من القلق والتوتر، وها أنا كلما وقفت سيارة أو تاكسي بجوار رصيف المحطة، أتطلع إلى النازل منها بحثًا عنهم، لماذا تأخروا؟ رأيتهم يترجلون أخيرًا من إحداها، تبدو إيمان مشرقة الوجه، يسبح ضوء الشمس داخل خضراويها فيلتمعان وتتبدل ألوانهما كحجري زمرد، ويتلاعب الهواء بشعرها الرماديّ الممّوج، لم ألحظ قبلًا مقدار جمالها، تلك البشرة الخمرية والملامح المنمنة تُذكر بالقطط الصغيرة، ليس غريبًا أن يهيم بها عبد الحيّ عشقًا! ورغم أننا صرنا نمضي الكثير من الوقت سويًا، إلا أنها لم تحك لي أبدًا عن أي علاقات عاطفية في حياتها، ذلك جانب ملغز منها.

عبرنا باب المحطة بعد أن وضعنا حقائبنا على سير الإكس راي الذي لا ينظر إلى شاشته أحد.

تركت لي إيمان المقعد المجاور للنافذة، وسحبت كتابي من حقيبتي عقب جلوسي مباشرة إلا أنني لم أفتحه، وإنما أرسلت بصري عبر الشباك أراقب الإسكندرية تتراجع أمامي إلى الخلف حتى تتلاشى رويدًا، وسألتني إيمان عن الكتاب الذي أحمله فحكيت لها عنه بحماس خليق بحبي لذاك الكتاب تحديدًا، خلوة الغلبان لإبراهيم أصلان، كتاب أقرؤه كلما شعرت بالحزن، فيطرد عن قلبي الضيق ويرسل البهجة إلى صدري، ولم أدر إلا وأنا أندمج معها في حديث طويل لا ينقطع إلا قليلًا، بينما أراقب الحقول تجري جوار القطار في خيوط خضراء متقطعة ومتتابعة، وعلى جمالها بل قُل من فرط جمالها، ساءني أن يجاورها كل تلك الأكوام القذرة من القمامة على حواف الترع!

صداقتي الوليدة بإيمان لا تقل تعقيدًا عن صداقتي بعبد الحيّ، أخطو بينهما كمن يخطو على غابة من الشوك، أتقدم وأتراجع، وإن كان ظهور فاضل في المشهد ورغبتي العجيبة في

التعرف عليه أكثر جعل التقدم يغالب التراجع، إذ إن فاصل صديق مقرب لإيمان، وتواجدي المكثف معها يعني قربًا منه، قربًا أسعى إليه دون خارطة طريق أو حتى طرح السؤال على نفسي، ماذا أريد من الرجل؟ تشدني إليه ثقافته الواسعة، وحلاوة حديثه، يعيرني كتبًا تفجر الثوابت داخل رأسي، تزلزل أفكاري، وتخلخل مبادئي فأخشى على ديني، إلا أنني لا أكف عن قراءتها، يناقشها معي بصوته الرطب العميق، يعاملني مثل جنتل مان، معاملة لم أتلقها من رجل قبله قط، هل يريد هو مني شيئًا أم أنه فقط يهوى بلبلة العقول!

ترجلنا عن القطار ووجدت نفسي ألتصق بإيمان كطفل يخشى أن يتوه عن أمه في خضم الزحام، راقبت بعين قلقة أفواجًا متنوعة من الناس يسعون على رصيف المحطة، نازلين من القطارات أو يعدون إلى إحداها، يهرولون متفادين بعضهم بعضًا بينما تتصادم الأكتاف أو تتعثر الأرجل في الحقائب المجرورة، ولا يبالي أحد ولا يتوقف. أعداد مهولة من البشر تستدعي في العقل يوم الحشر، فأتعجب لو كان هذا الزحام الخانق يحصل في تلك القطعة الصغيرة من الأرض، خلال تلك المرحلة الزمنية المتناهية في الصغر نسبة إلى تاريخ البشرية، فماذا تكون الحال حين يُنفخ في الصور، تقع الواقعة، ويصحو الأموات ساعين إلى مصائرهم المتنوعة، حين تدنو الشمس من الرؤوس ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل منهم يومئذ شأن يغنيه! دست إيمان كفها في كفي ومضت تقودني، وقد تركت انقيادي إليها رغم استغرابي من كوننا نمضي متشابكي الأيدي، كطفل وأبيه أو حبيب وحبيبته، لم أعترض من فرط توتري الذي جعل مني فلاحًا يضع قدمه على أرض العاصمة للمرة الأولى، وتجاربي الماضية مع القاهرة لم تتضمن أبدًا محطة رمسيس. عبرنا ضمن أفواج هائلة باب المحطة نحو قاعتها الرئيسية، على جانبي البوابات نُصبت السلالم الكهربائية المؤدية إلى المطاعم في الأعلى كما علمت من إيمان، يغلب على القاعة لون برتقالي هادئ وقد تدلى من منتصف سقفها هائل الارتفاع هرم صغير مقلوب، ومضينا شمالًا نحو باب الخروج حيث تنفست الصعداء، لم يتلاش الزحام وإن خفت وطأته بتفرق الناس على مساحة أوسع في اتجاهات عدة، ثم ينضغط الجمع الكبير ليمر عبر الممر الصغير الضيق المفضي إلى خارج المحطة المسورة بسور حديدي أسود متوسط الطول، هنالك تكالب علينا البائعون يحملون سماعات أذن رديئة، وشباشب، هذا غير البائعين الذين افترشوا الأرصفة حول سور المحطة الخارجي، يعرضون بضاعة تتنوع بين أمشطه الشعر والتوك وأمواس حلاقة وحتى غيارات داخلية وغيرها، وقد تملكتني حيرة وارتباك بالغان وزاغت عيناي تركض متتبعة مختلف الأصوات التي تصاعدت حولي، وأنا لا أدري كيف أتحرك بين جموع البشر، وإذ بإيمان تعيد دسّ كفها في كفي بينما يمسك عبد الحي بكفي الأخرى، ويمضيان بي منفلتين من الزحام والبائعين إلى شارع مزدحم بالسيارات يعلوه كوبري، وهناك وقفنا ننتظر الأوبر الذي استدعاه عبد

الحي.

وداخل السيارة تنفست الصعداء حقًا، فلم أبال بحركتها البطيئة وهي تخوض زحام القاهرة الرهيب، الذي كنت معتادة عليه من موقعي داخل السيارات وليس خارجها. حين لاح المبنى الأحمر للمتحف المصري على يمين الطريق، لف عبد الحي رأسه نحونا ثم تطلع إليّ وهو يقول:

- آلاء، بقولك.. حنقابل صحابنا في فُسحة سمية نتغدى قبل العرض.

- صحابنا مين؟ وسمية مين؟

أفلتت ضحكة من عبد الحي انتبهت إيمان على أثرها، وأزاحت السماعات عن أذنيها، ثم التفتت نحوي وقالت باسمة:

- فُسحة سمية ده مطعم لطيف جدًا في وسط البلد، سمية بتعمل أكل بيتي.

- أكل بيتي!

قلت مستنكرة، فمضى عبد الحي يحكي عن حلاوة أكل سمية، والحق أن الأكل لم يكن ليعنيني في شيء، ما يقلقني هو التواجد بين جماعة كبيرة من أصحاب عبد الحي، حيث يغلبني الخجل وأتقوقع داخل ذاتي، فلا أقدر على الكلام والحركة، أجلس بين الناس جمادًا، فإن قرروا التواصل معي يكون ضغطًا هائلًا ومرهقًا على نفسي، ترى هل بالإمكان أن أنفرد بنفسي على طاولة تخصني وحدي؟

وإذ بفَسحة سمية ما هي إلا حجرة صغيرة مكونة من عدد قليل من الطاولات، يفصلهما الممر المُفضي إلى الكاونتر الذي يقبع خلفه المطبخ، على يمين الداخل رُصت الطاولات متجاورة أمام أريكة طويلة زرقاء من جهة الحائط، وكراسي خشبية صغيرة على الجهة الأخرى، وتلك مُعدة لتسع جماعة كبيرة من الناس جاؤوا سويًا، وهي حيث جلس أصحاب عبد الحي وإيمان، وعلى اليسار طاولتان متفرقتان إحداهما مشغولة بجماعة من أربع فتيات، والأخرى برجل وامرأة جلسا متقابلين.

ومضى عبد الحي وإيمان يسلمان على أصحابهما الذين قاموا من أماكنهم يستقبلون الواصلين، بينما بقيت أنا على مدخل المكان أعلى الدرجات الأربع الصغيرة حائرة، أتطلع إلى المكان الذي لا توجد به طاولة تخصني وحدي، أفكر في التسلل خروجًا من المكان وتثبت قدمي الروائح الشهية المنبعثة من المطبخ، إضافة إلى التردد المقيت الذي جُبلت عليه. فما فرغ عبد الحي من السلامات حتى التفت نحوي مشيرًا إليّ بملء ذراعه يعرف أصحابه عليّ،

قائلًا إنني من صممت بوستر الفيلم، وقد انقبض صدري للجملة إلى حد أن شعرت أن أصابع خفية تتزاحم حول جسدي بينما تردد حناجرها: فاشل، فاشل، فاشل! حيث إنني كنت قد غرقت في شبر مياه أثناء محاولة تصميم ذلك البوستر الملعون، غرق انتشلتني منه إيمان، لم يكن إسهامها في التصميم مجرد تعديلات طفيفة على ما فعلت، الحق أنه كان هدمًا وإعادة بناء استسلمت لهما تمامًا في ظل خبرتها الكبيرة، في مقابل انكشاف انطفاء ذاكرتي فيما يخص أدوات الفوتوشوب، فضلًا عن شخف وضحالة ما تعلمناه أثناء الجامعة وهو ما لم أزد عليه يومًا واحدًا من الخبرة! على أي حال وجدت نفسي مضطرة إلى التقدم نحوهم هابطة الدرجات الأربع، ثم أضطر مرة أخرى ويا للاضطرار المهلك، إلى دفن كفي في كفوف رجال أجانب، حتى شعرت بعد السلامات أن كفي سبقتني بالفعل إلى جهنم. حين انتهيت إلى الشاب الأخير الضئيل الذي كان يجلس عند الكورنر، فوجئت به يطيل السلام فلا يفلت كفي وهو يعرفني على اسمه بصيغة رسمية مضحكة قائلًا:

- زهير فؤاد، روائي وصانع أفلام.

استدعت طريقته إلى عقلي، بروفايلات الفيسبوك المعنونة بـ «الشاعر فلان فلاني» أو «الكاتب والروائي علان العلاني» ولطالما تساءلت عن ماهية أولئك الناس وكيف يبدون على الحقيقة. زهير فؤاد شاب في منتصف العشرينيات قصير نحيف، ملامحه طفولية يغلب عليها الطابع الريفي. سألني عن اسمي بالكامل دون أن يفلت كفي عن كفه التي بدأت في التعرق! ارتبكت وأردت إنهاء الموقف العجيب ثم إسداء لكمة إلى وجه عبد الحيّ.

- آلاء كرم داود.

ظل ممسكًا بكفي وقد ارتسمت على ملامحه ابتسامة بلهاء. واسم عيلتك؟ «الجِن» قلتها وأنا أزحزح كفي برفق كي لا يصير الموقف أكثر غرابة. أفلت كفي أخيرًا وسارعت أسأل عن حمام المطعم ثم هرعت إليه أرغب في غسل يدي بالبنزين قبل أن أتناول طعامي.

حين عدت كان المقعد الشاغر الوحيد بين إيمان وزهير فؤاد. أردت أن أزحزح إيمان لتجلس هي إلى جوار زهير، لكنها بدت مندمجة في حديث جانبي مع فتاة تجاورها، وإذ بي أسقط في براثن ذلك الشاب الغريب -زهير فؤاد- الذي كان كثير الضحك والكلام، هو يحدثني بحماس عن فيلم صنعه منذ عدة سنوات، ويعرض عليّ أن يرسل لي لاحقًا رابطًا لمشاهدته، بينما أتخيل أن فيلمه يشبه تلك الأفلام الرديئة التي تعرض في المهرجانات الصغيرة، حيث شجعني عبد الحيّ على حضور أحدها مرة وكان في الإسكندرية، قاطعت من بعده تلك الفعاليات تمامًا. في البداية ومن منطلق ألا أحرج الشاب كنت ودودة مجاملة، ولكن الشاب كان من النوع الذي يتكلم في فمك! يقرب وجهه من وجهي، يحدثني عن كتاب ما،

فلا أنتبه لما يقول من فرط ضيقي به. وأتيت على طعامي سريعًا، ثم اعتذرت منه والتفت نحو إيمان أخبرها أنني سأخرج للتمشية قليلًا، وقد أبتاع بعض الهدايا لامي وأبناء زوجها، وإذ بالشاب يتدخل في الحوار عارضًا عليّ أن يصحبني للتمشية، زباه! ما بال ذلك الأحمق «لازقة بغرا!» وارتبكت لا أدري كيف أرد عليه، وتدخلت إيمان قائلة إنها أيضًا انتهت من طعامها وتحب أن تصحبنا لتبتاع بعض الأغراض، واستسلمت ساخطة للمغرز السخيف كله.

نهضت أتلمس طريقي بين الأرجل للخروج عن الطاولة، ألقيت تحية عامة على الجماعة، قالت إيمان إنها سوف تعرج على الحمام قبل أن نتحرك، ووقفت أنتظرها قرب الباب، وإذ بالشاب يسلم على أصحابه ثم يخطو متقدمًا نحوي، يجاورني مستكملًا حديثًا عن كتابه الجديد، لم أكن أصلًا قد انتبهت إليه قبلًا، مالي أنا ومال كتابه الجديد؟ وأومأت مبتسمة في مجاملة صارت تثقل على قلبي حتى شعرت أنني أختنق، وطال انتظارنا لإيمان فاستأذنت من الشاب أن أسبقهم إلى الخارج لأبتاع لنفسي فنجان قهوة على أن نلتقي لاحقًا، وإذ به يتحمس لمرافقتي في ابتياع القهوة، ألقيت نظرة حانقة نحو عبد الحي الذي كان لا يزال على الطاولة مندمجًا في الكلام مع أصحابه، ولم أجد حلًا إلا أن أوافق على صحبته لي، وتحركت صاعدة الدرجات الأربع وهو خلفي، وإذ به فجأة ودون مقدمات منطقية يدفع بذراعه داخل ذراعي المطوية! خلال ثوانٍ لم تتعد دقيقة واحدة كان عقلي قد استدعى كل ما أمقت وأحتقر حول ذلك الوسط الذي يسمي نفسه «ثقافي» كل نفوري منهم وشعوري بالخزي لولوجي هذا العالم وكأنني عمياء تتبع شهواتها، شعرت أنني انزلقت إلى الهاوية وأنني تركت نفسي للإغواء. واشتعلت غضبًا، غضبًا منطقيًا إذ إن شابًا لا أعرفه إلا منذ نصف ساعة يسمح لنفسه بالاقتراب مني إلى هذا الحد، لم أتمالك نفسي إلا وأنا أصرخ في وجهه بحدة أخافته، ولفتت أنظار الجلوس جميعًا بقلب المطعم، وتصاعدت النظرات ترمقنا في تساؤل وارتباك، ونهض عبد الحي يحاول تلمس طريقه خارج الطاولة، أما زهير فقد وقف للحظات قليلة تعلوه الصدمة كطفل لم يعتد تأنيبًا قاسيًا من أمه، خيل إلي أنني أرى دموعًا تترقرق في مقلتي عينيه، وتنبعث منهما نظرة منكسرة، تلك النظرة التي لم تبارح عقلي قط خاصة حين علمت بعد عدة أيام من ذلك التاريخ، بخبر وفاته!

4

ديسمبر 1981

نجوى سليمان، مقهى إمبريال، محطة الرمل.

الجو مشبع بهدوء ما قبل المغيب، الشمس سكنت إلى قلب البحر آخذة في ذيلها دفء النهار، والهواء بارد وإن لم يشتد متحولًا إلى ريح، انتفخت أرحم السحب المتعانقة بالقرب من سطح البحر مُبشرة بقرب ميلاد المطر. لقد تلقت نجوى من كرم جوابات وأرسلت جوابات، في البداية كانت ترد على عشقه المنساب في أحرفه بتحفظ شديد حتى لمس وتزا دون قصد منه، قال لها في واحد من خطاباته إنه فخور بكونها مُعيدة بالجامعة، وهو وإن تزوج بها لن يقبل بتحولها إلى ربة منزل إنه ذكي، يُدرك ما تفكر فيه وكأنه يجلس متربعًا داخل عقلها، جوار أفكارها، وقد أحبت منه ذلك، فخف تحفظها شيئًا فشيئًا، قبلت أن تلتقي به مرة ثم مرة ثم نبهتها زميلة أن همسًا يتصاعد في أرجاء الجامعة، فلطمتها الكلمات بموجة إفاقة! إنها معيدة وهو طالب وهي لن تضحي بوظيفتها من أجل مشاعرها، لو تسرب خبر عنهما إلى إدارة الجامعة ينفجر مستقبلها المهني في وجهها! أليست هي التي طالما سخرت من تهافت صديقاتها على الرجال، ألم تكن هي بالذات من تواجه صدمات صديقاتها العاطفية باستهانة قائلة جملتها الشهيرة: «مفيش راجل يستاهل اللي أنتي عملاه ده»؟ فمالها تتردى إلى مشاعر أقل ما يمكن أن توصف به: «إنها مشاعر غبية!» هل تحبه فعلًا؟ أم أنها فقط ترغب في التخلص من وصمتها؟ تلك الصفة التي تنطق بها أمها وتراها في أعين الجميع دون ألسنتهم: «عانس» لا ليس ذلك تعبيرًا دقيقًا عنها، إنها أستاذة في الجامعة بينما صاحباتها صِرن أوعية تحمل وتلد وتُرضع مثل أنثى البقر والقطط والكلاب، وهي على ذلك اعتادت أن تحتفي بكونها «عانس» لا يهمها من ذلك شيئًا. الحب إذًا؟ لا إنها أقوى من الخضوع إليه، لكن ماذا عن رغبتها في الانفصال عن بيت أمها؟ لقد حاولت مرات وعرقلت أمها مساعيها بمعاونة عمها الأحمق! نعم إن ذلك لهو الدافع الحقيقي، يكفيها هذا القدر من الحياة مع أمها، لقد ضاقت بها حد الغثيان، وهي كالمستجير من الرمضاء بالنار، قالت له في جوابها الأخير:

(تحدث مع أهلك ولتكن قراءة فاتحة وبعد النتيجة تُعلن الخطبة). فوصلها منه الرد بكلمات مُرتجفة لا تُظهر إلا جُبنًا جعلها تمتعض منه، ثم تراه فيعاودها انجذابها إليه، حمقاء! وألح عليها أن يلتقيها ولو مرة أخيرة، فما الذي يحتفظ به في جعبته؟ سحبت نفسًا عميقًا وهي تقترب من مقهى إمبريال في ميدان محطة الرمل، سارت على مهل تحاول قدر الإمكان أن تنظم تيارات أفكارها المتخبطة، سوف تسمع منه فإن وجدت منه ضعفًا وجبنًا

في مواجهة أهله، تناساه، بل وتخطاه، ثم تستكمل مساعيها مع الإدارة للموافقة على نقلها إلى جامعة القاهرة، هناك تتحرر من قبضة أمها وتعيش أخيرًا كشخص مستقل كما تستحق تمامًا! كلما اقتربت من المكان شعرت بخفقان قلبها يعلو داخل صدرها، وارتجافة خفيفة في جسدها، كرم يمتلك تلك القوة الغريبة التي تجذبها إليه، أم أنه نداء الطبيعة؟ تمامًا مثل المأكل والمشرب والتبول والتبرز، هذا هو الجنس! لا نملك دفعه فيجرفنا في تياره! تجلدي يا فتاة، لن تكوني صورة أخرى من كل من سبقوكِ، أمك، جدتك وأمها!

وفتح لها النادل الباب فرأته جالسًا عند نهاية المطعم بجوار الفاترينة الزجاجية، على طاولة مخصصة لفردين، رفع يده يلفت نظرها إليه فأومأت مبتسمة.

وسرعان ما جففت ابتسامة الترحيب وجلست قبالته بملامح جادة، وتطلعت إلى عينيه اللتين تفيضان حبًا، ذلك الحب الذي حين تراه منه تضعف مقاومتها، حب لم تتلقَّه قبلًا، ليس الحب من مكونات بيت نجوى، لا تعبر أمها عنه قط وكذا أخواتها البنات، لا تجمع بينهن مشاعر الحب، إنها علاقات دم جافة يغلب عليها التناحر، أما أبوها فلا تذكر عنه شيئًا، مات وهي في السادسة من عمرها. ولكن عليها أن تظل منتبهة، أن تضع هدفها نصب عينيها، الحب جميل لكن حياتها المهنية فوق كل شيء آخر! يرجوها ألا تقطع علاقتها به على أن يخطبها بعد النتيجة، فتبتسم وتسأله برفق لا يخلو من الحزم:

- إيه اللي حيتغير؟ أهلك معترضين على فرق السن.

قال باستهانة:

- حكون حر، حشتغل.

- نتجوز من غير رضاهم؟

- ميهمونيش.

- ماما وعمي يهمهم حتى لو ما كانش ده يفرق معايا.

- لو اتجوزنا كلهم حيبقوا قدام الأمر الواقع.

- عمي يقدر يخليهم يرفدوني من الجامعة، ثم حنعيش ازاي؟ حنسكن فين؟ متخيل يعني مرتبك حيكون كام لما تشتغل؟

وقال مدركًا أن ما ينطق به محض أوهام:

- لو اشتغلت حعرف أضغط على بابا وماما نتقدم رسمي.

- عظيم، لما ده يحصل لينا كلام تاني.

- محتاج أشوفك يا نجوى، أتكلم معاكي وأسمعك.

- وأنا محتاجة أحافظ على وظيفتي يا كرم!

وصمت للحظات ثم قال بنبرة تقطر رقة ورجاء:

- مش بوحشك؟

- حنشوف بعض في السكاشن.

- وده كفاية؟

- فترة وتمر.

فأحنى رأسه واجمًا وقالت إنها لا بد أن تذهب، فأقنعها أن تبقى قليلًا بما أنه لن يراها خارج الجامعة لفترة لا يعلم مداها إلا الله، وأشار للنادل فطلبت شايًا وكرواسون.

5

يناير 2015

آلاء كرم، مركز الصورة المعاصرة، القاهرة.

يقع مركز الصورة المعاصرة على مسيرة ثماني دقائق من فُسحة سمية، قطعتها برفقة عبد الحي، وقد حط عليّ الصمت وتكشف وجهي عن ملامح مكفهرة، فلم يسع هو إلى كسر الصمت من جهته. حين بلغنا شارع طلعت حرب كانت شمس العصر قد مالت مؤذنة ببدايات المغيب، فأضفت على الموجودات ذلك الضوء الخافت الذي يتلمس بأنامله الحنونة مخلوقات الله فتسكن. سكن قلبي، وهبت علينا دفقات ثقيلة، باردة من الريح، أرسلت قشعريرة محببة إلى جسدي فابتسمت وأنا أسحب جرعة كبيرة من الهواء داخل صدري، بينما ألقي ببصري إلى طيور المغرب وهي تتشكل على هيئة رأس سهم، تخترق به سماء القاهرة في دوائر أضفت عليها سحرًا لا يليق بالأرض التي نسعى عليها. التفتت نحو عبد الحي متسائلة:

- رد فعلي أوفر؟

- طبعًا!

وضايقتني صراحته وجفاء رده فقلت بحدة:

- واللي عمله ده طبيعي!

هز منكبيه لامباليًا بينما ينفذ من مدخل عمارة قديمة بشارع طلعت حرب، فغمرني استياء أردت معه أن أتراجع تمامًا عن حضور العرض، مضى يرتقي السلم وأنا ثابتة على موقفي من باب البناية، أردد بصري بين الشارع وعبد الحي يتلاشى مبتعدًا في قلب ظُلمة السلم، وإذ به يتراجع عدة درجات ويميل بجذعه لينظر إليّ من مكانه أعلى السلم قائلًا ببساطة:

- على فكرة زهير أصلًا كان طالب مني رقمك، ولما عرف إنك جاية العرض قال المقابلة أفضل!

أسرعت خلفه على السلم يدفعني الفضول، وحين بلغت جانبه رأيت تلك الابتسامة الخبيثة على ثغره، سألته باهتمام:

- بخصوص إيه؟

- مقاليش غير إنه شغل، بس في الغالب كان عاوز تصميم بوستر لفيلمه أو غلاف لروايته!

ثم مصمص شفتيه ساخرًا واستكمل:

- مش وش نعمة!

- مجبش سيرة شغل!

- وانتي ادتيله فرصة يا اختي؟

- أحيه! ده قعد يرغي على نافوخي خمس ساعات!

أفلتت منه ضحكة وهو يمضي نحو باب من الخشب البني بالطابق الثاني، تجاوره على حائط السُلم ثلاث لوحات سوداء، منقوشة باللون الأبيض، الكبيرة رُسم عليها لوجو المركز، ثم «مركز الصورة المعاصرة» بخط عربي على الثانية، وcontemporary image collective باللغة الإنجليزية على الثالثة، قال وهو يتقدم نحو صالة واسعة بيضاء لها أرضية من الخشب:

- زهير خجول فشخ، بيحتاج وقت علشان يدخل في الموضوع، المفروض إنتي بالذات تتفهمي ده يعني، ولا إيه؟

ثم انقطع بيننا الكلام حين ظهرت فتاة ترحب بوصولنا، وتسلم على عبد الحي الذي عرفني إليها. اقترحت علينا جولة في المكان الذي ما إن بدأت أنتبه إلى تفاصيله حتى أحببته، كانت الصالة الرئيسية مُقسمة إلى جزأين، أحدهما يحوي مكتبة خشبية ممتلئة رفوفها بالكتب، وتتوسطها طاولة زجاجية كبيرة رُصت حولها ستة مقاعد خشبية، وتلك تُفضي إلى حجرة شبيهة بها وإن كانت مكتبتها أكبر، وقد نصبت على امتداد الحائط المواجه للمدخل. وأما الجزء الثاني فبه أريكة زرقاء اللون، حديثة الطراز يجاورها ثلاثة مقاعد من نفس طرازها، وذلك الجزء ينتهي بالممر المفضي إلى الحجرات الداخلية، ومضت بنا الفتاة إلى الحجرة الحمراء، وهي غرفة خصصها المركز لتحميض الصور الفوتوغرافية.

آن وقت العرض، وكان أصحاب عبد الحي قد وصلوا تباعًا دون أن يظهر زهير فؤاد بينهم. انتقلنا إلى واحدة من القاعات الداخلية تتصدرها الشاشة الكبيرة، تناثرت أمامها المقاعد الخشبية في صفوف إضافة إلى شِلت أرضية رصت بمحاذاة الحوائط، وقد امتلأ المكان كله. أظلمت القاعة واستهل العرض بفيلم عبد الحي، تصاعدت دقات قلبي حتى خلت أنها تعلو على صوت الفيلم نفسه! يا الله! إن مشاهدة وجهي على الشاشة الكبيرة كان له وقع اللطمة من نفسي، إذ أطلق طعما مرًا في حلقي. وأكاد أنكر ذاتي من فرط نفوري مما أرى. لكم أردت أن أفر من القاعة ولا يرى أحد ذلك الوجه، وجهي.. عندما يُضاء النور! لم أكن قد شاهدت الفيلم قبلًا، حيث تغيبت عن العرض الأول للفيلم ضمن عروض البلازا بمكتبة الإسكندرية بحجة واهية، فيما كنت في الحقيقة أخشى من رؤية نفسي على الشاشة الكبيرة، أنت تمضي

في حياتك دون أن ترى نفسك إلا للحظات صباحية ربما من أجل ارتداء الطرحة، تمشيط شعرك، أو وضع بعض مستحضرات الزينة، وهي ككل عملية براجماتية لا تخضع لقواعد التأمل وإنما لقواعد الإنجاز! وأنا أتحرك في الحياة لا أدري بالضبط كيف أحرك رأسي بينما أتكلم، هل أرفع حاجبي أو أحدهما أحيانًا؟ كيف تبدو الدهشة على ملامحي؟ والفرحة؟ والحزن؟ والغضب! لحظة إدراك أن ذلك الكائن العجيب الماثل أمامك على الشاشة هو أنت! هو ما يراه الناس منك، كائنٌ لحظة كريهة.

أضيئت القاعة وتحرك المخرجون الثلاثة نحو مقدمتها، جالسين أمام الشاشة على كراسي زُصت لهم، سرعان ما تصاعد الملل إلى نفسي خلال النقاش، وعاودتني صورة هيئتي على الشاشة الكبيرة جنبًا إلى جانب موقفي في المطعم والأنظار تتحلق بي وأنا أصرخ في الشاب المسكين، التفت حولي بحثًا عنه فلا أجده بين الحاضرين، أستغرب غيابه رغم حماسه السابق لمشاهدة العروض، أمن المعقول أن يكون غيابه راجعًا لذلك الموقف التافه الذي حصل بيننا؟ ترى ماذا أراد مني؟ كيف لم أنتبه أنه بالفعل خجول؟ الآن وأنا أستعيد الذكرى تومض في عقلي صور لجبهته المتعرقة، الرعشة الجلية في صوته الخفيض، كيف فاتتني التفاصيل! شعرت برغبة ملحة في أن ألتقيه مجددًا فأعتذر له وأسمع منه لربما عاودت تقييمه، متخلية عن أحكامي المسبقة عنه، إلا أن عزرائيل كان أسرع مني قرارًا وأشد عزمًا.

ويتصاعد داخلي ذلك الامتعاض الذي لا مفر منه إلا لو كان للروح سبيل لمغادرة الجسد، وأردت أن أنسحب إلى مكان مظلم لا أنفاس تتردد فيه سوى أنفاسي. ونحن نمضي خارجين من القاعة وأنا ذاهلة في أفكاري السوداء، ظن عبد الحيّ أن الفيلم لم يعجبني كالعادة، فسخر من نفسه معقبًا دون أن أتكلم أنه سوف يبذل مجهودًا أكبر في فيلمه القادم، ولكنني أخبرته باقتضاب أن الفيلم جميل، «مش وحش ولا حاجة» ثم صمتت طويلًا ونحن نقف في القاعة الرئيسية بين أصحابه. حاول هو كما حاولت إيمان، اختراق جدار الصمت الذي حاوطت نفسي به، لكني كنت قد انسحبت بالفعل داخل قوقعتي. فهم هو ذلك فتراجع إلى محادثات لوجيستية حول خطتي لما بعد العرض.

رغم صمتي فقد كنت أنصت إليهم، دائمًا ما أنصت، وقد أصغيت إليهم وهم يتفقون على قضاء الأمسية في كاب دور. وانغرست أشواك في صدري الذي يموج بالحيرة والشك، ما الذي أفعله أنا بين هؤلاء؟ وقد لاحظت ارتباك عبد الحيّ وهو لا يدري كيف يتخلص مني. قررت عن طيب خاطر ورغبة صادقة في انتشال روحي من تلك البلاعة، أن أرفع عنه الحرج، أخبرته بكلمات سريعة مقتضبة، بنبرة تنم عن التعجل لمفارقته هو وأصحابه، أنني سوف أتجول لبعض الوقت في وسط البلد، قبل أن أستقل تاكسي إلى المهندسين حيث بيت

أمي وزوجها، غدًا نلتقي في محطة رمسيس نحو السادسة مساء، عظيم؟ عظيم إذًا، تمام، سلام.

أكاد أرى صدره وهو يصعد ثم يهبط متنفسًا الصعداء، بينما لسانه يعرض عليّ «عزومة مراكبية» أن يتجول معي لبعض الوقت في وسط البلد لو أردت!

- شكرًا، خليك مع صحابك، أشوفك بكرة، سلام عليكم، باي.

رفعت كفي في سلام مقتضب للمجموعة التي كان يقف بينهم، ورحلت بينما الطعم المر في حلقي يتمدد إلى حرقان بمعدتي.

6

أكتوبر، 1981

بيت فايزة، الإسكندرية.

الشاب والفتاة يرقصان على العشب الأخضر داخل دائرة من زخارف الورود، على ظهر كرسي الصالون الكلاسيكي المذهب حيث سرحت نعمة بأفكارها وهي ترشف من فنجان قهوتها، تقول فايزة للمرة الخامسة:

- نورتينا.

وعروس الندامة لا تبتسم ولا يبدو عليها الخجل، تتفحص وجه نعمة بوقاحة ولا تُخفض عينيها إن التقت بعينيها، لم تصنع القهوة بنفسها وإنما صنعتها أمها.

قالت نعمة لداود بعد أن ترك كرم البيت غاضبًا، دعنا نجاريه حتى لا يرسب عامًا آخر، فلم يبد اهتمامًا، وسألته: هل أذهب فأستطلع البيت، ولنعده مجرد تعارف؟ فهش الهواء بكفه لامباليًا، وقالت لمصطفى أن يبلغ أخاه ليرتب لها ذلك الموعد. ورفعت العروس قدمها فوضعتها فوق قدمها الأخرى، لا احترام عندها للكبير، آاه منك لله يا كرم ما الذي يعجبك فيها؟ لا مال ولا جمال، وقالت أمها:

- فرصة سعيدة يا ست نعمة.

فابتسمت لها وأومأت. العروس لا تبدو حتى أصغر من عمرها الحقيقي بل هي تبدو أكبر، ومساحات الصمت في الصالون الصغير تصنع دوامات صغيرة بينهم فيغرقون فيها كلٌ مستغرق في أفكاره، وقالت فايزة:

- تتغدي معانا انهاردة بقى.

ولاحت ومضة استياء على وجه نجوى، الست جالسة بينهم منذ ما يقرب من النصف ساعة وهي لا تقول شيئًا مفيدًا، فما الداعي من تلك الزيارة الغريبة؟ واعتذرت نعمة شاكرة ثم قالت لنجوى:

- مبسوطة في شغلك؟

- الحمد لله.

- وكرم عامل إيه معاكي؟

- نعم؟

- قصدي في الكلية مش أنت المُدرسة بتاعته؟

ونهضت نجوى واقفة وأمواج الكدر تتلاطم على وجهها، وبهتت فايزة وشعرت نعمة بسعادة باطنية حرصت ألا تُبدي شيئًا منها، فما الداعي للف والدوران، هي تعرف وهم يعرفون أن العروس تكبر ابنها بخمسة أعوام كاملة وقالت نجوى باقتضاب:

- بعد إذنك يا طنط.

ومضت إلى غرفتها مخلفة من ورائها حجرة تموج بالتوتر والحرج، وسألت نعمة ببراءة:

- هي زعلت ولا حاجة؟

قالت فايزة بنبرة جافة:

- نجوى معيدة مش مدرسة يا ست نعمة..

ثم استطردت وكأنها تستهزئ بها:

- يمكن تكوني مش عارفة الفرق؟

شهقت نعمة قائلة:

- وإيه المدرسة وإيه المعيدة؟ وهي المُدرسة وحشة؟

- محدش قال كده، بس المُعيدة حاجة تانية بكرة تبقى دكتورة في الجامعة.

قالت مستسلمة:

- بإذن الله.

وقالت لنفسها ولمَ لا تتزوج دكتورة المستقبل من دكتور بالجامعة؟ ترى لِمَ لم تتزوج حتى الآن! إنها ليست جميلة لكنها أيضًا ليست قبيحة، بالأمر أمور وما ذلك إلا مغرز لكرم، ثم تساءلت:

- لكن هي راحت فين؟

- حقوم أشوفها..

في غرفة نجوى ألحت فايزة عليها أن ترجع من باب الذوق لا أكثر، ولكن الست قليلة الذوق، ولكنها في بيتنا وإكرام الضيف واجب، ووافقت على مضض فسبقت أمها إلى

الصالون، بينما راحت فايزة تطمئن على الطبيخ حتى لا يحترق وهي ترطن: «وهو حد ييجي في معاد زي ده بردو!».

وفي الصالون جلست نجوى بوجه يملؤه الكدر أمام نعمة التي بادرتها قائلة:

- اسمعي يا بنتي، أنا زي أمك وكنت أتمنى يبقى عندي بنت مجتهدة وطموحة وشاطرة زيك.

آه عرفت نجوى أن تلك الكلمات ما هي إلا مقدمة للتبرز عليها من قبل الست، ولم تنطق واستطردت نعمة:

- لو بنتي مكانك مستحيل أوافق تتجوز كرم، عاد السنة ومش منتبه لدروسه وحيسقط تاني، أنت أحسن منه و...

وقاطعتها نجوى بينما ظهرت فايزة تتقدم عبر الباب إلى الصالون:

- حضرتك جاية ليه يا طنط؟

فأسرعت فايزة تقول معترضة:

- تنورنا في أي وقت يا نجوى، إيه الكلام ده؟

فقالت نعمة بنبرة هادئة:

- أنا جاية علشانك مش علشانه يا بنتي!

ثم استطردت وكأنها ترجوها:

- ارفضيه أنتي، وأبلغه أنا رفضك للخطبة، ارفضيه يا بنتي أرجوكي خليه يرجع للبيت وينتبه لدراسته!

وحل صمت ثقيل، يتبادل الثلاثة نظرات تموج بشتى أنواع المشاعر.

7

يناير 2015

اللاه كرم، القاهرة، ميدان طلعت حرب.

وسط البلد في القاهرة تتشابه كثيرًا مع ميدان المنشية في الإسكندرية، العمارات القديمة تبكي ترابًا فوق رؤوس الفوضى المنتشرة أسفلها، الباعة الأجوجون يتجاذبونك فيما بينهم طامعين في الجنيهات القليلة التي تدفئ جيبك، دون أن يردعهم عن ذلك البرد ليصب صبًا من السماء، نافذًا إلى العظام. أحبك معطفي حول جسدي وأنفخ هواء دافئًا من فمي إلى كفوفي ثم أدسهما في جيبي التماسًا لشيء من الدفء.

«*اتفضلي يا آنسة، بدل الأستاذ يا مدام؟ كرافتات*، كرافتات، عاوزة تبيعي العدة؟ الساعة بعشرة بس، اتفضلي، اتفضلي بس دي تركيبة برفان بتاعتنا متلاقيهاش عند حد غيرنا، طب ردي طيب، إحنا بني آدمين بردك».

هرولت أتخطى باعة تلو آخر دون أن ألتفت حتى إلى بضاعتهم، على الرغم من رغبتي السابقة في ابتياع الهدايا، إذ إن طريقتهم في استجداء المارة، بل وإرسال ذبذبات غاضبة وكلمات حانقة، إن لم تستجب لهم، إضافة إلى الزحام أثاروا توتري. فشددت خطاي أرغب في الابتعاد قدر الإمكان عن محيط البائعين، حتى انتهى بي المسير إلى ميدان طلعت حرب.

برد القاهرة صقيع كما أن حرها خانق، من عجب أن أنفاس المتزاحمين في الشوارع لم تقلل من وطأة البرد، وشعرت بجسدي يرتجف وجوع يزحف إلى معدتي، كما حط علي فجأة إرهاق اليوم كله، وتدثرت السماء بحجاب كثيف من سحب رمادية لا يبين فوقها أفقًا. شعرت أن سماء القاهرة سقف يطبق على رأسي، قررت أن أتهور ماديًا وأستدعي سيارة أوبر تضعني على عتبة باب أمي بلا هدية، لِمَ لم أشترِ لها هدية من الإسكندرية! لعنت غبائي بينما أفتش جيوبي بحثًا عن موبايلي، ألم يكن في يدي منذ قليل وسألني أحدهم لو أرغب في بيعه؟ ربما ألقيت به داخل الحقيبة بدافع من التوتر الذي ألم بي. يدي تعبث في الحقيبة التي تحتوي على كل ما قدمت به من الإسكندرية، لا أجد شيئًا! اقتربت من إحدى السيارات في الشارع فوضعت حقيبتي عليها وفتحت السوستة حتى آخرها، أخرج متعلقاتي من الحقيبة حريصة على ألا يخرج البانتي في يدي فتكون فضيحة، كلما لمست البانتي أدسه عميقًا في الحقيبة وأستخرج كل ما حوله حتى خلت الحقيبة إلا من البانتي وكيس اللاويز بينما تناثرت ملابسي وأشيائي على السيارة، لا أثر لهاتفي ولا حتى لمحفظتي! يا ربي! شعرت برغبة جارفة في الصراخ، البكاء والعويل! هل سرقت؟ هل سقطوا مني لأن حقيبتي لم تكن مغلقة

حتى آخرها؟ قالت لي إحدى السيدات بينما أمشي بين المتاجر: «شنطتك مفتوحة يا آنسة» ومدت يدها تغلقها لي دون استئذان، هل كانت هي من سرقتني؟ أم أن السرقة كانت قد حصلت بالفعل!

كل ذلك لا يهم، أنا في القاهرة بلا هاتف ولا نقود ولا سبيل للخروج من تلك الورطة. عرفت مباشرة أن ذلك هو الجزاء من جنس العمل و«من أعمالكم شلط عليكم»، لقد استسلمت للإغواء وتركت نفسي لخطوات الشيطان يمهدها لي عبد الحيّ ومن بعده فاضل، وأنا أتبعهما بأعين لا أبصر بها. لا حيلة لديّ الآن إلا أن أصل إلى كاب دور حيث يتواجد عبد الحيّ مع أصحابه. بت أجد مبررات لكل تصرفاتي، أتعمد مقابلة فاضل في شقة إيمان بحجة مناقشة الكتب التي يعيرها لي، وكيف بالله سأصل إلى كاب دور في هذه المدينة التي لا أكاد أفقه عنها شيئًا؟ ليس واردًا أن أستوقف غرباء لأسألهم عن مكان بار، بالطبع لا! وضعت كفي في كفوف أجانب بحجة ألا أحرجهم! رأسي يغلي لا أكاد أعرف شيئًا عن موطئ قدمي، أقرأ كتبًا تخلخل عقيدتي، كتبًا لا يجوز أن يقرأها غير المتخصص، أترك شوارع وأدخل في أخرى، حرصت ما أمكنني ذلك ألا يظهر ما يعتمل في نفسي على ملامحي، خوفًا من انتباه الغرباء المخيفين إلى كوني تائهة في المدينة! أبحث بين وجوه الناس عن وجه طيب يمد لي حبل نجاة:

- لو سمحتي، أنا آسفه والله..

هل أبكي الآن؟ أين الثبات الانفعالي حين نكون في أمس الحاجة إليه! طلبت السيدة بنفسها رقم عبد الحيّ الذي من حسن حظي أنني أحفظه، بقي الهاتف في قلب كفها لا تفلته، شغلت السبيكر ومدت كفها نحوي بينما أصابعها مطبقة بشدة على هاتفها، لديها كل الحق في ذلك الحرص، لمَ لا أكون لصة أستولي على هاتفها وأركض بعيدًا، وهي سيدة خمسينية لها جسد أم مصرية تقليدية، لن تتمكن أبدًا من اللحاق بي. الهاتف يرن وعبد الحيّ لا يرد، لعنة الله عليه ألف مرة، لماذا لم أحفظ رقم ماما في ذاكرتي! اللعنة عليّ، وأمتعض من نفسي، غارقة حتى النخاع في عار له رائحة القذر! فقدت السيطرة على انفعالاتي دموعي تنهمر رغمًا عني، أعتذر للسيدة وأشكرها لكنها تمنحني فرصة ثانية وثالثة، تعاود الاتصال بالرقم حتى ينقطع الخط دون أن يرد عبد الحيّ.

- حافظة رقم حد غير أخوكي طيب؟ باباكي، جوزك؟

أهز رأسي نفيًا، أمنحها ضوءًا أخضر لكي تغادرني لقد حاولت بما فيه الكفاية، «كتر خيرك». تعاود الاتصال بالرقم مرة أخرى، ثم أخرى، يأتي صوت عبد الحيّ عبر الهاتف أخيرًا، ثقيلًا مغلفًا بصخب هادر، هل هو سكران بالفعل؟ أصرخ فيه بهستيرية مفرطة:

- مبتردتش على موبايلك ليه؟

تجفل السيدة ويجفل عبد الحيّ متسائلًا عن المتصل، تنهمر مني الكلمات في جملة هستيرية سائلة:

- أنا آلاء، اتسرقت فلوسي وموبايلي كل حاجة اتسرقت، أنا تايهة مش عارفة أروح في حته ولا عارفة أتصرف الحقني تعالى بسرعة تعالى حالًا...

فقدت آخر قطرة من اتزاني، عقلي يهدر بقسوة، لا أرغب أبدًا في مقابلة عبد الحيّ وهو سكران. رأيت الإشفاق متجسدًا على ملامح السيدة الطيبة، وصفت له هي المكان الذي نحن فيه، أخبرني عبد الحيّ أن أنتظره في مقهى كوستا القريب من حيث أقف وأنه في طريقه إليّ، طبطبت السيدة على كتفي بحنان قائلة: قدر الله وما شاء فعل يا بنتي، الحمد لله، فداكي. شكرتها وتوجهت إلى كوستا حيث دخلت مباشرة إلى الحمام أتوضأ بنيتي التخفف من الغضب الذي ألم بي، وقضاء ما فاتني من صلوات، عليّ أن أتوب ولن تُقبل لي توبة لو لم أكف عن رغبتي في فاضل!

أبريل 2018

آلاء ومصطفى على الطريق.

وتكشف التشيز كيك عن خيبة أمل شديدة لهما معًا، ليس طازجًا كفاية وبسكويته طري وجبنته لاذعة المذاق، قالت آلاء له بعد أن ابتلعت قضمة أخرى:

- غالبًا البتاع ده إكسبيرد أصلًا وحيجبلنا نزلة معوية!

ومد مصطفى شوكته في الطبق يقتطع جزءًا آخر وهو يقول:

- أنا حاسس إن الجبنة دي معفنة!

ومدت شوكتها فمضت تغرسها في طبقة الجبن تحفر داخلها وتزيح الفتات، حتى رأت شيئًا فتركت الشوكة ورفعت الطبق الصغير فتبين لها أنه بالفعل عفن أخضر:

- يععععع...

أعادت الطبق مكانه ممتعضة، أشارت له بطرف الشوكة إلى موضع العفن فبصق الأكل من فمه متقززًا، ليسقط داخل طبق التشيز كيك وحوله. قال لها بسرعة وقد رأى قرفًا على ملامحها لا يدري أمن فعلته أم من العفن:

- Sorry!

- It's ok!

- نجرب المافن؟

سألها فضحكت فجأة وهي تشير إلى قطعة المافن التي تناثر عليها ما بصقه منذ قليل، وحين انتبه لما فعله ضحك متوردًا بعض الشيء، وهز كتفيه وهو ينظر إليها كطفل صغير حائر:

- أوووبس!

- ولا يهمك.

ابتسمت له وكانت ترى فيه شيئًا من نفسها فتستغرب ذلك أيما استغراب، وكأن الله يخبرها من عليائه أن ذلك الرجل عمها أكثر من عمها صالح نفسه، أنه الحلقة المفقودة التي منها أخذت تلك الجينات التي جعلت منها على ما يبدو خرابة البيت! لو كان يشبهها لمَ لا

تصارحه بأن لها شقة خاصة بها استأجرتها على مدار عام حتى الآن، سوف يتفهم أليس كذلك؟ لن يوشي بها لو عرف؟ لربما عليها أن تتنصل منه اعترافًا قبل أن تعترف له، لا بد أن تجعله يطمئن إليها أولًا، تمنحه ابتسامات ولو زائفة لتشاركه فيما يحب حتى لو كان تشيز كيك عفنًا! أشار إلى المنتجات المتراصة على الأرفف خلفهما سائلًا:

- شيبسي؟

أومأت مبتسمة، وعلى الرغم من عفونة التشيز كيك، فقد تسربت راحة إلى نفسه، إنها تلين له، تبادله ابتسامة بأخرى، وفي الطريق متسع لمفاتحتها في الأمر، وإن ساوره تشكك حول الفكرة الأخيرة، يشعر بأنه في حاجة إلى مجالستها في مكان أكثر خصوصية وهو منتبه إليها لا إلى الطريق. فتح الكيس البلاستيكي الذي كان الرجل قد وضع له الحلويات داخله، فأسقط داخله التشيز كيك والمافن، ثم لم البقايا المتناثرة بمنديل ورقي، كانت لا تزال تشرب قهوتها حين نهض وهو يسألها:

- نوع معين؟

- أي حاجة حادقة ومش حراقة فُل.

ابتسم لها بود ثم مضى يبتاع الشيبسي.

9

يناير 2015

آلاء كرم، القاهرة، ميدان طلعت حرب.

سيدة ثلاثينية تهرول بشبشبها في اتجاه باب القسم، تثير سحابات صغيرة من التراب يترسب منها طبقات بيضاء على طرف جونلتها البنية. تجر ابنتها التي تحمل في يدها الأخرى مصاصة حمراء. يركض نحوهما فتى في حذاء مطاطي مهترئ، يخطف المصاصة من يد الطفلة التي جفلت فكادت تتعرقل لولا أن كف أمها لم تفلت كفها. لم تبك الصغيرة ولا بدا أنها تهتم بالمصاصة، بل اعتدلت سريعًا ومدت خطاها تحاول اللحاق بخطى أمها. أما الطفل فأخرج لسانه مر به على المصاصة ثم ألقى بها ممتعضًا فسقطت أمام رصيف القسم. عاد يجري بعد أن ارتفع صوت العسكري الذي يقف على باب القسم زاعقًا يسبه ويهشه بعيدًا.

بمجرد أن وطأت قدمي تلك الحجرة خافتة الإضاءة، رأيت رجلًا طويلًا، عريض المنكبين، يرتدي تي شيرت متسخًا وممزقًا في عدة مواضع مع سروال قماشي رمادي لا يختلف عنه حالًا. يداه معقصوتان خلف ظهره وقد شُبكت الكلبشات في معصميه، من خلفه العسكري ذو ملامح ريفية، شعر فاتح مائل للصفرة، بشرة بيضاء مبقعة وعينان عسليتان. يدفعه من ظهره زاعقًا: (يلا يا عم جتك القرف). حين دار بالرجل متجهين نحوي، اكتشفت أنه مسن، وجهه منقوش بالتجاعيد وحاجباه متهدلان على عينيه. يمشي بقوة دفع العسكري لا بتحريك قدميه، شبشبه يحتك على أرضية من البلاط مغطاة بطبقات كثيفة من التراب، فيصدر عنه صوت يقشعر له بدني. جدران حجرة تقديم البلاغات في القسم طلاها الهباب، يقف العساكر خلف جدار قصير من الطوب مغطى برخام متشقق في الكثير من المواضع، رائحة المكان هي خليط من البول والعرق.

- مش حينفع نعمل المحضر انهاردة، تعالوا بكرة.

كانت لهجته عدائية وبها الكثير من الشراسة ونفاد الصبر، قلت في رجاء ممزوج بشيء يسير من الحدة:

- أنا من إسكندرية أصلًا ومسافرة انهاردة!

أشاح العسكري بوجهه بعيدًا عني وشرع في استكمال كلامه مع العسكري الذي يقف جواره متجاهلًا إياي تمامًا، في حين صار الضيق داخلي ثعبانًا ضخمًا يتلوى في سجن جسدي، قلت بينما أشعر بارتجافات صغيرة تغمر وجنتي وأنا أحاول جاهدة السيطرة على

هدير الكمد المضطرب بعنف داخل جسدي:

- من فضلك، مش حينفع نعمل محضر ليه؟

خرجت الكلمات من فمي مقضومة من فرط ما ضغطت على أسناني. بدأ العسكري يلف رأسه تجاهي ببطء شديد، لاح السخط متجسدًا كالشمس على ملامحه، وهو يلقي بكلمات تخرج من فمه طائرة وناقصة الحروف إذ يتكاسل عن نطق الكلمات كاملة لشخص لا يعني له شيئًا:

- الختم م ف الدرج مقفل أ مدام...

- نعم؟

لم أتمكن من سماع جملته السريعة المقتضبة المنطلقة من فم لامبالٍ بقولها، سألته «نعم»، لأنني كنت أود فعلًا معرفة المانع من عمل محضر في القسم خلال أي وقت من اليوم!

اكتسب صوته تلك الخشونة التي تسبق الانفجار مباشرة:

- بقولك الختم في الدرج والضابط اللي معاه المفتاح مروح خلاص.

- يعني لسة هنا؟

- خلص شغله يا مدام مروووح، مرووح..

أواه أنني أفقد السيطرة على كائن الغضب داخلي، لقد استطاع تحرير نفسه في صورة ارتجافة ألمت بجسدي كله حتى طالت الكلمات المتناثرة من فمي:

- هو فين ألحقه قبل ما يمشي، اسمه إيه؟ فينه؟ انطق...

أدركت كم أبدو هستيرية في تلك اللحظة، ولم أتمكن من إيجاد زر «الإيقاف» أو حتى رسن أروض به نفسي. لو تجسدت اللامبالاة إنسانًا لما كان لها إلا وجه ذلك العسكري المطل عليّ من الجهة الأخرى من تلك الرخامة العجيبة التي يفترض بها أن تكون مكتب استقبال. لم يُثقل كاهله بالرد عليّ ولو بكلماته المقضومة، رماني بتلك النظرة الفهددة والتفت يستكمل كلامه مع صاحبه.

قبل أن ينفلت مني العقد الأخير من فطنة، أو أظنه انفلت دون حتى أن أعيه، لأن شررًا انطلق من عيني العسكري ممزقًا غشاء لامبالاته، وجدت كفًا تضغط على كتفي وتسحبني نحو الخلف.

كان أحمد فرج زوج أمي، وتبعه عبد الحي ليقف جواره، يحجبان وجودي عن العسكري

لأن: «وشي بيلبش جتته» كما بدا لي. رصوا للعسكري اعتذارات ساخنة على صينية من البنكنوت حتى سحب تهديده بزجي في الحبس، وذهب يبحث عن الضابط ليأخذ منه المفتاح قبل أن يترك القسم.

رائحة البول تتكاثف في أنفي، شعور بالغثيان يتصاعد في جوفي، أشعر أنني على وشك أن أتقيأ! أسارع في الخروج من القسم، وفي الشارع أسحب نفسًا طويلًا علّ بعض الهواء يتسرب إلى صدري، تسقط عيني على مصاصة حمراء على بعد خطوات مني عند حافة الرصيف، وجيوش صغيرة من النمل تزحف عليها ليختفي لونها تدريجيًا أسفل غطاء أسود منساب ببطء.

10

أكتوبر، 1981

كرم ومصطفى داود، الإسكندرية.

مساءً، بينما هما جلوس في كاليسيا، سلم ربيع إلى كرم جواب نجوى دون أن يعرف - بطبيعة الحال- ما يحتوي عليه، ورأى ملامح صاحبه وهي تتبدل بينما يقرأ، حاجباه ينعقدان، عيناه تجحظان، شفتاه ترتعدان، حاول أن يفهم منه ما حصل لكن كرم قام من على كرسيه ينتفض شخطًا، خطف مفتاح سيارة صالح من أمام مصطفى، وخرج من البار رعدًا يفرقع في أذنيه وبروق تومض داخل مقلتي عينيه.

أسرع مصطفى يركض وراء أخيه، فلحق به صاحبه غمر، وخارج البار حاولا أن يستوقفا الرجل، أن يفهما منه ما جرى وهو معرض عنهم، يقطع الشارع مهرولًا دون أن تبصر عيناه شيئًا، أحالته كلمات نجوى إلى كائن قُد من غضب، تتردد في أذنيه جملتها بالجواب بلا توقف: «*أرسلت أمك إلى بيتي تبصق علي، وإنها لغلطة أن أقبل الارتباط بطفل جبان، وها أنا انفذ ما طلبته مني أمك بالحرف الواحد، أنا أرفضك يا كرم، ولا أحب أن ألمحك إلا طالبًا يجلس أمامي في قاعة المحاضرات*».

فتح باب السيارة فجلس على كرسيّ القيادة، وحاول مصطفى عبثًا أن يثنيه عن ذلك، انتظر حتى تهدأ، تروّ إلى أن تفيق، أو دعني أقود، حتى إنك سكران! وأنا لم أشرب إلا كأسًا، ولكنه أدار الموتور فقز مصطفى إلى جواره بينما جلس غمر في الخلف، قبل أن ينطلق كرم بالسيارة نحو بيت داود بسرعة جنونية، لا تتلقى أذناه أيًا من كلمات مصطفى.

وحين بلغوا شارع البيت لم يهدئ كرم من سرعة السيارة لأجل أن يركنها، وصرخ مصطفى في هلع، وصاح عمر في كرم وهو يخبطه على كتفه أن كف عن تلك الحماقات! وكرم لا يستجيب، أصم، أبكم، أعمى، ترتطم العجلات الأمامية بالرصيف، ترتج السيارة بعنف، تصفع مقدمتها باب العمارة، تنفتح نوافذ بنايات الشارع مطرقعة ويتطلع الناس منها، ينزف أنف عمر وقد صدم رأسه بظهر المقعد، يخرج كرم من السيارة ويرتقي السلم كريح عاصفة، يستيقظ النيام على وقع الضجة، يولج مفتاحه بالباب ويفتحه صافعًا إياه، نعمة وصالح في قلب الصالة يفركان آثار النوم عن أعينهما، تتبدل وجوههما من خدر النوم إلى الفزع، تقول نعمة بغيظ بالغ وقد أدركت ما حصل:

- آه من بنت الكلب الوسخة، اللي عملته ده كُهن فلاحين.

انتقلت عدوى غضبه إليهم، يتطلع إليه صالح متسائلًا بغرابة:

- أنت جاي سكران؟

يلحق به مصطفى بعد أن اطمأن أن صاحبه بخير، ولكن عمر يصمم على انتظاره في الشارع ليطمئن على ما آلت إليه الأمور، وفيما صوت كرم يرج الصالة هادرًا، تُسمع خطوات ثقيلة على الشلم، ويعبر داود الباب بقامته المهيبة وجسده القوي، عيناه جاحظتان من فرط الانفعال، نبرة صوته غليظة:

- إيه اللي بيحصل ده؟ عربية صالح مدشدشة، والباشا بتاعنا صوته جايب لآخر الشارع!

ويتساءل صالح:

- عربيتي مالها؟

ويركض صالح إلى الشباك فيرى سيارته وقد انخلع الإكصدام الأمامي وتجعد غطاء الموتور الذي خرجت منه سحابات كثيفة من الدخان، ترتعد أواصر مصطفى فهو من أخذ السيارة من دون أن يستأذن أخاه، وتتراجع غضبة كرم، تتدفق عليه تيارات من الإفاقة والخوف أمام حضور أبيه المهيب، وينعقد لسانه من بعد انطلاقه بالوعيد والويلات، ويسأله صالح:

- أنت أخدت عربيتي يا كرم؟

وتتدخل نعمة قائلة:

- المدعوقة ماتستاهلش كل ده!

داود عيناه محمرتان تقذفانه بالشرر، يسأله بنبرة هادئة وإن كانت منذرة بالهول:

- أنت أخدت عربية أخوك من ورانا وخبطتها علشان المعيدة رفضتك؟

ويهدر صوته حادًا عميقًا ومرعبًا:

- انطق!

ينتفض مصطفى في مكانه، وتنتاب كرم ارتجافة يجاهد ألا تظهر عليه، يقول بصوت غارت حدته ولانت حروفه:

- مرفضتنيش! ماما الـ ...

- رد على سؤالي أخدت عربية أخوك؟

- مصطفى اللي خدها!

تنطلق جملته رصاصة في قلب أخيه، الذي تتحرك شفتاه دون أن ينطق بكلمة، يقول في باطنه ولكنه هو من قادها وهو من صدمها فمالي أنا؟ ولا ينطق أمام نظرة أبيه المحمومة إليه، واسمه الذي سالت حروفه من فم أبيه تشتعل فيها النيران، يتراجع خطوات إلى الخلف، يتطلع إلى باب الشقة، يفكر في عمر الذي تنزف أنفه تحت في الشارع، يقول أخيرًا بصوت مرتجف:

- أخدتها بس مخبطتهاش!

ينفخ داود في نفاد صبر، لعن الله الزواج على الخلفة، وماذا يفعل بهم؟ هل يحبسهم في البيت مثل الولايا؟ وتقول نعمة فجأة:

- بعد اللي حصل ده لا يمكن الولية دي تدخل بيتنا، لا يمكن!

ويرمقها داود مهتاجًا:

- ممكن تسكتي!

ويتقدم بجسده الضخم إلى حيث يقف كرم ومصطفى، يبدو كأنه على وشك أن يضربهما، هل يظنان أنه ما عاد قادرًا على تأديبهما لأن أصواتهما غلظت وتعلما كيف يحلقان أشنابهما النابتة! كرم لم ينفع معه الحبس في البيت ولا الحرمان من المصروف، لم يبق إلا أن يهان بالضرب! ولا يزال مصطفى يرمق باب الشقة المفتوح، ماذا يحصل لو خرج الآن؟ وداخل كرم تتماوج تيارات متعارضة ما بين الاندفاع والخوف، الإقدام والتراجع، هل يضربه أبوه وهو في ذلك السن؟ يراه قادمًا نحوه، يستعد بجسده للدفاع عن نفسه، لكنه يعلم أنه لن يضرب أباه! فيتقدم لسانه آخذا موقف الدفاع، يصرخ فجأة وقد أفلتت منه كل خيوط المنطق:

- تحب أبقى بتاع رجالة زي ابنك الصغير علشان ترتاح!

11

يناير 2015

آلاء كرم، بيت داود، الإسكندرية.

ضربت نعمة كفًا بكف، وارتج جسد داود الآخذ في النحول وهو يقهقه قائلًا: تاااني؟ اتسرقتي تاني؟

من الجيد أنني أوفر لمن حولي بعض التسلية على الأقل.

اعتدل داود في فراشه، ضغط على زر اللمبة المدلاة من فوق سريره، ثم فتح درج الكمود إلى جواره، وشد منه مجموعة هائلة من المفاتيح أعرفها جيدًا، منحني إياها بينما يملي عليّ تعليماته الخاصة بنظام الملفات، يحذرني من إفساد ترتيبها، ويشير إلى الأدراج التي عليّ أن أتجنبها، وأخرى يرجح أن أعثر فيها على أوراقي، شكرته وشعرت برغبة طارئة في تقبيل رأسه، لكم يسوؤني أن ألحظ فعل الزمن به، لم أرَه قط نحيفًا بكل هذا القدر، أنبوبة الاكسجين صارت لا تفارق حجرته منذ نوبة الالتهاب الرئوي التي نُقل على أثرها إلى المستشفى، ولكني لم أفعل، لم يكن التعبير الجسدي عن الحب معمولًا به داخل أسرتنا، وكان صعبًا عليّ، جربته بداية على يد أصدقاء الجامعة حين وجدتهم يسلمون على بعضهم بالعناق وليس فقط قبلات الخدين المعتادة عند العودة من إجازة الصيف، لم أعرف كيف أجاريهم حتى وجدتهم يعلقون على الأمر مندهشين، ثم يبادرون إلى عناقي وأبقى جامدة، إعاقة لم أتخلص منها إلا بالزواج، ولكني لم أجرؤ على استخدام المهارة الجديدة مع أهلي، اسافر إلى أمي في القاهرة، وحين ألقاها ولم أرها منذ أشهر، لا نتعانق وإنما قبلتان على الخد نشعر معهما، أنا وهي، بالغرابة.

شكرته وقمت من على طرف فراشه، بينما قامت تيته أيضًا لأجل صلاة العشاء، مما يعني أنها سوف تبقى في حجرة الصلاة ما يزيد على الساعتين، تصلي الفرض وما فاتها من صلوات خلال حياتها الشابة، ثم تصلي لأبيها وأمها، كل ذلك قبل قيام الليل.

داخل غرفة المكتب اتجهت رأسًا إلى وحدة الأدراج الكبيرة الخشبية، والتي تقبع بمحاذاة الحائط على مسافة قصيرة من مكتب داود. الخزانة تحتوي على عدد ضخم من الملفات والأوراق المتعلقة بكل شيء وكل فرد في الأسرة تقريبًا، وأنا عليّ أن أبحث بينهم، عن صورة البطاقة ورخصة القيادة وإلا اضطررت، لا قدر الله، إلى إعادة اختبار القيادة من جديد! توكلت على الله، أمامي مهمة ليست يسيرة، أخذت وسادة من فوق الأريكة ورميتها على الباركيه أمام الخزانة، أبدأ بالأدراج السفلية ثم أصعد تدريجيًا. وبمجرد أن جلست وجدت

عيني تتجهان تلقائيًا نحو الدرج المحرم! خلال طفولتي اعتاد داود أن يفرجني على ألبومات الصور القديمة منها والجديدة، وفي إحدى المرات دخلت إلى مكتب داود فرأيته منتصبًا أمام خزانة الأدراج، وقد انصب تركيزه على درج لم يفتحه لي قبلًا، ولمحت داخله ألبومات لم يسبق أن تصفحها معي، وانطلقت جزلة أسحبها من الدرج، ففوجئت بكفي تتلقى لسعة آلمني منها الإهانة أكثر من الألم.

- متاخديش حاجة من غير استئذان.

سحبت كفي وقد تشكلت سحابة من الخزي داخل صدري، أضاف عقلي الطفل درج الألبومات ذلك إلى قائمة الممنوعات، تلك التي الاقتراب منها يعكر صفو داود ويضعه في تلك الحالة المزاجية التي أكره.

أتثاءب وأمط جسدي وألقي ببصري نحو ذاك الدرج الممنوع، ويتسلل الثعبان إلى عقلي قائلًا بخبث إن الجنة لطالما كانت مملة، ولولا الخطيئة لما عرف الإنسان الحياة على الأرض، بل حتى لما أدرك أن له عورة هي جزء من جسده. أنهض لأنفض عن جسدي الشياطين مستعيذة بالله منهم على لساني بينما يعمل عقلي في اتجاه آخر قائلًا لي: «ما هذا الهراء الطفولي، ليست تلك الألبومات بشجرة التفاح المحرمة، وأنت تخطيت الثلاثين أيتها الحمقاء الجبانة».

أتجه نحو باب الغرفة، أنظر من خلاله نحو حجرة السفرة المظلمة إلا من ضوء خفيف يتسرب إليها من شباك الصالة، أطمئن إلى خلو البيت من عمي أو أحد من أبنائه، أعود متسللة نحو الخزانة ثم إلى الدرج الممنوع رأسًا! أجرب في قفله عشرات المفاتيح حتى يستجيب أخيرًا، أفتحه بلهفة، ثم أتطلع داخله دون أن أمد يدي، أدور برأسي لأستوثق من خلو الغرفة، أطمئن، أنظر، أرسل راحتي تنبش قبوزًا محرمة، على سطح الدرج وفوق الألبومات المحرمة أرى ملفًّا متخمًا بالأوراق، أرى كفي تمضي نحو الملف مرتعشة لكن مصممة. أؤكد لنفسي أنني سأحتفظ بالأوراق على نظامها ولن ينتبه جدو إلى اقترابي منها، ها هو ذا سر يتكشف، دون أن أتمكن من استيعابه! شهادة ميلاد قديمة تحمل اسمًا: مصطفى داود سري مالك الجن، من هذا؟ ليس لي عم بذلك الاسم، هل أنجبته نعمة ومات طفلًا؟ وجدت في نفس الملف شهادات ميلاد أبي وعمي صالح وداود ونعمة وأوراقًا أخرى متفرقة تشبه العقود أو الصكوك، كل تلك الأوراق تحتوي على اسم «مصطفى» إلى جوار اسم أبي وعمي. من هو مصطفى!

لطالما كان جو عائلتي مُلبدًا بغموض لا أدري عن مبرراته شيئًا، كيف مات بابا؟ كان مريضًا وكفى، مع نظرة زاجرة فلا أتمادى في السؤال، ولكنه مات منتحرًا، سمعت ذلك من عمي صالح في طفولتي! ولا أجرؤ على المواجهة. لحجرات بيت داود مسميات، (أوضة جدو) هي

غرفة المكتب، (أوضة النوم) هي حجرة النوم الرئيسية حيث ينام جداي على سريرين منفصلين، (أوضة بابا سري) حيث قضى جد أبي سنواته الأخيرة، ثم توجد غرفتا نوم تدعيان (أوضة كرم) و(أوضة صالح) ثم غرفة ثالثة تُدعى بالأوضة! هكذا فقط، الأوضة؟ لمَ هي الأوضة ولمن كانت؟ سؤال آخر أتلقى عليه نظرة زاجرة فأصمت ويهمس لي مالك بأنها أوضة الجن، وأن نعمة تركتها لهم كي لا يتسللوا إلى بقية غرفات المنزل، مؤكدًا على فكرته بأن نعمة اتخذت من تلك الغرفة مسجدًا لها، تقيم داخلها كل الصلوات.

تركت الملف إلى الألبومات المحرمة أتصفحها وإذ بها ممتلئة بالصور المقصوصة، في كل صورة منها فراغ دائري يعلو جسد طفل، ثم جسد شاب، ثم رجل! ذلك المدعو مصطفى لم يمت طفلًا إذًا وإنما هو أخناتون أسرتنا، فحيت سيرته عمدًا وألغي وجوده بما جنت يداه، فما الذي جناه يا ترى؟

12

أبريل **2018**

آلاء ومصطفى على الطريق.

عادا إلى الطريق فعادت الظُّلمة تتكاثف فيما بينهما، كل منهما يرغب في مفاتحة صاحبه على ما تنطوي عليه نفسه ولا يدري من أين تؤكل الكتف.

ابتاع مصطفى عددًا كبيرًا من الوجبات الخفيفة «سناكس»، استغربت هي ذلك وأرادت أن تشتري علبة سجائر قبل أن تمشي، حيث اكتشفت وهي جالسة في انتظاره أن سجائرها قاربت على الانتهاء، وكبلها تردد لا تدري مبعثه، هل يؤثر في حكمه عليها عدد السجائر التي تدخنها؟ إنها لا تدخن بذلك القدر في الحقيقة، ولكنه اليوم ثقيل الوطأة، ولا تدري بعد كيف تحبك كذبة تنطلي عليه، هي التي تمتلك باغا طويلًا من الكذبات المحبوكة، قرر عقلها أن يعطل اليوم! سوف تشتري علبة السجائر، كانوا قد بلغوا السيارة فقالت إنها تريد أن تشتري شيئا، فأشار إلى الكيس الضخم في يده متسائلًا:

- غير كل ده؟

فابتسمت له ورجعت إلى إتش ك، بينما ركب هو السيارة بعد أن ألقى بالكيس الكبير على الأريكة الخلفية، واتته فكرة، مؤكد أن الطريق ليس المكان المناسب لنقاش مصيري مثل ذلك، اتفاق لا بد من أن يحسم قبل العودة إلى عش الدبابير، ترى هل باعوا فيلا العجمي؟

ومرة أخرى انتظرت أن يشعل سيجارة جديدة لتقلده، وسألها عما تحب أن تسمع فقالت: أم كلثوم، فاستاء دون أن يبدو عليه ذلك، تردد قليلًا قبل أن يسألها لو يسمعان شيئا آخر؟ ماذا تحب أيضًا بخلاف أم كلثوم؟ قالت محمد منير، أعجبه الاختيار وقال منير «بره الشبابيك غيوم، بره الشبابيك مطر»، وسقط المطر فعلًا بينما هما جالسان داخل سيارتها الصغيرة على كورنيش البحر، كانت الشتوية الأولى إيذانًا بنهاية الخريف إلى شتاء 2016، وأخذ فاضل كفها داخل كفه، وشعرت بتلك الذبذبات الغريبة التي لم تختبرها أبدًا مع ياسين تسري بينهما، ويومها كتب لها:

«عندما دفعت بيدي إلى يدك

مستسلمًا

أمطرت حولنا

وتلاقت يدانا

الأصابع تتخلل بعضها

جسرًا،

مثل الكثير من الجسور بعدها

كل نقطة التقاء

جسر

وعند التحام جسدينا،

عندما تتصل النقاط كلها،

نصير نحن الاثنين، أنا وأنتِ،

مولجًا للحلول

نذوب

لنصبح

الحب

نفسه».(2)*

ووقف المطر فجأة كما بدأ فجأة، وانتهى حب فاضل لها فجأة كما ظهر فجأة! وخلال تلك العلاقة كانت تتساءل لمَ يحبها فاضل أصلًا؟ إن قطع علاقته بها لهو أكثر منطقية من العلاقة نفسها! وانتشلها مصطفى من الذكرى متسائلًا:

- إيه أخبار فيلا العجمي؟ اتباعت ولا لسه موجودة؟

- موجودة.

- معاكي المفاتيح؟

قالت مندهشة من سؤاله، إنها تظن أن المفاتيح معها، إن سلسلة المفاتيح التي تحملها في كل مكان بها عشرات المفاتيح، حتى إنها لا تعرف أي مفتاح منها يخص أي باب، لا تميز من بينها إلا مفتاح السيارة وشقة داود وشكرًا، سألها:

- تحبي نعدي على الفيلا؟

- الفيلا بقت بيت أشباح، مهملة محدش بيروح هناك من سنين، ومش أكيد معايا المفتاح!

- عندك مانع نجرب؟

وهزت منكبيها مستسلمة إلى رغبته الصبيانية في استعادة الذكريات ربما، قد تكون تلك الفكرة هبة من الله إليها، كلما تأخر الوصول إلى بيت داود؛ مُنحت المزيد من الوقت لكي تفكر، فكري يا آلاء فكري! وارتاح هو لقبولها الفكرة فراح يدندن مع منير:

أنا خايف من ده فيا، من الشكوى المدارية، بالذات في الليلة دي، تحت الغيم والمطر، أنا خايف خايف خايف وحاسس بالخطر..

13

أبريل، 1990

بيت داود/ المتروبول، الإسكندرية.

تتقدم آلاء المسيرة عبر الدهليز الضيق المفضي من حجرتها إلى الصالة الخارجية، من خلفها داليا وشريهان تحاكيان خطواتها المتسللة فيما تصدر منهما ضحكات مكتومة، تلف آلاء رأسها إليهما، ترفع أصبعها فوق شفتيها المضمومتين، تنهرهما بجدية: «ششششش». ينتهي بهما التسلل إلى باب غرفة النوم الرئيسية الموارب، تميل آلاء بجذعها وتنظر نحو الداخل من خلال فتحة ضيقة.

داخل الغرفة يوسف الصغير ممدد على طرف الفراش يبكي، بينما نجوى تخلع عنه الكافولة الملوثة فيظهر عضوه الذكري الصغير، تتأمله آلاء من مكانها عند الباب، تساورها الدهشة، لطالما منعتها نجوى من دخول الغرفة أثناء التغيير للرضيع، تحاول داليا أن تزحزحها عن مكانها تريد أن ترى، تطلب منها آلاء أن تنتظر قليلًا، وشيريهان، التي هي أصغرهم عمرًا، تتحرك نحو الجهة الأخرى من الفتحة الضيقة فتمد رأسها من أسفل رأس آلاء، تغتاظ داليا فتزاحمها، يفقد الثلاث توازنها فيملن على الباب الموارب ليندفع مفتوحًا ويسقط الثلاثة على الأرض عند مدخل الغرفة، تصرخ نجوى فيهم غاضبة:

- إيه قلة الأدب دي يا آلاء؟ برا، برااااا...

تندفع البنات الثلاث راكضات وهن يَضجَجنَ بالضحك، تضحك آلاء معهما بينما تستشعر خزيًا غامضًا يتسلل منتشرًا داخلها.

وفي المتروبول كان كرم جالسًا ينتظر في قاعة الاستقبال، ولما لمح سيد محروس المحاسب بالمتروبول يخرج من البار متوجهًا نحو السلم، نهض يتبعه، مشى من خلفه بحرص ألا ينتبه إليه الرجل، رآه وهو يطرق باب الغرفة 207 طرقًا خفيفًا، فُيفتح الباب له ويغيب في الداخل، أسرع عائدًا نحو قاعة الاستقبال، دون أن يدرك أنه هو نفسه كان مراقبًا! تلفن إلى داود وأكد عليه أن سيد الآن في الغرفة التي استأجرتها لطيفة الخياطة هذا الصباح.

فرح داود بالخبر، إن كان سيد محروس له من الدهاء ما يجعله يتلاعب في الحسابات دون أن يترك من ورائه إلا آثارًا طفيفة، فتلك فضيحة لا قعاد له بعدها في المنصب، لن يتمكن خريستوفيدس من مجادلته في الأمر تلك المرة، عرف داود قديمًا كيف يطيح بمحمد

حسين بعد أن ثبت أنه مختلس، وإذ بخريستو يعين مكانه ذلك الرجل، وقد استقدمه من فندقه الريم بمدينة مرسى مطروح، مضت سنوات وداود يسعى لإثبات التلاعب الذي يقوم به الرجل، طلب داود من كرم أن يستدعي البوليس في التو حتى يَضبط سيد متلبسًا، يزج به في السجن، وينتهي أمره. وهم إلى ارتداء ملابسه يرغب في متابعة الوقائع بنفسه.

قبل أن يخرج داود من البيت دق الهاتف واستدعاه صالح قائلًا إن خريستو هو المتصل، كيف عرف بتلك السرعة!

وقال خريستو:

- عاوز تعمل فضيحة بالفندق يا داود؟ لو بلغ الخبر الإعلام دي الدعاية المطلوبة لإنقاذ الشركة؟

واحتد بينهما الكلام، يتكلم عن الدعاية وهو الذي ينشر كل يوم بالجرائد أخبارًا وإعلانات عن فندق الريم متجاهلًا المتروبول! لا إنه لن يتراجع، عليه أن يوقع بالرجل ثم ينشر بيانًا في الجرائد باسم الإدارة يتبرأ فيه من تصرفاته ويعلن عن فصله عن منصبه.

وحين حضر البوليس كان سيد جالسًا في المطعم يتناول عشاءه بهدوء من لا يخشى شيئًا، وتمكن خريستو الذي جاء أيضًا من بيته إلى المتروبول، من تسوية الأمر حتى لا يصل الخلاف بين المدعي والمدعى عليه إلى قسم الشرطة، ولكنه استشاط غضبًا على داود الذي بادله غضبًا بغضب، وصراخًا بصراخ، وقد أدرك كلاهما أن الآخر صار عبئًا لا بد من إزاحته!

14

فبراير 2015

آلاء كرم، بيت إيمان، الإسكندرية.

ثارت حول المخرج الذي مات خلال العرض الأول لفيلمه الأول -زهير فؤاد- ضجة عظيمة، جلست أتابع بأسى كل ما يكتبه عنه أصدقاؤه، حزنت حقًا لخبر موته، ثم انهالت التفاصيل المربكة على رأسي!

لقد خرج من فسحة سمية مضطربًا، فركب دراجته البخارية وقادها مسرعًا غير منتبه للطريق فصدمته سيارة!

هل تسببت في موته؟ يومض السؤال في عقلي فأفر منه إلى بيت إيمان، أجدها بين أصحابها يدخنون حشيشًا، فلا يفاجئني الأمر إذ كنت أعرفه قبلًا وأتجنب الذهاب إلى بيتها خلال جلسات الحشيش، اليوم لم أقدر، عقلي لا يتركني لحالي، أجلس بينهم وترتفع سحابات الدخان، تطيب لأنفي رائحتها، فأستنشقها بينما أدخن سجائري، تخرج شهقة من عبد الحيّ وهو يتصفح هاتفه، أنظر إليه مستفسرة فلا ينطق، أشعر من نظرته أن الأمر متعلق بي فأسحب هاتفه من بين أصابعه لتفاجئني صورتي على واجهة فيديو! أضغط بسرعة زر التشغيل فتتحرك الصورة:

(نتبادل أنا وزهير، حديثًا يبدو وديًا، حيث يظهر شغف على ملامح زهير وحركات جسده، وابتسامة واسعة، بل وضحكة أقرب للقهقهة مني! وإذ به يمد ذراعه إلي فألف حولها ذراعي للحظات، قبل أن أدفعه بعيدًا وقد انقلبت ملامح وجهي إلى تعبير مخيف، بينما أنهر زهير فؤاد وأهينه).

كيف؟ ماذا؟ لم يمد ذراعه وأشبك ذراعي فيها، محال، ومن أين أتى الفيديو! يشرح لي علي عبد الحيّ أن مد ذراعي داخل ذراعه لم يكن إلا فعلًا ارتكاسيًا من قِبلي، حين انتبهت له انتابتني تلك الهستيريا التي انفجرت في وجه زهير فؤاد، أشعر أن وجهي يذوب متساقطًا على الأرض، دون أن يكون لديّ أدنى فكرة بما عليّ أن أشعر الآن، وكيف من المفترض بي أن أتفاعل مع شيء كهذا!

من أين أتى الفيديو! أسأل دون أن أفهم سببًا لسؤالي! يحكي عبد الحيّ وأنا لا أكاد أسمعه، الفيديو كانت قد صورت جزءًا منه واحدة من البنات الأربع اللاتي جلسن على الطاولة قرب البار، ظنته متحرشًا فرفعت كاميرا هاتفها تلتقط ما يحصل ثم نشرته في سياق له علاقة

بالتحرش أو ما شابه، دعمًا لي أو (للنساء بشكل عام) وهجومًا على الشاب دون أن تعرفه أو تعرفني أو تعلم بخبر وفاته. تم تداول الفيديو على نطاق ضيق، حتى بلغ كاتبًا شابًا يدعى ساري صادق، كان صديقًا للمتوفي، ساءه أن ترتبط ذكرى صاحبه بمنشور عن التحرش، فتوجه إلى فسحة سمية، واستطاع أن يقنع سمية أن يشاهدا معًا من خلال تسجيلات كاميرا المراقبة التي تمتلكها ما حصل بالضبط، فإما براءة لصاحبه أو إدانة! وقد حرر ساري صادق المقطعين فجعل منهما فيديو واحدًا تظهر فيه الحقيقة كاملة:

أطبقت أصابعي على هاتف عبد الحي وأنا أقرأ التعليقات والمنشورات التي كتبها ناشرو الفيديو، «لقد كانت البنت سعيدة بالكلام معه، تضحك بل وتقهقه، مد ذراعه فشبكت ذراعها به، غيرت رأيها فجأة فما ذنب الفتى هنا! ليس بمتحرش، بل هي المؤذية، الكونسنت واضح كعين الشمس، فعلت فعلتها فخرج مصدومًا وركب دراجته البخارية لتصدمه سيارة، رحمة الله عليه كان كاتبًا عبقريًا ومخرجًا موهوبًا، وإنسانًا كريمًا لا غبار عليه».

كنت أقرأ تعليقات متباينة، ما بين من يرون أن ما فعله زهير فؤاد كان تحرشًا بالفعل، ومن يدافعون عنه مستخدمين منطلق ساري صادق، ويلصقون بي تهمة التسبب في الحادث الذي أودى بحياته، آخرون يتساءلون حول رد فعلي كونه منطقيًا أم مبالغًا فيه، ثم رأيت اسمي: «آلاء كرم داود» إشارات إلى هنا وهناك إلى بروفايلي، يدور رأسي ويبدو العالم فجأة مثل قطعة من الجيلي والجالسون حولي حبات الموز داخلها، أستشعر خدرًا يسري من مخي إلى أعضاء جسدي رويدًا، أشعر أن الناس من حولي غرباء لا وجه مألوف بينهم! ينتابني شعور هائل بالفزع، أقوم ثم أجلس ثم أقوم أسمع عبد الحي يخبرني أن الدخان الذي استنشقته قد أثر في وأنني لست على طبيعتي، لا ليس الدخان! ألا يفهم؟ لقد قتلت رجلًا للتو! أتجه إلى باب الشقة أرغب في الخروج، يحاول عبد الحي استبقائي فأرفض وتحاول إيمان عبثًا، وحين ينضم إليهم فاضل، حين ينساب صوته في أذني، وتلمس كفه كتفي، وأشعر بحرارة أنفاسه على بشرتي، تخونني إرادتي، وأتركه يعانقني، ثم أبقى!

15

30 ديسمبر 1992

كرم داود، الإسكندرية.

تقف شجرة الكريسماس الصغيرة ساكنة على رأس الصالة، من حولها الأطفال يسحبون شرائط من الزينات الفلونة المكومة على الأرض، ويلفونها بحرص وحماس حول أفرع الشجرة، ونعمة بينهم تعلق اللمبات الدائرية الفلونة، وآلاء تختار من بين الزينة النجوم الفضية والذهبية، تشب على أطراف أصابعها فتشبك النجوم في فروع الشجرة، التي تمد إليها أذرعًا تنتهي بكفوف مفتوحة، وتعجز عن بلوغ أعلى الشجرة، فيركض مالك ويأتي إليها بكرسي خشبي، تصعد فوقه لتستكمل رشق بقية النجوم حتى أعلى طرف من الشجرة، وتسأل داليا نعمة بصوت يقطر حماسًا وهي تتقافز على الأرض:

- جهزتي الأزايز يا تيته؟

فتقول نعمة مبتسمة:

- في المطبخ كتير.

وفي صعوده سمع كرم صخب الأطفال متدفقًا عبر السلم، وتخطى شقة داود بالغًا شقته في الطابق الذي يليه، لاقى نجوى بوجه عابس ولاقته بالمثل، شعرها متناثر حول وجهها، ملامحها مُرهقة، جلبابها المنزلي تفوح منه رائحة القُشاط، طالعته بملامح تفيض يأسًا وقرفًا، ولم يطق البقاء في البيت، متى تخرج نجوى عن تلك الحالة؟ لم تكن بتلك الكيفية حين أنجبت آلاء. الحق أن يوسف لم يكن مخططًا له وقد رفضته منذ اللحظة الأولى، أرادت أن تتخلص منه، وهو لم يقبل ولم يرفض، استشار أمه فثارت عليه نجوى وحل بعلاقتهما خراب لم يتجاوزاه حتى اللحظة، لمَ تُقحم أمك في شؤوننا الخاصة؟ وها هي هرعت تتصل بأمي لأتلقى وابلًا من التقريع والتهديد والوعيد إن فكرت ولو تفكير في التخلص من الطفل، ورسالة الدكتوراة هل أبلها وأشرب ميتها؟ هل تظن أنني أستطيع الذهاب إلى الجامعة وكتابة الرسالة ومتابعة المحاضرات وأنا حامل! ومرت عليهم الأشهر التسعة في كرب لا ينقطع، وجاء يوسف واستمر البؤس حتى ضاق بها وبالحياة.

دخل إلى حجرة النوم وخرج دون أن يرتدي البيجامه، وإنما بدل ملابس الخروج إلى ملابس أخرى للخروج، وما إن لمحته حتى طق الشرر من عينيها:

- رايح فين؟

- حفلة المدرسة.

- نعم؟

- قولتلك عليها!

- قولت مش حتروح..

- غيرت رأيي!

وتقدمت نحوه تحمل يوسف بين ذراعيها، وحين صارت أمامه مباشرة مدت إليه الطفل فلم يفهم وأخذ يتطلع إليها متسائلًا.

- ورديتي انتهت، عاوز تنزل؟ يوسف معاك.

- يوسف بيرضع كل ساعتين يا نجوى!

- آه ما انا خلاص جبتله صناعي، اللبن عندك في المطبخ، معلقتين ممسوحين على 1.5 لتر، البزازات متعقمة وجاهزة.

لم يتناول منها الطفل، بقي جامدًا، يتطلع إليها في بلاهة فتراجعت عن موقفها أمامه، وحطت يوسف على الأريكة فانفجرت عقيرته بالبكاء، واتجهت نحو غرفة النوم فلطمت الباب من خلفها ثم سكته بالترباس، آاه لقد جُنت المرأة، وحمل الطفل بين ذراعيه يهدهده فلا يصمت، وتقدم إلى الباب فطرقه بعنف، وعاود الطرق حتى فتحت له وهي في ملابس الخروج، فتطلع إليها ذاهلًا:

- رايحة فين؟

- في داهية!

الطفل لا يكف عن الصراخ، أسقط في يده، وأراد حقًا أن يلطمها، وحين وجدها جادة في الخروج تتجه نحو باب الشقة ترك الطفل وسبقها إلى الباب فحال بينها وبينه:

- وسع..

- لأ!

- بقولك وسع..

- ما كفاية جنان بقى يا نجوى، شوفي ابنك مفلوق من العياط إزاي؟

- وهو ابني لوحدي؟

- وهو أنا حرضعه؟

- قولتلك البزازات في المطبخ!

ودفعها بعيدًا عن الباب ففتحه وخرج ثم صفعه من خلفه، ليس الأمر أنه يرفض إطعام الطفل، وإنما هي الطريقة! لم لم تستقبله بهدوء فتطلب منه مساعدتها، فيستشعر حاجتها إليه فيلبن! وقال «غبية» فالتفت إليه أحد المارة مبتسمًا، الجميع في الكرب سواء.

وفي فيكتوريا كولدج رأى شجرة الكريسماس الضخمة تومض بأضوائها الملونة في منتصف الساحة التي أمضى فيها ثلاثة عشر عامًا من عمره، تلك الساحة التي لم تفارق أحلامه قط، وأدهش حضوره أصحابه القدامى، وهو من لم ينضم إليهم في أي من تجمعاتهم منذ تخرجوا. أما هو فقد سلم عليهم بنصف وعي ونصف روح ونصف قلب، وفي جلوسه بينهم غمره اليأس، يثرثرون بكلمات لا معنى لها، وندم على مغادرة البيت بتلك الطريقة، عليه أن يجلس مع نجوى بهدوء، يسمع شكواها ويقدم لها يد العون قدر استطاعته، ولكن من أين يأتي الهدوء ويوسف لا يتوقف عن البكاء ليل نهار! إن هذا لجنون، وآلاء في مثل عمره كانت نسمة رقيقة، لا تبكي إلا لحاجة وسرعان ما تهدأ، فما بال ذلك الطفل يتلبسه الشيطان!

هفت عليه نسمة رقيقة فرفع رأسه دون وعي، وإذ بها تخطو عابرة من أمامه، كما يذكرها بالضبط، إلا أن شعرها الذهبي غير معقوص في ذيل حصان، وإنما منسدل شلالًا كثيفًا حول وجهها الأبيض المشرب بالحمرة. ألم يعبر عليها الزمن؟ وكيف احتفظت ببراءة ملامحها ورشاقة جسدها، حتى ذلك العمر! ترى هل تزوجت؟ وقاطع عصام أفكاره متسائلًا:

- فاكر مستر عطيه مدرس العربي؟

وهل بإمكانه أن ينساه ولو أراد؟ أومأ محاولًا ألا يبين أثر الاسم على ملامحه.

- رفدوه، طلع بفضيحة.

فانتبه إليه مستعيدًا كل وعيه ينصت ذاهلًا لما يحكيه الرجل:

- طلع متحرش، طالبة بلغت عليه ومن بعدها بقى يا عمي حنفية بلاغات وانفتحت على راسه، طالبات وخريجات، بس عارف؟ والله كان باين عليه!

«للعاملين فقط»، تلك اللافتة الملعونة التي ما إن برحت وعيه حتى استقرت في كوابيسه، جبان، متخاذل، وضيع، وإذ بالمرأة تقف قبالته مباشرة وهي تمد كفها بالسلام، لم تتعرف عليه أولًا، شعرت أن ملامحه مألوفة، وعاندها عقلها فأبى أن يلتقط الخيط منعشًا الذكرى. لا ليست كما هي لقد صارت امرأة بحق، تفيض نضجًا واكتمالًا. ومد إليها كفه وهو يقف وتاه

- وهو أنا حرضعه؟

- قولتلك البزازات في المطبخ!

ودفعها بعيدًا عن الباب ففتحه وخرج ثم صفعه من خلفه، ليس الأمر أنه يرفض إطعام الطفل، وإنما هي الطريقة! لمَ لم تستقبله بهدوء فتطلب منه مساعدتها، فيستشعر حاجتها إليه فيلين! وقال «غبية» فالتفت إليه أحد المارة مبتسمًا، الجميع في الكرب سواء.

وفي فيكتوريا كولدج رأى شجرة الكريسماس الضخمة تومض بأضوائها الملونة في منتصف الساحة التي أمضى فيها ثلاثة عشر عامًا من عمره، تلك الساحة التي لم تفارق أحلامه قط، وأدهش حضوره أصحابه القدامى، وهو من لم ينضم إليهم في أي من تجمعاتهم منذ تخرجوا، أما هو فقد سلم عليهم بنصف وعي ونصف روح ونصف قلب، وفي جلوسه بينهم غمره اليأس، يثرثرون بكلمات لا معنى لها، وندم على مغادرة البيت بتلك الطريقة، عليه أن يجلس مع نجوى بهدوء، يسمع شكواها ويقدم لها يد العون قدر استطاعته، ولكن مَن أين يأتي الهدوء ويوسف لا يتوقف عن البكاء ليل نهار! إن هذا لجنون، وآلاء في مثل عمره كانت نسمة رقيقة، لا تبكي إلا لحاجة وسرعان ما تهدأ، فما بال ذلك الطفل يتلبسه الشيطان!

هفت عليه نسمة رقيقة فرفع رأسه دون وعي، وإذ بها تخطو عابرة من أمامه، كما يذكرها بالضبط، إلا أن شعرها الذهبيَ غير معقوص في ذيل حصان، وإنما منسدل شلالًا كثيفًا حول وجهها الأبيض المشرب بالحمرة، ألم يعبر عليها الزمن؟ وكيف احتفظت ببراءة ملامحها ورشاقة جسدها، حتى ذلك العمر! ترى هل تزوجت؟ وقاطع عصام أفكاره متسائلًا:

- فاكر مستر عطيه مدرس العربي؟

وهل بإمكانه أن ينساه ولو أراد؟ أومأ محاولًا ألا يبين أثر الاسم على ملامحه.

- رفدوه، طلع بفضيحة.

فانتبه إليه مستعيدًا كل وعيه ينصت ذاهلًا لما يحكيه الرجل:

- طلع متحرش، طالبة بلغت عليه ومن بعدها بقى يا عمي حنفية بلاغات وانفتحت على راسه، طالبات وخريجات، بس عارف؟ والله كان باين عليه!

«للعاملين فقط»، تلك اللافتة الملعونة التي ما إن برحت وعيه حتى استقرت في كوابيسه، جبان، متخاذل، وضيع، وإذ بالمرآة تقف قبالته مباشرة وهي تمد كفها بالسلام، لم تتعرف عليه توًا، شعرت أن ملامحه مألوفة، وعاندها عقلها فأبى أن يلتقط الخيط منعشًا الذكرى. لا ليست كما هي لقد صارت امرأة بحق، تفيض نضجًا واكتمالًا. ومد إليها كفه وهو يقف وتاه

وعيه في تفاصيل وجهها، ما زالت عيناها قادرة على محو العالم بأكمله، كوكب مشع بالزرقة في فضاء أسود هائل، لطالما ظن أنها كرهته، رأته على حقيقته فأشاحت عنه عيناها، قديمًا نُقلت إلى فصل آخر وإن بقيت بالمدرسة، يتجنبها وتتجنبه حتى التخرج، هل تذكره أم تسلم عليه كما سلمت على كل الآخرين من حوله؟ مضت مبتعدة فانقشعت الغلالة الطيبة التي تنثرها من حولها أينما حلت، وعاد العالم إلى رداءته، وسمعهم يثرثرون عنها؛ كيف فات فلقة القمر قطر الزواج؟ آاه لهذا احتفظت بجمالها، لعنة الله على الزواج، وكيف يختلي المرء بزوجته والعيال في كل أركان البيت!

نهض فجأة دون أن ينتبه إليه أحد، لماذا يذهب إليها؟ ما الذي يتوقعه؟ كانت تقف بين مجموعة من الزملاء، ذكور وإناث، فتقدم إليهم وألقى بالتحيات وتلقاها، فتردد اسمه على الألسن ورن في أذنيها صانعًا وقعًا يستدعي ذكرى قديمة، آاه كرم، إنه كرم داود! وجفلت للحظة، أخذت تلف رأسها في المكان تتطلع حولها، تحاول أن تخفي ما ألم بها من توتر، ولكن لمَ يعنيها الأمر الآن! حكاية قديمة تجاوزتها وانتهت منها، وكأن جسدها له رأيٌ آخرَ، وكأن وجه كرم يستدعي الألم والخوف والغضب والشعور بالعجز! يختلس النظرات إليها فتلتقي أعينهما للحظات ثم تتباعد، وزايلتها الراحة التي عادة ما كانت تحس بها في تلك التجمعات، تطلعت إلى ساعة يدها، ثم سلمت على الناس. ما لسه بدري. شغل الصبح ولازم أنام بدري. ترى ماذا تعمل؟ وانتظر لحظات قليلة حتى رآها تقترب من بوابة المدرسة، فمضى خلفها دون أن يسلم على أحد، ولا يدري ماذا يفعل، الشارع شبه مظلم وكعب حذائها يطرقع على الأسفلت كاسرًا الصمت، ومضى يقترب منها تتخايل له صورتها وهو يركض خلفها، فتوجعه خصيتاه، وشعرت أن شخصًا يتبعها فداهمها الخوف، والتفتت إليه فجأة فجمد في مكانه ولاحت على وجهها أمارات الدهشة، وقالت بغرابة:

- كرم!

فرد ببلاهة:

- إزيك؟

قالت مستنكرة:

- كويسة! أنت ماشي ورايا؟

- لأ.. دي سكة بيتي.

- أوك، باي.

ودارت تستكمل المسير حين استوقفها قائلًا:

- لحظة..

لفت إليه رأسها متسائلة:

- نعم؟

- ينفع أتمشى معاكي شوية؟

وترددت لحظات ثم قالت باستهانة:

- زي ما تحب!

وتقدم فجاورها ومضيا يقطعان شارع الإقبال صامتين، سألها:

- لسه ساكنة في الإقبال؟

فغمغت أن نعم، فعاد يسأل:

- بتشتغلي إيه؟

فوقفت فجأة ونظرت إليه بوجه جامد ثم سألته:

- عاوز إيه يا كرم؟

- ممكن نقعد نشرب شاي سوا ونتكلم؟

- عندي شغل بدري.

- يوم تاني بعد شغلك؟

- لأ!

- ليه؟

- عاوز تكلمني في إيه؟

وحارت الكلمات على لسانه، يفتح فمه وكأنه سيتكلم ثم لا يخرج منه شيء، ونفد صبرها فقالت له مع السلامة، فقال فجأة:

- أستاذ عطية..

وبان على صفحة وجهها الصافية أثر الاسم الذي نطق به، ولكنها سألته باستهانة:

- ماله؟

- اترفدا!

وتقدمت نحوه خطوة، وقربت وجهها من وجهه تتفحص ملامحه بريبة، ثم سألته:

- أنت كنت عارف؟

فهرب الدم من عروقه وشحب وجهه وتراجع عنها خطوات وهو يسب ويلعن ذاته، ما هذا الذي يفعل؟ وعادت تسأله:

- كنت ورا الباب صح؟

- كنت طفل!

قالت بامتعاض:

- كنت جبان ولسة جبان، كنت متصور حتوصل لإيه بمشيك ورايا؟ ولا؟

قالت وهي تنظر نحو موضع ذكورته:

- وحشتك الضربة؟

قال بإنكار:

- كنت جاي أعتذر!

فقالت له بقرف:

- اعتذارك ده تحطه في طيزك.

ثم تركته ومشت مبتعدة، جمد في مكانه يراقب سيل السيارات المنساب على الطريق، لو أراد بالدنيا خيرًا فليلقي بجسده أمام إحداها، ومشى لا يرى من العالم شيئًا إلا سواد أفكاره، يجر روحه جرًا، داخله جثة تتعفن تدريجيًا حتى إن رائحتها لا تفارق أنفه، لم يجد نجوى بالبيت فعرف أنها تركته إلى بيت أمها، نزل إلى شقة داود ففتحت له آلاء الباب ورأى الصالة وقد ارتدت حلة العام الجديد، وتلقت أذناه صرخات الأطفال المرحة دون أن يستجيب قلبه إليها، وأخبرته آلاء أنها أبت الذهاب مع ماما عند تيته، وألحت عليها أن تتركها هنا فتركتها، ومدت إليه ورقةً صفراء رسمت عليها بحزا وهي تقول:

- دي ماما واقفة على الرملة وشايلة يوسف، وأنا جوه البحر على ضهرك.

فقال دون أن ينتبه إليها:

- جميلة يا لولو..

- بس أنت ما شفتهاش!

وكاد أن يصرخ في وجهها أن تبتعد عنه لكنه تدارك إشفاقًا عليها، وجرجر إليها وعيه فأخذ منها الورقة وتطلع إلى الرسم مبتسمًا، ثم هم بردها إليها حين لاحظ خط بابا سري على ظهر الورقة، فقلبها وتأكد له ما رأى وسأل آلاء:

- جبتي الورقة دي منين؟

- من دولاب أوضة بابا سري.

- في ورق تاني؟

- كتيييييييير..

قالت بحماس فنهرها قائلًا لها ألا تمد يدها على تلك الأوراق أبدًا، وباخ مرحها ونكست رأسها منسحبة من أمامه، بينما مضى هو إلى حجرة بابا سري يستطلع تلك الأوراق.

maktabbah.blogspot.com

وترك البيت ضجرًا يكاد اليأس يفتك بأعصابه، تتخايل لعقله كل الطرق المحتملة للموت، ألا يقفز من شباك ما؟ يلقي بجسده إلى البحر؟ يقف في منتصف الطريق أو يقعى على قضبان القطار، ولطالما لازمته تلك العادة أن يتخيل طرقًا لموته، يفاضل بينها متسائلًا عن أيسرها وأقلها إيلامًا، ووجد قدميه تذهبان به إلى اللوكاندة وفي قاعة الاستقبال رأى أيضًا شجرة الكريسماس، وما الفرق بين عام وعام؟ ولماذا يفرح الناس بكل ذلك القدر، ألا تشبه الأيام بعضها! وجلس إلى البار يشرب ويشرب، ألا يشرب حتى يغيب عن الوعي ثم تقتله الخمر؟

في بيت داود تراص الأطفال أمام سور الشُرفة في يد كل منهم قارورة، من تلفزيون الصالة ينساب صوت سمير غانم في مونولوج طويل متحدثًا عن القاهرة: «دخلنا شبرا يا سالي طوفان من البشر، أي والله، طوفان بيركب الأتوبيس أنا اتخضيت، اللي بيركب يقعد على أي حاجة تقابله علطول. ما دام فيه فراغ هوا يزنق نفسه فيه. فضلت الناس تركب لما الأتوبيس اتملا الناس بظبظت برا كده. *مبقاش حد يركب برجله بقى خلاص، الراجل يدخل راسه ويبرم يبرم يبرم لحد ما يقف* في مكانه، أنا شفت عيلة كلها بتبرم، الراجل ومراته وعياله، عيلة كلها بريمة يعني فاهمة شغلها».

وخرج العصفور الصغير دافئًا برأسه باب ساعة الصالة الخشبية معلنًا أولى دقات العام الجديد، فاندفع الأطفال يرمون بالقوارير على أسفلت الشارع، كما تنهمر أمطار الأوعية الزجاجية عبر شبابيك الإسكندرية كلها، تلطم عامًا مضى علّ العام الجديد لا يأتيها

بالخيبات، يعود العصفور ويخرج اثنتي عشرة مرة، ويضيع صوت الدقات متبددًا ما بين صخب ارتطام القوارير وتهشمها على الأسفلت، وبين مونولوج سمير غانم المتدفق تخالطه ضحكات جمهور المسرح:

«أنا قلت فرصة أطلع اللاسلكي أتصل بحد ينجدني، لسه جاي اتكلم شافني واد قصير قد كده، قال جاثوث أهه معاه لاسلكي جاثوث، هو قال جاثوث من هنا والسما مطرت ناس، جريت يا سالي فضلت أجري أجري لحد قسم الشرطة، الحقيقة الضابط اللي هناك شاب لطيف أوي، أول ما شافني راح واقف علطول، بصلي وقالي أنت اسمك إيه ياد؟ قولتله الحقيقة يا كابتن.. قالي هو أنت يا ابن المجنونة؟ راح ماسك التلفون: ألو مستشفى المجانين، قبضنا على المجنون الهربان يا فندم».

ضاق كرم بجلسته في البار، فترك الفندق وسار في الشوارع الخالية لا يلوي على شيء ولا يدري لنفسه وجهة، وإذ بالقوارير المنهمرة تباغته، تسقط متهشمة من حوله، يركض بين الشوارع غير قادر على تجنبها حتى تصيب إحداها جبهته، يستمر في الركض فوق شذرات الزجاج، مترنحًا من فرط السكر، رأسه ينزف، وعيناه تزيغان، والعالم ينهال عليه ضربًا ولطفًا.

16

أبريل 2018

آلاء ومصطفى في فيلا العجمي.

القمر يتسلل رويدًا من وراء سحابة بلون السماء أطرافها مُخضبة بنوره الذهبيّ، يكتمل بين سحابتين دائرة لا يشوبها نقص، تُغري بالكمال، ولا يتسلل نوره إلى ما هو أبعد من السماوات العلا، الحديقة أمام أعينهم تلال حية من الظُلمة الفتموجة بفعل الهواء، والفرائدا لا يكسر ظُلمتها إلا مصابيح الموبايلات، وقد أضاء مصطفى مصباح هاتفه ثم قلبه على وجهه ووضع فوقه زجاجة مياه معدنية صغيرة صانعًا منه ما يُشبه الأباجورة، وقالت آلاء بينماتتطلع إلى أشجار الحديقة كأشباح تتمايل ولا تكف عن الثرثرة:

- بابا كان زيك ولا زي عمو صالح؟

صمت مصطفى متفكرًا لوهلة، لم يكن كرم إلا كرم، لا يشبه في شخصيته أحدًا، لكنه رد عليها مختزلًا الفكرة:

- أقرب لشخصي أظن!

تطلعت إليه نازعة عينيها عن السماء، شيء طفوليّ للغاية في ملامحه، إضاءة الهاتف القادمة من أسفل رأسه، لا تحيله شبحًا وإنما طفلًا يتلاعب بالنار ليبدو في عين الآخرين خطيرًا، يتسلى عن خوفه من خلال إخافتهم.

- هناء وشيرين هه؟

سألته بنبرة هي مزيج من الدهشة والتساؤل:

- بنات رفاعي.

- اسمهم هناء وشيرين فعلًا؟ زي المسرحية؟ الأختين الحلوين هناء وشيرين؟

لقد جربوا كل المفاتيح التي كانت بحوزتها في باب الفيلا الحديديّ الضخم، واحدًا وراء آخر حتى كادت تيأس ولم ييأس، تركها جوار السيارة عند باب الجراج وتوجه إلى الفيلا المجاورة فنادى: هنااااء شيريييين! هناء وشيرين؟ هل يعبث؟ هنا وفي تلك الظُلمة والساعة تقترب من منتصف الليل! إلا أنها سمعت رجلًا يرد عليه بلهجة العرباوية، ثم يبادله تحيات حارة، وانبثق جلباب أبيض من الظُلمة، وقال مصطفى للرجل عنها إنها آلاء ابنة كرم رحمه الله، وقال لها عنه إنه رفاعي جارهم وصديق الأيام الخلوة، فترحم رفاعي على أبيها بنبرة

تقطر صدقًا ثم أثنى عليه طويلًا.

تركهما الرجل بعد أن فتح لهما باب الجراج ثم سلمهما باقة المفاتيح، مؤكدًا عليهما أن يناديا عليه لو أرادا أي شيء. ولج مصطفى بالسيارة داخل الجراج الصغير الملحق بالجزء الخلفي من الفيلا، والعجلات تخطو متعرجة على البلاط المتكسر والحصى والطوب، يرتجان داخلها كزغل داخل بالونة يلعب بها طفل، وشعرت أنها لا ترغب في ترك السيارة، أمام عينيها بحر من الظلمات تعلوه تلال من ظلال الأشجار، أسفل سماء حجبت الشحب قمرها، أليس من الأفضل أن ندخل من الباب الأمامي فلا نضطر إلى عبور الحديقة؟

وهدأ موتور السيارة مانحًا صراصير الليل والضفادع مجالًا للتنابذ بالأصوات؛ صرير، نعيق، خشخشة الأشجار، هسيس غامض، همس من بعيد وألحان تتسرب خجلة من مكان ما. وأضاءا مصابيح هواتفهما ثم خطوا متمهلين وعشب الحديقة الجاف يتكسر من تحت أقدامهما، وفي قلب الحديقة كانت نخلة ساقطة تقطعها بالعرض، إنه بالفعل بيت أشباح! ألم أقل لك؟ إنه مثير! فعلًا؟ والحق أنها شعرت بشيء من الإثارة، تمشي وراءه تلفُهم أصوات الليل وظلال الحديقة، وسبقها يرتقي سلم الفراندا، وكانت تعلم أن الأبراص تلبد على سقفها، فرفعت كشاف هاتفها نحوه وخطت بحرص شديد، ولم تخذلها الأبراص، كانت هناك جاثمة على مسافات متقاربة، مثل تماثيل وردية مرقطة منحوتة به، فثبتت مكانها ولم تتقدم خطوة، بينما دس هو المفتاح في الباب وأداره، وبمجرد أن دفع الباب سقط برص فوق أنفه مباشرة.

فيما بعد، وبأعجوبة ما، تمكن من إقناعها أن يجلسا لبعض الوقت في الفراندة المطلة على الحديقة الأمامية، إنها غير مسقوفة، ولن تتساقط الأبراص على رؤوسهما، والصراصير الطائرة؟ لو طارت إلينا أتكفل بها. وقلت ثعابين هه؟ لا تقلقي ومعك قاهرهم!

قال لها مبتسمًا:

- ممكن خدوا أسامي البنات من المسرحية فعلًا، أو من الإعلان نفسه!

- إعلان هو فيه إعلان؟

- أيوه فيه إعلان قبل المسرحية بيغنوا فيه أغنية من ضمن كلماتها هناء وشيرين، لكن مش فاكره طبعًا.

ولفهم الصمت، عليه أن يتكلم. لا بد أن تصارحه بأمر شقتها. من أين يستهل الكلام؟ لو صارحته عن الشقة هل يسألها عن السبب؟ قد يبدأ بالسؤال عن مذكرت كرم. لا لقد عاش نصف عمره في أمريكا، حتمًا يقدر قيمة الخصوصية لامرأة تخطت الثلاثين. ولكن مذكرات

كرم أمرها شائك، ما الذي كتبته يا كرم عني؟

وسألها فجأة وهو يمد إليها سيجارة كان قد أشعلها منذ دقائق:

- جوب؟

- ده جوب؟ أنت هاي؟ حتسوق ازاي!

وضحك ضحكة لا معنى لها فاستفزتها كثيرًا، وقالت له إنها هي التي ستقود السيارة إلى الإسكندرية، وآن لهما أن يتحركا، إنه يدفع بها إلى الهوة، لو غلبه السطل قد تصل نجوى إلى الإسكندرية قبلهما، هي تعرف أمها، تستهل يومها مع الفجر، ولا تدع شيئًا يؤخرها عن هدف وضعته نصب عينيها، كما أنها قد تفتش حجرتها فتعثر على سجائرها وزجاجة الريد الواين التي خبأتها في قاع الدولاب، ليس هناك من مفر من أن تصل إلى البيت قبلها. وهو بقي صامتًا يبتسم ببرود، وبدا لها غير عابئ بما أظهرت من إنكار، فزاد سخطها عليه لا تدري أنه لبس قناعًا يخفي وراءه قلبًا يذوب خجلًا من تلك الطفلة التي تملي عليه الصحَ مَن الخطأ، إنها ليست طفلة، إنها امرأة ناضجة، وهو رجل عجوز خرف، كيف يقنع الإنسان نفسه أنه صار عجوزًا! الحشيش يفك عقدة لسانه، وقد يفك عقدة لسانها أيضًا! الجو جميل، وكانت اللحظات الماضية بينهما رائقة لطيفة، فلمَ تفسدها؟ أم أفسدها هو بعدم التروي! وما الذي تتعجل الذهاب إليه؟ شخف! آاه ولكم يفتقد حبيبه، لكان ديريك أحب ذلك المكان بل وكان شجعه أن ينصبا خيمتهما في تلك الحديقة الخربة، ثم يدخنان ويتعانقان ويمارسان حبًا شغوفًا حتى الصباح. ولم يبد حراكًا، فقامت هي وأخذت مفتاح السيارة من على الطاولة وقالت إنها سوف تنتظره داخلها، فأسقط في يده، وتلبسه ذلك الجمود، يراها تذهب ولا يبالي، الحشيش يفك عقدة لسانه، لكنه أيضًا يكشف له عن تفاهة الأمور التي ظن بها جسامًا، لماذ يشغله أمر الكتاب؟ ولماذا تعنيه مذكرات كرم، ألم تنكشف كل الأسرار قديمًا! وأرسل له داود عقب فراره، رسالة بعد أخرى عن طريق أصحابه، قال له عد ونجد لدائك دواء، عد وأزوجك ممن ترغب، وحين رفض العودة وفضل الداء على الأسرة غضب عليه ومحا سيرته تمامًا، ليس لأنه مثلي الجنس، لقد ظن داود أن ذلك مرض يداوى! ولكن لأنه عانده، ولا أحد يرفض لداود رغبة! أليس من حقه الآن أن يحصل على تلك الفتات القليلة وحده! لكن ماذا كتب كرم أيضًا؟ هل يدينه فيما آلت إليه الأمور؟ هل يقول في مذكراته إن ما فعلوه قديمًا كانت فكرته وحده! ومن كان ليتصور ما سوف تؤول إليه الأمور؟ أثر الفراشة لا يزول! ولو دفعت بقطعة الدومينو الأولى سوف تسقط جميعًا! ولكننا كنا صغارًا حمقى وغاضبين! لا بل خائفين، وأنا كان يحق لي الخوف فممَّ خاف هو، وهو بالتأكيد يقلب الأمور ويجعل مني صاحب فكرة البيع المشؤومة، إني أعرفه جيدًا، لطالما فعل، مذ كنا صغارًا،

يخطط للمصيبة ثم يلومها علي، رحمة الله عليه، لكم أفتقده! إنه يعرف كرم جيدًا، لطالما فعل، منذ كانوا صغارًا، يخطط للمصيبة ثم يلومها عليه، رحمة الله عليه، لكم يفتقده!

في الحديقة لفها شعور بالغ بالوحدة، تريد أن تحكي لفاضل عن ذلك الرجل الذي تخطى الستين ويتصرف كمراهق، ألا ينضج الرجال أبدًا؟ ترى هل معه ستاف «نوعية» جيدة؟ وهي لم تنتش منذ تركها فاضل، لكم تفتقد الحشيش، ولكن ليس هنا وليس الآن، وليس مع عمها بالتأكيد! grow up man ! واستغرقها الفكر، فتعثرت في النخلة وسقطت على وجهها في النجيل الجاف المحروق، فيتغرس إبرًا في جسدها، صرخت بهلع وقامت بسرعة تنفض عن وجهها الطين وتبصق في قرف بالغ، والمفتاح تلاشى في الظلمة، وأخذت تمرر كشاف الهاتف بحثًا عنه، وهو انتفض من مكانه على وقع صرختها، لاحظ أنه كان يبكي فمسح دموعه وهرول إليها، هل أنت بخير؟ وقع المفتاح!

17

يوليو 1993

نعمة عبد الله، بيت داود، الإسكندرية.

لا يفهم المرء مطلقًا كيف مر عليه كل ذلك الزمن، تنضغط الذكريات في عقله لتبدو شهورًا، أو حتى أيامًا! لكن الجسد له رأي آخر، أصبع القدم الكبير المتورم منذ أبد لم تعد تحصيه، ذلك الثقل المتناقض تمامًا مع إيقاع العقل، تركض الأفكار وتتخبط بينما يرفض الجسد أن ينصاع للأوامر، «وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»، تكررها بعقلها وتهمس بها بصوت خافت، كيف انزاح ذلك الدولاب الذي يتخطى وزنها ثلاث مرات بكل تلك السهولة؟ في تلك المسافة الضيقة بين الدولاب والحائط ينضغط جسدها كله، تكف عن سحب الهواء إلى صدرها وإلا سمعوا صوت أنفاسها، لكنها لا تكف عن ترديد الآية القرآنية! الله هنا، خلف الدولاب مغارتها الخاصة، رجال البوليس يفتشون المنزل بدقة، ينتشرون بين كل غرفه، أذناها الآن رادار يلتقط كل خطوة، تعرف بدقة على أي سجاد تدوس أحذيتهم الملوثة بقذارة الشارع، تلاوتها المتكررة للآية بلا نهاية، أصواتهم الغليظة، عقلها الذي يفكر الآن في الاتصال بـ«نجاة» لتغسل تلك السجاجيد التي تتلوث، من عين عقلها تراهم بوضوح وهم يقتربون من الحجرة حيث تختبئ، تحس بهم داخلها لا يفصل جسدها عنهم سوى ذلك الدولاب، لم ترَ يومًا أقسام البوليس إلا من الخارج، فهل تجد نفسها الآن وهي عجوز في الستين داخل زنزانة؟ ظنت منذ زمن طويل أن إيقاع الحياة صار لا يحمل لها طفرات جديدة، فقط أحفاد تدرك من طزاجة وجودهم أن الزمن دائمًا وأبدًا يعاود تجديد ذاته، سواء كنا جزءًا منه أو باغتنا الفناء.

لقد استعرت الحرب بين داود وخريستوفيدس، دعا الأخير شركاء داود من أقاربه سرًا، أقنعهم أن إدارة الشركة صارت مترهلة، والفندق تتوالى عليه الخسائر من تحت رأس داود، وهم صدقوه بسرعة لأن الإيراد السنوي قيمته تنحدر عامًا بعد آخر، والحل؟ عرض عليهم أن يبيعوا إلى عبد الرحيم طه الديب، وكانوا يعرفون الرجل كعضو من أعضاء مجلس الشعب، وغرضت عليهم أرقام لا تعبر عن القيمة الحقيقية للأنصبة، ولكنها مدعومة بالأوراق والفواتير التي تحمل إمضاء سيد محروس، طلبوا مهلة للتفكير، تشاورا فيما بينهم، وقبل أن يعلنوا ردًا وصلتهم معلومة حسمت القرار فباعوا، ثم غرض على داود أن يبيع هو الآخر فأبى إباءً عنيفًا، عرف عن خيانة أقاربه، باعوا سرًا دون الرجوع إليه أو تنبيهه! رفع قضية يطعن في صحة البيع السري، كما يتهم خريستوفيدس ومحاسبه بالنصب والتزوير والاختلاس، حتى إنه حضر الجلسة بنفسه، غير تارك الفرصة لمحاميه أن يترافع عنه، داهمته نوبة الغضب في

قاعة المحكمة فسب خريستوفيدس وسيد محروس علنًا، أمام القاضي، ثم نشر إعلانًا بجريدة الأخبار يطلب فيه شريكًا للمتروبول، يريد أن يثبت زور البيعة التي تمت سرًا ويتخلص من خريستو.

نعمة لا تخشى الموت، بالعكس تنتظره الآن كمصير حتمي، لقد ركب بالفعل وهو في طريقه إليها، لم تكن يومًا فجة في استقبال ضيوفها، وقد أحسنت الاستعداد، كيف ستصلي في السجن لساعات طويلة؟ هل يسمحون لها بالنوم على شرشفها الخاص؟ هل بالإمكان أن تصحب معها أدوات النظافة؟ هل يتركها داود تنام بين المساجين!

لم يبحثوا عنها خلف الدولاب، فتحوه ونظروا داخله، لقد كادت أن تختبئ داخله، لم تظن أبدًا أنها قادرة على تحريكه لخلق مساحة لجسدها خلفه، لكنه تحرك، تحرك وكأنه هو من يفسح لها تلك المساحة، وأحست بالملمس الخشن، الدافئ للخشب أسفل كفيها، شعرت به دافئًا يتنفس! نعم لم يخن العشرة الطويلة، رأسها مرتاح على ظهره، وكأنه هو نفسه جسد حماها الذي مات تاركًا ملابسه داخل ذلك الدولاب ورفضت هي التخلي عنها، لقد حفظ لها الجميل، لطالما شعرت أن روح «بابا سري» لم تبارح الغرفة، تركها جسده وظلت روحه تسكنها، روحه التي تلبست ذلك الدولاب لتحميها.

منذ البدء أتم داود صفقة الفندق باسم نعمة، وحين كبر الأولاد كتب لكل منهم حصة، ولكنها حصص صغيرة تندرج تحت بند: «وشركاؤه» وحين ربح خريستو ومعه سيد محروس قضية التشهير جاء حكم الإدانة يحمل اسمها، عرف داود لحظتها هول ما يجابه، لقد عرف خريستو كيف يختار من يسنده في المعركة، لولا ذلك الرجل ما كان لحكم محكمة أن ينفذ عقب صدوره بعدة ساعات!

خرج البوليس من البيت دون أن يعثر عليها، أول ما فعلته بعد خروجها من خلف الدولاب أن سجدت، الله هنا، الله سمعها كما سمع صوت النبي محمد وهو مختبئ في الغار يطمئن صديقه.

18

أبريل 2018

آلاء ومصطفى في فيلا العجمي.

آلاء جالسة فوق الغطاء الأمامي للسيارة مربعة قدميها ومائلة بجذعها على زجاجها الأمامي، تنفخ دخان سيجارتها فيتلاشى في الظُلمة أمام عينيها، بينما مصطفى ممدد فوق سقف السيارة يتأمل الخيط الثعباني الأبيض للدخان وهو يتشتت قبيل سقف الجراج الحجري المتهدم.

- كرم كاتب إيه عني؟

- معرفش!

يمد رأسه نحوها مندهشًا، فتستكمل:

- ما قرتيش لسه.

- خايفة؟

- من إيه؟

- تعرفي عنه حاجة تزعلك!

- زي إنه انتحر مثلًا؟

لقد بحثا عن مفتاح السيارة طويلًا بلا فائدة، يمرران كشافات هواتفهما من فوق أعشاب الحديقة حيث سقطت، ربما طار المفتاح بعيدًا؟ يفتشان في كل الاتجهات ولا يعثران عليه، الحديقة مترامية الأطراف، والمفتاح فص ملح وذاب! تحاول أن تطلب سيارة أوبر ولا تجد سيارات في الجوار، طبعًا! العجمي وفي مثل ذلك الوقت! تركت نفسها تتهاوى على أربع، تحفر الطين بأصابعها بهستيرية، فيتناثر من حولها، تشهق! يسارع إليها قلقًا يمد ذراعه ويجلسها على الأرض، تتركه يعانقها وتهدأ في حضنه، ثم تنهار باكية فيمرر أصابعه على خصلات شعرها، هل يتشابه ذلك الشعور الدافئ بحضن الأب يا ترى؟ تعترف أخيرًا بما يؤرقها فيضج في الضحك! الغريب يا آلاء أن تعيشي في بيت جدك حتى ذلك العمر، لا أن يكون عندك شقة تخصك وحدك، لا تخافي، كل شيء سوف يكون على ما يرام. ماذا عن ماما وقدومها في الصباح الباكر؟ دعي أمر نجوى لي! لا تخبره محتويات حجرتها، تبقى ساكنة إليه ثم تسأله عن سيجارة الحشيش، وأدهشه ردها، كيف عرفت إن لم تقرأ المذكرات! أليس

انتحار كرم سر العائلة المقدس؟ عرف عنه من ربيع، كما عرف منه أنهم يتكتمون على الأمر وإلا يحرم دفنه بين موتاهم.

- أنا عارفة من وأنا صغيرة، من ساعة ما مات، الإنسان غبي بشكل عام، همس ووشوشة وإنكار وكأن الطفل حمار مش حيفهم اللي بيتقال!

- مش غضبانة إنه اتخلى عنك؟

- غضبت عليه فترة من حياتي، وشفته كافر، وبطلت أزوره، أو أقراله قرآن وأدعيله، قلت كافر ما يستاهلش، وقلت جبان وقلت خذلني وخذل ماما...

وقالت لنفسها إننا نبلغ بسهولة ذلك الشعور حين تصبح ذواتنا ثقيلة، حيث لا مفر إلا بخروج الروح من الجسد، وعلى مدار حياتي سواء كنت مكتئبة أو لا كانت تتخايل لعينيَّ كل الطرق المحتملة للموت، أرى شباكًا فأتخيل نفسي وأنا أقفز منه، أرى بحرًا وأتخيل نفسي وأنا أسبح نحو أعماقه ثم أستسلم للتيار يأخذني، أمشي على الطريق، فأرى نفسي وأنا أقفز أمام إحدى السيارات المارة، تعلمت كيف أصنع مشنقة من الحبل عن طريق اليوتيوب، ومضيت أصنع مشانق، أتأملها ولا أجرؤ! وليس كل إنسان قادرًا على قبول عبثية الحياة، أن تولد لكي تمضي نحو فنائك، وأن تلد كائنًا محكومًا عليه بالموت! فما الفائدة؟ وما دام موتًا في كل الأحوال فلمَ لا تختار بنفسك ميقاته، الانتحار سبيل يرتاح المرء حين ينظر إليه كاختيار قد يلجأ له يومًا! إن بابا لشجاع حقًّا وقد فعلها! وسألته بعد تردد يسير:

- وأنت هربت علشان ميولك الجنسية؟

اعتدل في جلسته منتفضًا، كيف عرفت! يتطلع إليها مستغربًا، يرى أثر الحشيش على ملامحها، تقول وهي تؤرجح ذراعها في الهواء راسمة بدخان سيجارتها خطوطًا متراقصة سرعان ما تتلاشى:

- اعتراف مقابل اعتراف!

يرد بسرعة:

- دورك، عرفتي منين؟

آه، إن ذلك لاعتراف ثقيل الوطأة:

- كفاية اعتراف واحد مني واعتراف واحد منك!

وقبل أن يعترض قالت بسرعة تغير الموضوع وهي تشير بإصبعها إلى السماء:

- خايف منه؟

- إيماني بيه مختلف..

فغمغمت دون رد، ثم قالت لنفسها إنه لمن الأيسر أن تكون مؤمنًا، وأن تتحمل من الحياة كل ذلك الكرب في سبيل حسن الخاتمة، «جنة» يستقبلك الملائكة على أبوابها الهائلة، ويشفى صدرك من الغل لأنك تعلم أن من دللتهم الدنيا يحترقون الآن في الجحيم! وجدت نفسها تتلو دون عمد منها:

«إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكؤون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قول من رب رحيم».

وقال لها إنها تتلو ببراعة وإنه لطالما أحب سورة يس، فقالت ببساطة:

- كنت بحفظ قرآن وبدرسه زمان..

- نكمل اللعبة، اعتراف في مقابل اعتراف، مش لازم تقولي عرفتي منين، اعترفي بحاجة تانية!

ردت ضاحكة:

- استنى لما أدخل على الجوب الرابع!

نزل من فوق السيارة ودار يقف أمامها، ثم قال بجدية وهو يتطلع إليها:

- مش لازم حد يعرف عن الكتاب ده غيرنا يا آلاء، نديهم الموافقة من غير رجوع لحد.

- وماما؟

- نخليها في صفنا، هي أصلًا لا بتحبهم ولا بيحبوها!

- حتوصل الصبح بدري..

- نكلمها مجرد ما تطلع الشمس! نتفق معاها تخليها في القاهرة ونروح إحنا بعد ما نجيب مذكرات كرم من بيتك..

- علشان حاسس إن صالح حيرفض؟

- أنا عارف كويس جدًا صالح حيقول إيه..

وقال مقلدًا طريقه صالح في الكلام:

- بصي يا آلاء، الصور دي شخصية، وفيها حريمنا كاشفين راسهم، وفيها بيوتنا وأوض نومنا، ده ميصحش أبدًا، والمذكرات بتاعة باباكي وجدك وبابا سري تتنشر كدة عيانًا بيانًا؟ ننشر غسيلنا الوسخ على الملأ؟ ده كلام؟ توء توء توء.

وأحنى رأسه على كرش مُتخيل، وأغمض عينيه، وقال بحزم:

- لا يمكن ده يحصل!

وضجت آلاء بالضحك. لقد حاكى عمها صالح بالضبط، كيف فعلها؟ كيف وهو الغائب عشرين عامًا!

وأحست فجأة أنها لا تبالي بالأمر كله، إن ذلك الصنف لرائع! تبدو الأشياء كلها تافهة لا معنى لها، والسماء قريبة، وهمسات الليل محببة إلى القلب، حتى الصراصير تُغري بتفحصها عن قرب! ولماذا أخشى من الاعتراف بأن هجره لي، لهو أشد قسوة علي من فقدان أب مات وأنا لا أزال طفلة، لماذا لا أعترف بعيدًا عن كل الاقتباسات والترّهات التي تجري على السوشيال ميديا بشأن الآباء المتوفين، إنني بالفعل نسيت شكل بابا، نسيت صوته، نسيت قسوته لو كان قاسيًا، ونسيت حنيته لو كان حنونًا، باختصار لقد نسيت تمامًا كيف كان وعليّ أن أثبت للعالم كل يوم أنني لم أنس وإلا أكون فتاة عاقة!

- أنا جعت!

ونطت من فوق السيارة، فردت راحتيها على شباكها الخلفي، ثم ألصقت رأسها بينهما، على الأريكة يقبع كيس من الوجبات الخفيفة، ولكم يبدو في عينيها مغريًا لذيذًا، وإذ بمصطفى يتجول في أنحاء الجراج باحثًا عن شيء ما، ثم ينحنى ويتناول طوبة من على الأرض:

- إبعدي عن الشباك..

ورأت الطوبة بين أصابعه فسألته داهشة:

- حتعمل إيه؟

وقذف بالطوبة نحو النافذة الخلفية فكسرها، ثم جاء بفرع شجرة، وراح يخبط الزجاج من حول الثقب الذي صنعته الطوبة، فيوسعه، ثم مد يده من خلال الشباك المكسور وأخذ الكيس قائلًا:

- وأنا كمان جعان!

19

يوليو 1994

طريق إسكندرية - مطروح الساحلي.

لم يلفظ الفجر أنفاسه الأخيرة بعد، وقد أسدل نوره الأزرق الخافت على الطريق الهادئ. السيارة المرسيدس العنابي تتصدر المسيرة يقودها كرم تتبعها اللادا البيضاء يقودها صالح.

تجلس نعمة على الأريكة الخلفية للمرسيدس، يجاورها مالك وآلاء، مالك يلعب في جهازه الإلكتروني الصغير، وآلاء تقرأ من إحدى أعداد المغامرون الخمسة، وبين حين وآخر يلتقط أحدهم إحدى لافتات الطريق التي تعلن عن المسافة المتبقية إلى مدينة مطروح، فيزف الخبر إلى صاحبه وهو فخور بنفسه.

تيارات الهواء تخترق نوافذ السيارة مثل الأسهم، فتتألم منها الآذان، يغلقونها قليلًا ثم يعاودون فتحها حين تشتد الحرارة داخل السيارة، في الأفق على امتداد الطريق الذي يبدو سرمديًا، كانت الشمس قد بدأت رحلة صعودها نحو السماء، ومن حين لآخر تتخايل لهم على امتداد الطريق، ما يبدو كأنه برك صغيرة من الماء، فيشرح مالك لآلاء وهو فخور بنفسه، عن مفهوم السراب.

طلب داود من كرم، وكان يجلس جواره، أن يتوقف عند أول استراحة يمرون بها كي يمطوا أجسادهم التي كادت تتيبس من طول الجلوس.

وحين لمح كرم عن بعد إحدى تلك المقاعد الرخامية المظللة ببناء بسيط من الطوب، شغل إشارة التوقف كي يلحظها صالح فيهدئ من سرعته استعدادًا للوقوف، هدأ كرم السرعة تدريجيًا وهو يتنحى بالسيارة إلى يمين الطريق، حتى صفها جوار الاستراحة. ووقفت اللادا خلفه.

ترجل داود من السيارة وطلب من كرم أن يأتي بالبطيخة من صندوقها.

مضى الأطفال يتجولون على طرف الطريق خلف المقعد الرخامي المظلل، بينما انضمت سامية زوجة صالح إلى نعمة داخل المرسيدس تصنعان ساندوتشات الجبن، لاحظت سامية أن نعمة أصابعها ترتجف فعرضت عليها أن تتولى عنها المهمة إلا أنها أبت وقد ساورها بعض الغضب، متى تذهب عنها تلك الرجفة اللعينة! وأما صالح فقد جلس جوار داود يتصفح جريدته، وكرم يقف على مقربة منهما وهو يدخن سيجارة.

وكان داود الصغير يشتكي من ضحبة البنات خلال الطريق، ويطالب بأن يستبدل مكانه

مع ألام فيكون بضحبة مالك:

- الولاد مع بعض والبنات مع بعض.

قالها وقد أسند كفه مكورة على جنبه، وأمال جذعه شيئًا يسيرًا، تطلعت إليه ألام باستياء، ثم قالت ممتعضة مما نطق به:

- مين قال لازم البنات مع بعض والأولاد مع بعض؟

وقالت شريهان وهي ترنو إلى داليا وتضغط كفها على فمها لتكتم ضحكة:

- خدوه معاكم ده بيعمل بومب طول السكة.

وضجوا جميعًا بالضحك، بينما تضرج وجه داود الصغير غضبًا وخجلًا، وهو يضرب شريهان على كتفها، فما كان منها إلا أن ضغطت أنفها بأصبعيها قائلة:

- إفيييه عملها تاني، شامين؟

وكان بالفعل هنالك رائحة عفنة منبعثة من الطريق، آتية من مكب نفايات ليس قريبًا جدًا منهم، إلا أن رائحته النفاذة تحملها الريح إليهم متقطعة، فتذهب وتجيء، وراح الأطفال يشيرون بأصابع الاتهام بعضهم لبعض حول من منهم مصدر الرائحة الكريهة.

تناول داود سكينة المطبخ الكبيرة من نعمة وشق البطيخة إلى نصفين، فترك الأول على المقعد بينه وبين صالح. وأخذ يقتطع من النصف الثاني أجزاء هلالية الشكل، ثم رفع صوته مناديًا على أحفاده، الذين جاؤوا راكضين يختطفون منه أقواس البطيخ وأعطتهم نعمة ساندوتشات الجبن.

ترك صالح جريدته جانبًا لكي يتناول طعامه، وندهت نعمة على كرم قائلة:

- يا كرم، سيب السيجارة دي وتعالى كُل.

غمغم أنه قادم واستمر يدخن سيجارته بقلب منقبض، كانوا في طريقهم إلى أقارب لهم في مدينة مرسى مطروح حيث تختبئ نعمة بينهم إلى أن تسوّى القضية، أراد أن يذهب معها وحده، أراد أن يعثر على فرصة للاعتراف والتخفف من ثقل الذنب على قلبه، أراد أن يذهب بها فيتركها عند أقاربه ثم يلقي بنفسه في قلب البحر فلا يعود أبدًا! فإذ بهم يأتون جميعًا بل يصحبون معهم العيال وكأنهم ذاهبون إلى نزهة ما! شخف!

وكانت نعمة تراقب الجميع بانتباه، فإذا رأت واحدًا منهم أنهى طعامه، نادت عليه ليأخذ المزيد.

أما الأطفال فسرعان ما مضوا بطعامهم مبتعدين إلى طرف الطريق متضاحكين، حيث إن تلك كانت خطتهم للهروب من نعمة، وإلا أطعمتهم عددًا لانهائيًا من الساندوتشات.

نبهت نعمة على سامية أن تصنع المزيد من الساندوتشات، ثم ترجلت من السيارة ووقفت بجوار المقعد تنادي على الأطفال بصوت كانت حدته تعلو كلما تجاهلوا نداءها، ترى متى تراهم مرة أخرى وتصنع لهم الساندوتشات؟ لن يبقى داود معها في مطروح، ولا حتى صالح أو كرم، لا بد أن يرجعوا لمتابعة القضية وتسويتها حتى تتمكن من الرجوع إلى بيتها، وها هي بعد كل ذلك العمر تحل ضيفة على بيت أقرباء لها لم ترهم في حياتها إلا مرات معدودة! شدها داود من كفها فأجلسها جواره، ثم ناولها قوشًا كبيرًا من البطيخ وهو يقول:

- خدي يا ست سدي حنكك بده وسيبي العيال في حالهم..

فدفعت يده التي تحمل البطيخ بعيدًا وقوست حاجبيها معترضة:

- أسد حنكي؟ طب والنبي ما واخدة منك.. هه.

فدفعها داود برفق في كتفها قائلًا:

- خدي يا وليه، الله، تكسفي إيدي؟

فابتسمت له وهي تأخذ منه قوس البطيخ، وتطلع إليها طويلًا حتى خفضت عينيها حياء، ثم داعبها قائلًا:

- جبتي المايوه؟

توردت نعمة وكأنها عذراء في عمر المراهقة، قالت وهي تمصمص شفتيها لتتغلب على ما ساورها من خجل:

- والنبي إيه، عجوزة في مايوه؟

قال وهو يهش كفه في الهواء معترضًا:

- يا ستي عجزي لوحدك أنا في ريعان شبابي.

وضحك صالح منهما وهو يتناول جريدته بعد أن أنهى طعامه، فتوجهت إليه نعمة قائلة:

- خد ساندوتش كمان.

رد عليها وهو يقوم نصف قومة وكأنه يستعد للفرار:

- والله لأهرب منك مع العيال!

ضحك داود وجعدت نعمة جبينها وهي تقضم من البطيخ، عاد صالح إلى تصفح جريدته لدقائق قبل أن يقف مندهشًا وهو يقرب الجريدة من عينيه مقطبًا جبينه، ثم يدفع بها نحو داود متسائلًا: إيه ده؟

أخذ منه داود الجريدة وهو يسأله: خير؟

وضع صالح إصبعه على إعلان صغير في قسم الإعلانات المبوبة، فقرأه داود بتمعن، وتعكر صفاء وجهه الأسمر، فألقى بالجريدة جانبًا، ثم انتفض واقفًا فسقطت نصف البطيخة متكسرة على الأرض، غمغم وهو يجز على أسنانه:

- العرص ابن الوسخة!

تطلع صالح بقلق نحو الأطفال، ألا يسمعوا السباب، اطمأن أنهم يلعبون غير منتبهين إلى ما يحصل، وكان كرم قد أخذ منه الجريدة ليقرأ فيها:

تحذير

يحذر لويس خريستوفيدس مدير شركة فندق متروبول بمحطة الرمل بالإسكندرية من التعامل مع أي شخص سواه في كل ما يتصل بالفندق سواء بالنسبة للإدارة أو الاستثمار حيث إنه هو الممثل الوحيد للفندق ولا يعتد بأي عمل أو تصرف مع غيره.

تحـــــــذير

: مخصص

يحذر خرستوفيدس سولوص، مدير شركة فندق متروبول بمحطة الرمل بالاسكندرية من التعامل مع اى شخص سواه فى كل مايتصل بالفندق سواء بالنسبة للادارة او الاستثمار حيث انه هو الممثل الوحيد للفندق ولايعتد باى عمل او تصرف مع غيره

مزايـــــــدات

بهت كرم، هوي قلبه واصفر وجهه وأسرع يبتعد عنهم عند طرف الطريق وهو يسحب سيجارة بأصابع مرتعشة، شعر بنفسه دائخًا، تنطفئ أعواد الكبريت قبل أن تشعل سيجارته فيجرب واحدة بعد أخرى بلا فائدة، وإذا جسده ينتفض على وقع فرقعة باب السيارة متبوعًا بصوت داود هادرًا:

- يالا...

وحاول صالح أن يناقش داود حول ذلك الإعلان وتبعاته عليهم، وما قد يتخذونه من إجراءات قانونية، لكنه قاطعه قائلًا بحدة وهو يجز على أسنانه:

- قلت يالا!

وترجلت سامية من السيارة وهي تنادي على الأولاد، جاؤوا وهم يتشاجرون فيما بينهم، كل من آلاء وداود الصغير يرغب في أن يركب مالك معه، حين بلغوا السيارة على تلك الحالة من الجدال، زعق داود فيهم بعنف أفزعهم فصمتوا وذهبت آلاء منكسة الرأس لتركب سيارة صالح بينما قفز داود الصغير إلى جوار نعمة فرحًا بانتصاره غير عابئ بغضبة جده.

وانطلقت السيارتان على الطريق مخلفين البطيخة القتيلة من ورائهم تنز دماؤها على الأسفلت.

20

أبريل 2018

آلاء ومصطفى في فيلا العجمي.

تسلل المُخدر على مهل إلى الدماء، فصفا العقل وتراجعت المخاوف وشحذت الحواس، فصار الأكل وكأنه مُنزل من الجنة مباشرة إلى ما بين أيديهم، ولانت الصدور وفاضت الكلمات، فحكت آلاء عن فاضل وحكى مصطفى عن ديريك، كانا ممددين في قلب الحديقة، فوق العشب المحروق يتطلعان إلى القمر ويتطلع هو إليهما من وراء السحاب حينًا ودون حجاب أحيانًا أخرى.

ولم تزايلها الدهشة لحظة، إنها في فيلا العجمي بعد منتصف الليل، تنام على الأرض ليلًا غير عابئة بالحشرات والكائنات الليلية الأخرى، تُدخن حشيشًا مع عمها الذي لم تدرِ بوجوده إلا منذ وهلة! من ذا الذي يصدق ذلك؟ ولو فُتحت لآلاء أول الألفية الثانية، نافذة على الغيب فرأت منها آلاء 2018 لأنكرت ما تراه، وقالت لا يعلم الغيب إلا الله، وما ذلك إلا تجديف وبهتان، بل إنه إهانة لتقواها معاذ الله أن تكون تلك هي، إن هذا إلا عمل الشيطان.

وهي لم تحشش قبلًا إلا في صحبة فاضل، تنهال عليها ذكراه بلا توقف، حين جربت للمرة الأولى لم تشعر بشيء، وقال لها فاضل:

- ده تنفيخ، كل تدخينك للسجاير تنفيخ!

وعلمها وهو جالس القرفصاء قبالتها كيف تدخن سيجارة، كيف تسحب الدخان حتى صدرها وتتركه هناك قبل أن تطلقه، ثم تسربت الفيمة الأولى إلى عقلها تذكرها بسجدة قديمة لم تتكرر بعدها أبدًا مهما حاولت، ذلك الاتصال النادر بالله والدموع تندلق سيولًا من عينيها دون أن تحس بها، بعد ذلك اعتادت أن تتباكى في الصلاة: (يا أيها الناس! ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا) وحاولت مرارًا فلم تفلح، وداهمها شعور بالنفاق من فرط التباكي! وقال لها مرة في آخر الليل: can I kiss you?، وقال إنه خجول رغم ما يبدو عليه من جرأة، ومهما حاولت طرد كل الشياطين لم تستطع، تركته يقبلها وفي اليوم التالي للقبلة عرضت عليه الزواج فاندهش! ورأت ذلك الإنكار على وجهه فشعرت أن الخجل يأكلها حية، هل يحكي للبقية؟ هل يتهمونها بالفلح! وغاب عن حياتها أسبوعًا كاملًا شعرت خلاله أنها سقطت في قاع الجحيم! ولكنه لم يحكِ لأحد، وحين رجع لها أخيرًا شبك أصابعه في أصابعها، فمر تيار كهربائي يُعلمها أن ذلك هو السكن وأن مقاومتها تنهار وكأنها لم تكن إلا جبال ماء، وقال لها فيما بعد إنه لاحظ محبتها في كل شيء، نظرتها، لمسات عابرة، وحتى نبرة صوتها!

فاشتعلت خجلًا وأنكرت كل شيء، وها هي لا تكف عن إنكار مشاعرها، نعم إن حبًا لذلك العم يتكون داخل صدرها!

21

أغسطس، 1994

كرم داود، السيدة زينب، القاهرة.

طال انتظار ربيع على السلم وهو يدق الجرس، ثم يطرق الباب، ثم يعاود الدق بلا فائدة، وتسرب إليه الفزع حتى إنه فكر في كسر الباب، ولكن كرم فتح أخيرًا ورآه سكران تائهًا، شبه غائب عن الوعي، إنه يمر به كل يوم فيجده على حالة بالغة من السكر، ولكن الأمر يزداد سوءًا، وقد حاول إقناعه بالبقاء معه في شقته بالقاهرة ولكنه أصر على الرفض، واستأجر تلك الشقة الضيقة، الرطبة، ذات الهواء العفن، وكيف تتوقع أن تتحسن حالك وأنت جالس في تلك الخرابة، تشرب وتدخن من مطلع الشمس إلى أن يلوح الفجر؟ وجره إلى المطبخ فدس رأسه أسفل الصنبور، ثم عاد به إلى حجرة النوم فأجلسه على الفراش وجلس بجانبه، وصاح به أنه إن لم ينتشل نفسه من تلك الحالة سوف يكلم صالح ويدله على مكانه، فاعتدل كرم فزعًا وداهمته إفاقة، وابتسم ثم حكى نكتة وضحك عليها، ولم تنفرج ملامح ربيع، فقال له لائمًا:

- افرد بوزك يا أخي وأنا ناقصك؟

هز ربيع إصبعه مهددًا:

- حكلمهم!

فقال كرم بجدية من لسان ثقيل:

- حتيجي الصبح مش حتلاقيني هنا أرض الله واسعة!

ثم استطرد يزعق غاضبًا:

- غور من هنا يلا!

نهض من على الفراش وألقى عليه نظرة هي مزيج من الإنكار والعتاب ثم خرج من الحجرة إلى المطبخ، لقد حاول خلال الأسابيع الماضية أن يقنعه بزيارة طبيب نفسي، ولكن كرم صمم على الرفض، يضحك في وجهه كلما جالسه، يُلقي بالنكات ويؤكد عليه أن ذلك الحشيش هو طبيبه، وتلك الفسحة من الحياة ما هي إلا وضع مؤقت، يحتاج إليها خُلوة تعينه على مراجعة نفسه، ومن بعدها حين يعود إلى حياته سوف يتغير ويغير كل الأشياء من حوله، يصلح ما أفسده، يساعد أباه على هزيمة أعدائه، يعتذر من نجوى وآلاء ويرضع يوسف

بنفسه، يقتل الأستاذ عطية ويمنح رأسه هدية لكاميليا، يعتذر إلى مصطفى ويرجوه أن يرجع إليهم، يقول سوف أهزم الكائن الجبان القابع داخلي، ثم عندما يتقدم المساء وقبل أن تذهب شدة السُكر يصير كرم ذاهلًا عن الدنيا، يتطلع نحو الفراغ ويتقوقع داخل ذاته صامتًا، فلا يتمكن ربيع من النفاذ إليه أبدًا.

ورجع إليه من المطبخ يحمل كوب القهوة، فاعتدل جالسًا وتناوله منه مبتسمًا إليه في اعتذار، ورشف من الكوب عدة رشفات. بينما فتح ربيع حقيبة ظهره فسحب منها راديو صغيرًا كان قد جاء به إليه، شغل الراديو ومضى يقلب بين محطاته، بينما ينظر إليه كرم بغرابة، قال فجأة:

- أنا جبان..

- كلنا بنخاف، الغبي بس ما يخافش.

- بابا سري كاتب في مذكرته عن واحد قريبنا وصف ينطبق عليا بالملي!

ولم يرد ربيع فقال مستكملًا:

- كل بيت وفيه خرابة، يعني مرحاض، وقريبنا ده كان مرحاضًا، خبيثًا، قبيحًا، كريه النفس، وكأنه بيوصفني!

- اشرب قهوتك.

- وإيه مقعدك معايا وأنا مرحاض كريه النفس؟

وتجاهل سؤاله، واستقر على محطة كانت تذيع أغنية لعبد الحليم حافظ، فرفع الصوت، ودندن بصوته العذب مصاحبًا الأغنية:

- خدنا القمر لجزيرة أبعد من الخيال، لا شافتها عين ولا خطرت ببال، لا شافتها عين ولا مرت ببال، يا حبيبي وصلنا فوق بر الأمان...

وكرم يرتشف من الفنجان حتى أتى على قهوته وشاركه الغناء:

- إفتح البيبان لقلبك ولشبابك ولحبيبك، إبعد الخوف عن رموشك أوعى شيء في الكون يحوشك، غني.. أرقص.. إجري.. إجري.. إجري.

وعندما انتهت الأغنية قال كرم لربيع:

- عندي ليك رجاء...

- قول..

- ممكن تنزل إسكندرية؟

- ليه؟

- تطمن على أحوالهم هناك، وتشتري لآلاء العدد الجديد من المغامرون الخمسة، حتلاقيه في الكشك تحت اللوكاندة.

- مش حقدر أسيبك.

- حترجع تلاقيني جحش قاعد مستنيك.

- مستحيل!

- محتاج أطمن عليهم!

- إنزل بنفسك.

- أرجوك...

وتفكر ربيع قليلًا ثم قال له إنه سينزل إلى الإسكندرية لو تمكن أحمد فرج من البقاء معه في الشقة، فاومأ موافقًا وهو ينظر إلى صاحبه بامتنان، فليأتِ بفرج لا يهم، إن بالدولاب خلف ظهر ربيع خزنة سرية صنعها كرم في قعر الدولاب خصيصًا لكي لا تكون ملحوظة لمن يفتحه، في الداخل إلى جانب الصور والملفات التي أخذها من بيت داود، حبل وحلقة معدنية ومسامير كبيرة ومنشار كهربائي. لا إنه لم يعقد العزم تمامًا، ليس بعد، ليس الآن، وإنما أراد فقط أن يكون جاهزًا، سوف يواجه نفسه، يعترف بجبنه وضعفه، يحاول التخلص من جلده كثعبان إلى جلد آخر طازج وجديد، ولكن إن فشل حتى في ذلك، تكون هي اللطمة التي لا منطق من استكمال الحياة بعدها.

22

أبريل 2018

آلاء ومصطفى في فيلا العجمي.

يتسلى مصطفى في تصفح الصور وقد جاء بها هي والملفات من السيارة، يقتاتان عليها حتى يطلع الصبح فيتصل بنجوى ويحول دون مجيئها الإسكندرية، وناولها صورة تقف فيها نجوى أمام البحر، فوق ذراعيها يوسف، وفي قلب البحر كرم وهي معلقة فوق كتفه، لديها نسخة من تلك الصورة، تتذكر ذلك اليوم جيدًا، لكن هل تتذكره فعلًا أم أن الصورة الموجودة أمامها دائمًا داخل إطار جوار فراشها، حفظته لها فتوهمت أنها تذكر؟ لقد كانت في التاسعة من عمرها حين مات والدها. رأت الألوان وهي تختفي تحت ستار أسود يكسو الأشياء كلها حتى منبت الرؤوس.

قالت لها نعمة: باباكي سافر عند ربنا..

ذلك الصباح تركوها عند جيران لا تعرفهم. جيران لا يسمحون للشمس أبدًا بتدفئة جدران بيتهم. جلست على الأرض مستندة إلى الحائط بينما النور الأبيض البارد يمطر عليها من لمبات السقف المشقوق في مواضع عدة. رأت في تلك الشقوق أسماكًا حزينة تبحر عبر محيط متجمد، تحاول النجاة فتعجز وتتجمد هناك فوق رأسها. ودت لو تطلب منهم فتح أي شباك، لكنها لم تجرؤ. عرضوا عليها طعامًا ولبنًا وماءً فأبت. تمنت لو يعرضون عليها شمسًا، هذا كل ما أرادت في تلك اللحظة، شعاع شمس يؤكد لها أن الزمن لم يتجمد بعد.

وقال لها مصطفى إن أباها هام حبًا بنجوى، لأجلها ترك البيت وخاصم داود ونعمة، وحقق المستحيل لينال رضاها، ولم ترَ من القصة إلا أنه حُب هدام، يودي بصاحبه إلى التهلكة، ومع ذلك فقد أحلت سيرة الحُب تلك الذكرى غير البعيدة بعقلها لا تقبل مفارقته، تراها مثل صورة مرسومة داخل كتاب كوميكس، لشباك مفتوح على مصراعيه ولا شيء أمام أعينهم إلا الأفق الأسود الممتد لتلك السماء المرصعة بنجوم فضية تومض وتتباعد وتقترب وتتراقص بغنج فتشعرك أنك ترغب بشدة في لمسها، بل في بعثرتها في فضاء ذلك الامتداد الهائل واللانهائي الذي تحظى به عالقًا لها، هي وفاضل متربعان جلوسًا على الأرض، تضمهما بطانية واحدة، الصورة ملتقطة من مدخل الحجرة فيظهران من الخلف ظلالًا ومن أمامهما مربع الشباك تنفجر بين جنباته رقائق النجوم الفضية مثل آلاف وآلاف من حبيبات الجليتر اللامعة. «الليل وسماه، ونجومه وقمره، وأنت وأنا، يا حبيبي أنا».

وترك مصطفى الصور منتقلًا إلى كيس الملفات، وغاصت راحته في قلبه، ينتشل أوراقًا

دون ترتيب، يقرأ منها ويبعثرها ويأخذ غيرها، وكأنه ينتشل أيامًا من الزمن فيعبث بها، مذكرات بابا سري وملفات داود ومذكراته، يخلطها فيقدم الماضي ويؤخر الحاضر ويندهش، كيف صنع شخص من تلك الفوضى كتابًا، ويسألها هل عرفتِه؟ عن من تسأل؟ الشاب الميت صاحب الكتاب، رأيته مرة ثم قتلته، فضحك، فأكدت عليه بجدية أنها بالفعل قتلته، يستاهل، من وسوس له أن ينبش بين أطلال سكنتها العفاريت؟ الحق أنه موهوب ولولا صاحبه لذهب كتابه طيّ الضياع، ولكنه سيضيع فعلًا، ألم تدركي ذلك بعد، ستأبى نجوى وقد تفضح الأمر كله لصالح ونعمة، وتأوه فجأة إذ انغرست زجاجة في أصبعه وهو يعاود دس يده داخل الكيس، وانهمرت الدماء من أصبعه تخضب الأوراق، وفزعت آلاء فضحك مستهينًا: جرح بسيط. ولكن الدماء غزيرة. ماذا عن الأوراق؟ الأوراق فسدت وتلوثت بدمائه.

23

بمرور الوقت، ومع زوال أثر الحشيش، أدركا أنهما ممدان في عراء موحش فوق عشب مُشوك، وأنهما مرهقان وأجسادهما متيبسة، والبرد يزحف عليهما زحفًا فترتعد أوصالهما، قام مصطفى وخرج إلى بيت رفاعي، وسرعان ما أعاره الرجل سيارته عن طيب خاطر.

توجها رأسًا إلى بيت آلاء، وهناك تصفح كرم المذكرات، فنحى منها ما نحى، ثم ترك البقية تحت تصرف آلاء.

24

في اليوم الخامس من شهر أغسطس عام 1994 مشى ربيع مقتربًا من كشك الجرائد أسفل المتروبول، رأى آلاء من خلف الزجاج تراقبه فرفع عينيه نحوها وابتسم، عرفها من الصورة في محفظة كرم، ولم تعرفه لأنه ترك الإسكندرية إلى القاهرة عقب الجامعة مباشرة، اشترى لها عدد المغامرون الخمسة ودسه في حقيبة ظهره وهم بالتوجه نحو مدخل المتروبول، حين ارتفعت صافرات سيارات الشرطة من خلفه، التفت ليرى ثلاث أو أربع سيارات بوليس، نصف نقل آتين من ناحية البحر، كما رأى من خلفها جماعة كبيرة من الناس تأتي مترجلة نحو الفندق، ميز وجوه البعض منهم، عاملون بالفندق، ماذا يحدث؟ عبر الشارع متوجهًا ناحية الجموع ليستطلع الأمر، رأى في أيدي البعض منهم عصيًا غليظة، بدا على ملامحهم حالة من التأهب، وكأنهم ذاهبون إلى معركة، وتراجع أمام تقدمهم نحوه، وحين رأى رجال البوليس يعبرون بوابات الفندق تذكر آلاء، فأسرع إليها ولكن الشرطيّ على الباب منعه من الدخول، استفسر عما يحصل فقال إنه تمكين لمالك الشركة الجديدة التي انتقلت إليها إدارة المتروبول، أخبره أن ابنته وزوجته بالداخل ويريد أن يأخذها فصمم على الرفض، مؤكدًا عليه أن رجال الشرطة سوف ينظمون خروج جميع النزلاء بسلام، ولكن صياح رجال البوليس يتناهى من الداخل، والناس يخرجون مهرولين، أفواجًا يعجز عن تمييز آلاء بينهم.

مضت فترة وخلا الفندق إلا من سيد محروس والعاملين الممتنعين عن الخروج، يهددهم الضابط بالقبض عليهم جميعًا، يستسلم البعض منهم وينسلون من الباب حانين رؤوسهم، ويظل البقية متمسكين بموقفهم، يشجعهم على ذلك سيد محروس، لقد انقلب عليه خريستو بعد القضية، رأى عبد الرحيم الديب، المشتري الجديد، أنه عبء عليه، ولم يطمئن لوجوده في الإدارة الجديدة، فاجؤوه بأمر الجرد وسحبت من تحت يده كل الملفات التي كانت قارب نجاته، وتلك هي قشته الأخيرة يتمسك بها جاهلًا، من فرط سكره، أن لا يمسك إلا ماءً، ومن سخرية الأقدار أن يجد نفسه في مركب واحدة مع داود الذي كان بالأمس عدوًا له!

وأما صالح فقد تلقى اتصالًا من المحامي، ينصحه بأن يترك المكان فورًا وإلا قبضوا عليه، ويضعف موقف أبيه في القضية.

وما إن لمحه ربيع عبر الفاترينة الزجاجية، متجهًا نحو باب الخروج، حتى خف مبتعدًا إلى الشارع الجانبي كي لا يراه صالح فيسأله عن مكان كرم، وحين مر صالح بالعاملين المنشقين في الخارج يحملون العصي، أولئك الذين عقدوا اتفاقًا مع المالك الجديد للفندق، بصق على الأرض وهو يمر من أمامهم ثم مضى مبتعدًا، فمشى ربيع وراءه، تاركًا بينهما مسافة آمنة، واتجه صالح نحو مقهى تريانون، في الخارج كانت آلين تجلس مع آلاء وكريم، شكرها صالح

وأخذ منها البنت وانصرف.

حين عاد ربيع يستطلع الموقف رأى رجال الشرطة يسمحون بدخول بعض حاملي العصا قدس نفسه بينهم، وفي الداخل سمع صيحات الوعيد تنهال على المتشبثين بالبقاء، وما إن رأوا زملاءهم الخونة يدخلون عليهم، حتى ثارت ثائرتهم، واشتبكت المجموعتان في معركة غير عادلة، يتلقى الواحد منهم ضربة بالعصا على نافوخه أو كتفه وظهره فيسقط وتتلقفه العساكر، يكبلونه ويجرونه إلى الخارج ثم إلى البوكس رأسا، وتلاشى سيد محروس لا يدرون أين ومتى ذهب! وفتر حماس البقية، البطالة خير من السجن، فانفض العاملون تباعًا.

في الخارج وقف ربيع يتأمل المبنى الضخم العتيق حائرًا، آاه لقد وقع البلاء، وكيف يبلغ كرم بهكذا حدث؟ هل يخفيه عنه؟ لا لا، لا بد له أن يعرف، قد تكون تلك هي لطمة الإفاقة، تبعده عن تلك الشقة القذرة، ويعود إلى الإسكندرية ليكون جوار أهله خلال الأزمة.

وبلغ القاهرة مساءً فوجده سكران بصحبة فرج، وقد رصوا على أرض الصالة العارية شلتًا فجلسوا عليها يشربون ويدخنون، بينما الراديو الصغير في منتصف الحلقة على الأرض يصدح بالغناء، وبادره فرج قائلًا بلسان أثقلته الخمر:

- ما الراجل حلو ورايق أهه، أمال وقعت قلبي ليه؟

وقرأ كرم حدثًا جليًا على صفحة وجه ربيع التي دومًا ما تشف عما يعتمل في صدره، فسأله بجدية عن الخبر، تردد ربيع قليلًا ثم شعر أنه لو لم يتكلم سوف يتوقع كرم الأسوأ، بدأ بالقول إنه رأى آلاء وإنها في خير حال، ثم ألقى على مسامعه ما حصل ملطفًا منه قدر الإمكان، ارتسمت ابتسامة على وجه كرم، ثم قهقه ضاحكًا لفترة طويلة. ثم قام فجأة وقال لربيع إنه راجع إلى الإسكندرية الآن، فقال ربيع:

- لا الصبح..

- دلوقت.

وتدخل فرج قائلًا بصوته الأجش:

- ما تنشف يا راجل وتعقل كدة، مش شايف نفسك سكران طينة؟ حترجع كدة لعيالك؟

وعاد كرم يجلس، وتنفس ربيع الصعداء وشعر أن قراره كان سليمًا، وفتح حقيبته وشد منه كتاب آلاء فقال له:

- حتديهولها بنفسك.

وأومأ له كرم وتناول منه الكتاب فطرحه على الأرض جواره، وقرر ربيع ألا يتركه حتى يطمئن إلى ركوبه عائدًا إلى الإسكندرية.

25

أبريل 2018

بيت داود، الإسكندرية.

فتحت آلاء عينيها بصعوبة بالغة على وقع الطرقات، نظرت إلى ساعة هاتفها فكانت الواحدة ظهرًا، لقد وصلا بيت داود في حدود السابعة والنصف صباحًا، قابلتها نجوى أمام البيت نحو الثامنة والربع، فأخذت منها مذكرات كرم، وأبت أن تصعد إلي حيث رفضوا استقبال زوجها، وحين عانقت آلاء فراشها أخيرًا نامت بمجرد أن لمس رأسها الوسادة، إلا أنها تشعر وكأنها لم تنم دقيقة واحدة، قالت لها نعمة وهي تقف عند الباب:

- تعالي بسرعة شوفي، بيت العفاريت، الأعمال، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وابتعدت نحو الصالة دون أن تفسر لها ما تقوله. فنهضت آلاء عن الفراش وتبعتها نحو غرفة بابا سري، في الشرفة كان مصطفى يقف جوار نعمة فوقفت بينهما، عبر الشارع كان السور الحجري المحاط بحديقة العمارة قد تهدم، رجال كثيرون يحملون فؤوسًا يقلبون بها الأرض ثم يمدون أيديهم ساحبين من التربة؛ صورًا نُقشت عليها رموز وطلاسم، وأخرى معلقة بها أقفال، عرائس بلاستيكية مكسورة ومرسومًا عليها طلاسم، أكياسًا بلاستيكية مقفولة بأسلاك من النحاس، ولفائف من الألومنيوم المفضض ملفوفة أيضًا بأسلاك من النحاس، ومن حولهم أناس يحملون كاميرات، وآخرون يصورون بكاميرات هواتفهم، وقالت نعمة لمصطفى:

- انزل بسرعة شوف صورنا!

فتساءل مندهشًا:

- صورنا؟

- طبعًا، أمال فاكر اللي جرالنا ده من إيه؟

وقال لها برجاء:

- يا ماما، حلاقي إزاي صورنا وسط ده كله؟

فقالت بحزم:

- إن منزلتش أنزل أنا!

فنفخ مستسلمًا وترك مكانه بينهما، ولم تمض إلا دقائق حتى ظهر أمام أعينهما خارجًا من البيت متوجهًا نحو الجهة الأخرى من الشارع، شق طريقه بين الرجال المتجمهرين للتصوير، وما إن عبر إلى الأرض حتى داهمته رائحة نتنة شديدة الوقع فسدَّ أنفه وتجعدت ملامحه، ورأى الحفارين من حوله يقلبون الأرض، ويستخرجون الأعمال ثم يجمعونها في كومة إلى جوار السور الداخلي، ولم يكن وحده المهتم بتلك الكومة، حيث تجمهر حولها عدد من الرجال، بعضهم يقلب فيها والبعض الآخر يلتقط لها صورًا عن قرب، وهنالك مئات من الصور واللفائف والعرائس والعجائب والغرائب، سوف يعود إليها ويقول لها إنهم بمأمن وأن لا شيء يخصهم هناك، لو لم يخرج من هنا حالًا سيفقد وعيه من فرط تصاعد الرائحة النتنة إلى أنفه، وتعجب من أولئك الرجال كيف يتحملون البقاء بالمكان؟ وشد خطاه يرغب في الخروج فعثرت رجله في شيء وكاد يسقط لولا أن لحقه رجل كان يقف بالقرب منه، «خلي بالك»! ألقى ببصره إلى الأرض فرأى جيفة منتفخة البطن متآكلة ودودًا أبيض سميكًا يزحف على كل جزء منها، وفزع فزعًا هائلًا وشحب وجهه، وسمع شخصًا يقول: منهم لله ولاد الحرام ده فيه غيرها كتير! وتساءل آخر: وده إيه ده كمان؟ فقال الأول: كانوا بيحطوا العمل في بق القط ويقفلوا بقه ويخيطوه ويرموه هنا علشان يموت والعمل في بطنه، لا حول ولا قوة إلا بالله، الكفرة أعوان الشيطان. وانقلبت معدته وتصاعد سائل حارق إلى جوفه، وركض مبتعدًا عن المكان كله، وما إن عبر الشارع حتى أفرغ كل ما في جوفه على الرصيف أمام العمارة، رأته نعمة ففزعت وأرادت أن تنزل إليه، ولكن آلاء استوقفتها قائلة: «خليكي حنزل أنا» وما إن همت بالخروج من الشرفة حتى نادتها نعمة أن تنتظر، إذ إن مصطفى رفع إليها وجهًا شاحبًا، وأشار لها أنه طالع الآن.

26

أغسطس، 1994

داود سري، بيت داود، الإسكندرية.

حين دخلت آلاء الغرفة كان داود على مكتبه منهمكًا في الكتابة، طلبت منه دفترًا جديدًا، فلم يرد عليها، لم ينتبه لها أصلًا، حطت كفها الصغيرة على ذراعه فانتفض، رفع رأسه لحظة واحدة ثم عاد إلى الورق، قالت شيئًا لم ينتبه إليه، شعر فقط أن حديثًا ما يشتت انتباهه، نهرها قائلًا بحدة:

- إطلعي برا!

خرجت منكسة الرأس، إنه لا يزال غاضبًا عليها لأنها تسببت في شجار بين أبناء عمها صالح داخل قاعة البيانو، لقد ارتفعت أصواتهم فغضب عليه خريستو وطرده من اللوكاندة!

ورجع إلى أوراقه يراجع ما كتبه حتى الآن قبل أن يستكمل، عليه الانتهاء من تلك الأوراق فورًا حتى يرسلها إلى المحامي، تطلّب منه الأمر دقائق إضافية حتى يرتد عقله إلى الإيقاع ويسترد زخم الكتابة، تلك المرة أيضًا لم يحس بنعمة وهي تدخل الغرفة، ولا حين انتصبت أمامه، ولكن أفكاره تشتتت لما وضعت عدة إطارات خالية أمامه على المكتب وهي تقول:

- بص..

نظر إلى حيث تشير فلم يفهم شيئًا، عيناه ترى وعقله يضطرب بين ما كان فيه وبين عوامل الإلهاء تتدفق عليه من الخارج، قال بصبر نافد:

- فيه إيه؟

- البراويز دي كان فيها صورنا، صورة ليا أنا وأنت شايلين كرم وهو صغير، وصورة كرم لوحده وهو صغير، وصورته وهو شاب، وصورة ليه وهو عريس مع نجوى عروسته..

أحس أن عقله يؤلمه، يود لو يقول لها كما قال لآلاء أن تخرج وتتركه لحاله، ما هذا الذي تقوله أصلًا!

- بعدين، ماشي؟

لكنها كانت مصممة على الاستمرار في إزعاجه!

- الصور سرقتهم نجاة من البراويز، بقالها سنين تسرقهم واحدة ورا التانية، وأنا أكدب

نفسي وأقول بلاش سوء ظن يا نعمة، بس شوف كرم، كرم دايمًا كرم، دي عملاله عمل، أنا خلاص اتأكدت من كده، هي اللي عملت لكرم عمل خلته طفش.

رد عليها هادرًا:

- كرم مات يا نعمة!

ضربت يدها على صدرها وصرخت بصوت مرتجف:

- تف من بقك!

- مات بالنسبة لي..

- أنت عاوز تحرمني من كل عيالي يا داود، الأول مصطفى و...

فقاطعها وهو ينهض من مكانه، ينتفض جسده غضبًا:

- نعمة!

وشعرت كأنه على وشك أن يضربها، كما شعر هو بذلك، وهو لم يضربها قط، فكيف له أن يفعلها الآن، وكان جهادًا أن يحول بين غضبه وبينها، واحتشدت مشاعره في قبضته ينهال بها على سطح المكتب، فتنرحت البراويز الخالية وسقطت، كما تناثرت أوراقه وسارعت نعمة تخرج من الغرفة وجسدها ينتفض بينما تشهق باكية.

راح يدور في أرجاء الغرفة، كيف فاته ذلك كله؟ كيف انطلت عليه الخديعة! لقد كانت خطة خريستو طويلة المدى ولكنها واضحة المعالم، وهو تركه يتلاعب به طوال تلك السنوات! أحمق! لكنه انكشف له وهو لن يهدأ إلى أن يسترد حقه كاملًا، عقله ساخن وشريط أفكاره انفلت من على البكرة، يحرك قدميه يجاهد لاستعادة طرف الخيط، يعود إلى المكتب ويعاود الكتابة:

هام جدًا

ما قام به خريستوفيدس من عقد صفقة شراء شركة خريستو ونعمة وشركاؤهم لإدارة الفنادق المتعاقدة على إدارة فندق متروبول لنفسه بدلًا من مجموعة الشركاء بمبلغ 13500 جنيه، ثم ضغطه على الشركاء لاحتساب قيمة الفندق بمبلغ 16000 جنيه حتى يبرم معهم عقد الشراكة! وبذلك أمكن له تكوين رأسمال وهمي لنفسه بالفرق وزيادة غير مستحقة في نصيبه من الشركة، مع اقتطاع نسبة عالية من الأرباح السنوية من لا شيء، وهكذا لم يقم بالالتزام الأول وهو؛ وفاء بحصة في رأس المال..

كما أدرج بالحسابات مصروفات كاذبة بمستندات مفبركة باعتبارها مصاريف تأسيس كمصروفات السمسرة وأتعاب المحاماة (انظر دوسيه مصاريف التأسيس). وأكثر من ذلك: فقد تمادى في صفاقته بحيث فرض على الشركاء أن يدفعوا له نفس الـ 3000 جنيه عند تصفية الشركة تحت اسم أتعاب التصفية! وهكذا اقتطع من أنصبة الشركاء هذه المصاريف الوهمية عند التصفية لينهب حتى الملاليم التي ادّعى كذبًا أنها حصيلة البيع الصوري للفندق الذي تواطأ فيه مع من سمّاه المشتري.

هل يستطيع أن يقدم مستندات تثبت قيامه بصرف ما ادّعى أنه صرفه؟ بل وهل اعتمدتها الضرائب؟ بالطبع لا، علمًا بأن كل مبلغ صرفه أدرجه بالفعل في حسابات الشركة، وأكثر من ذلك....

ولكن كل ذلك لم يكن ليحدث لولا حيلته الحقيرة لانتزاع حق الإدارة من الشركاء أصحاب الأنصبة الأكبر مجتمعين، مما مكنه من تزوير محاضر لجلسات مجلس إدارة وهمية تدعي إقرارها لتلك المصاريف المخترعة والموافقة على البيع لذلك المشتري الوهمي!

27

أبريل 2018

بيت داود، الإسكندرية.

دخل مصطفى البيت لاهثًا مصفر الوجه، وجد صالح جالسًا على أريكة الصالة يتطلع إليه، سألته نعمة وهي تناوله كوبًا من الماء:

- جرالك إيه؟

كان يشرب فلم يرد عليها بينما تدخل صالح سخر منه:

- وهي تقولك انزل شوف العمل تروح نازل؟ لو مكنتش عايش عمرك كله في أمريكا يا أخي!

وتجاهله مصطفى موجهًا حديثه إلى نعمة:

- جوه فيه جثث حيوانات، والريحة لا تطاق..

- لقيت صورنا؟

- مفيش حاجة.

- دورت كويس؟

وتدخل صالح مقاطعًا:

- يا ماما استعيذي بالله من الشيطان الرجيم!

قالت مستسلمة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بس...

قاطعها صالح:

- مبسش.

ثم نظر إلى مصطفى متسائلًا:

- إيه الكلام اللي سمعته من نجوى ده!

فتبادلت آلاء ومصطفى النظرات، لقد اتصل بنجوى فجرًا، ووعدها أن يأتي إليها بكل

متعلقات كرم، تسأله عن الكتاب الذي سمعت عنه من آلاء، فيطلب منها إرجاء الموضوع إلى أن يلتقوا، لكنها تصر على مناقشته الآن، وحين يفضي لها بفكرته عن عدم إخبار صالح بالأمر تثور عليه ثم تغلق الخط.

- محدش فينا يعرف لسة محتوى الكتاب!

- نجوى بتقول جواه مذكرات بابا وجدو وكرم وصورنا!

- مش بالضبط!

- أمال؟

وهز منكبيه حائرًا ثم قال:

- علمي علمك، اصبر لما نشوف الكتاب وبعدين نفكر..

- أيوه يعني فيه صورنا ولا ما فيهوش؟

- فيه آه، بس مش عارفين..

وقاطعه صالح قائلًا:

- صورنا إحنا ينشروها في كتاب؟ بتتكلموا جد؟ طب هي ونقول صغيرة معندهاش خبرة، إنما أنت يا مصطفى!

قالت آلاء:

- إدينا فرصة نشوف الكتاب طيب الأول!

فرد عليها بنرة حازمة:

- لا، آسف شوفوه براحتكم بس يعني الأمر محسوم، كتاب جواه صور شخصية، وستاتنا زمان ما كانوش غطوا شعرهم، بيوتنا وأوض نومنا، ده ميصحش أبدًا والمذكرات بتاعة باباكي وجدك وبابا سري تتنشر كدة عيانًا بيانًا؟ أنتوا عارفين يعني إيه مذكرات؟ دي بيكون فيها تفاصيل خصوصية ما ينفعش تطلع للناس!

وأحنى رأسه على كرشه الكبير، وأغمض عينيه، وقال بحزم:

- لا يمكن ده يحصل!

وبصعوبة بالغة تمكنت آلاء وكذا مصطفى من ردع نوبة الضحك التي داهمتهما.

28

يوليو، 2018.

آلاء كرم، مطار القاهرة الدولي

هل روض أحدهم الفقد وحشًا وأطلقه عليها هي بالذات؟

في مطار القاهرة الدولي، حيث جاءت تودع مصطفى، كرهت الناس جميعًا، بالأحرى داهمها بغض كريه للبشرية بأكملها، تراقب جموع البشر المنتظرين والعائدين على طائرة الكويت فتشعر أنهم مجموعة من الكليشيهات المستهلكة، زوجات بيضاوات سمينات يجررن ثلاثة أطفال أو أربعة، ينتظرن أزواجهن العائدين من بلاد النفط محملين بالدينارات والأجهزة الإلكترونية، وكأن البلاد لا تزال عالقة في سبعينيات القرن الماضي وما سبقه، يقولون سعودة ويقولون تكويت وتظل المصطلحات عالقة كحد السيف على رقاب البلاد العالقة في الماضي لا تتزحزح بل تتراجع.

وحين تتأمل الناس وتنصت إلى أحاديثهم المستهلكة، تكره التجربة الإنسانية كلها تمقتها وتتقزز منها. لا تجد في قلبها ذرة محبة للبشر ولا لطاحونة الحياة كلها.

ثم تسمع صرخة مدوية، صرخة عالية تشدها من أفكار وتنزع كراهيتها نزعًا تلك السيدة العجوز القصيرة ذات العمود الفقري المقوس، في عباءة سوداء وطرحة ملونه تجري بذراعين مفتوحتين هاتفة:

- ياختي جميلة يا حبيبي يا قلب ماما..

وتتوقع من تلك الكلمات ونغمتها أن ترى السيدة تهرول إلى أحضان طفل ما أو شاب أو مراهق، فإذ بها تعانق رجلًا يضاعفها طولًا ثم تقرص وجنتيه وتقبلها وتقبل جبهته، ويتوالى هتافها بكلمات الدلع التي تقال لرضيع لم يُفطم بعد، وهو يبتسم ويعانقها وتلتمع حدقتا عينيه ولا يتقزز منها بل يعود بالفعل طفلها الصغير الذي لم تفطمه بعد، فهل التجربة الإنسانية لا تزال تفوح نتنًا؟ لا إن تلك السيدة حركت شيئًا ما في صدرها.

ويقطع مصطفى تيار أفكارها قائلًا:

- ليكي هدية عندي..

لقد كانت بحوزته منذ وطأت قدماه الإسكندرية، انفرد به ربيع بعد عزاء داود فمنحه إياه، لم يكن ليعطيه لطفلة بعد ما حل به من تلوث ولا استطاع التخلص منه! مد إليها صندوق

هدايا أسود موشى بنجوم فضية، ومربوطًا أعلاه بعقدة حمراء، طلب منها أن تفتحه، وعندما فعلت لم تفهم ما ترى، عدد من أعداد المغامرون الخمسة؟ ما معنى ذلك! أخذت بين يديها تتأمله، كتاب قديم، غلافه المهترئة أطرافه، مبقع ببقع حمراء باهتة ممتدة إلى حواف صفحاته الصفراء، تطلعت إليه مستفسرة، احتضن كفها الممسكة بالكتاب، ثم مد ذراعيه يشدها إلى حضنه، دمعت عيناها، لو يبقى معها! قال لها فيما يشبه الهمس:

- ده آخر كتاب اشتراه كرم علشانك...

29

أغسطس، 1994

كرم داود، السيدة زينب، القاهرة

بعد أن استقر كرم في مجلسه داخل الميكروباص أشار له ربيع مودعًا ثم مضى مبتعدًا، وبقي كرم في مكانه إلى أن اطمئن إلى ابتعاده فحمل حقيبته ونزل من الميكروباص، عرج على أحد فروع سقارة حيث ابتاع عدة زجاجات من النبيذ.

لقد نظر داخل ذاته فلم يرَ إلا قذرًا، وأيقن أنه بالفعل مرحاض قبيح كريه النفس، ولو أراد أن يكفر حقًّا عن كل ذنوبه فلا سبيل إلا أن يخلص العالم من شروره، لم يعقد العزم تمامًا وإنما أراد أن يكون جاهزًا، وأن ينعم بخلوته بعيدًا عن تطفل ربيع عليه، لقد كان غبيًا حقًّا حين أخبره عبر الهاتف عن تواجده في القاهرة.

نعم لقد جهز عدة الانتحار وخبأها في قاع الدولاب الصغير بحجرة النوم، لكنها فقط خطة احتياطية. وعليه أن يبذل في عزلته تلك كل ما يقدر عليه ليتمكن من فهم نفسه بشكل مبدئي، والخطوة التالية هي مواجهة كل أشباحه وسلخ كل ذلك الجُبن الذي تراكم على جسده عبر السنوات، قالت أنت جبان وصدقت، لا لوم عليها. ولكنه لن يستكمل الحياة جبانًا، لا لن يكون لأطفاله أب جبان، محال! سوف يشحذ سكينًا ويسلخ ذلك الجُبن عن جسده قطعة تلو قطعة، يقول ربيع اذهب وكن جوار أهلك في أزمتهم، وما حاجتهم إلى جبان؟ لو عجزت عن سلخ طبقة الجُبن عن جسدي فلا حاجة بهم إليّ!

ومضى يكتب: *إنه في شهر أكتوبر من العام 1981 ضربني أبي دون اعتبار لكوني رجلًا بلغ الثالثة والعشرين من عمره، وكان قد كف عن ضربي منذ دخلت الجامعة، وتلك الليلة كان عنيفًا عنفًا لم يصدر منه قبلًا، ضربه لنا ونحن صغار لم يتعدَّ التأديب الطبيعي للآباء تجاه ابنائهم، أما تلك الليلة فكأن شيطانًا تلبسه، وانا تلقيت الصفعات والشلاليط دون مقاومة تذكر، كنت أرى أنني أستأهل ما يفعله به عقب ما تلفظ به لساني عن أخي، خرجت من البيت تلك الليلة ولم أرجع إلا وقد أنجبت آلاء، وسوس لي الشيطان بعد خروجي، مصطفى يأبى الرجوع إلى البيت، يقرأ جوابات داود ويمزقها، يريد أن يهاجر، وأنا أريد أن أتزوج من نجوى! وخريستو عرض على أبي سابقًا أن يبيع إليه جزءًا من حصته بالمتروبول فرفض، وهو مستعد للشراء إذًا! لما لا نبيع يا مصطفى؟ أنت تهاجر وأنا أتزوج وأنشئ مشروعًا فيكبر ويرضى عني داود!*

وشعر وهو يكتب أنه وحيد، تخايل له ربيع بوجهه الأسمر الطيب وصوته العذب، أحس أنه

يفتقده، لكن لا، عليه أن يتماسك، والكتابة شديدة الوطأة، وأخذ يخفف من ثقل الوحدة بالإفراط في الشرب والتدخين، وكلما زاد؛ ثقلت عليه الوحدة أكثر، ولكن الكتابة نفسها صارت سلسة وكأن الكلمات تكتب نفسها، وتمثلت له الورقة مرآة تكشف عن مكنونات نفسه، ولم يحب ما رأى ولكنه صمم على الاستمرار، وأحس بالغرفة تتسع من حوله وانفتحت له بوابات على أزمنة موازية، رأى اللافتة تومض «للعاملين فقط» ولكنه مد يده وفتح الباب وبالداخل رأى كاميليا امرأة تجلس فوق الأستاذ عطية والرجل سكران بالنشوة، لفت رأسها تنظر إليه ثم ابتسمت وغمزت وعاد رأسها إلى الأمام، وارتفعت ذراعها عاليًا، ولمع السكين بين أصابعها، صرخ فزعًا وهو يراها تقطع ذكر الأستاذ عطية الذي لم يبدُ عليه أنه أحس بشيء أو أفاق من نشوته، قامت من فوقه وفي إحدى كفيها ذكر الرجل وفي الأخرى سكين، وقد تلوث جسدها العاري بالدماء، تمسح الدماء عن فمها وتنظر إليه ضاحكة وتخطو نحوه وقد لاح في عينيها تهديد ويفزع ويركض ويسمع صوت كعبها يدق أسفلت الشارع المظلم، يرى نجوى آتية من ناحيته وهي تحمل يوسف على ذراعها باكيًا، يرى دهشة على ملامحها، ينظر إلى جسده فيكتشف أنه عار، تتهمه نجوى بخيانتها حين ترى كاميليا عارية هي الأخرى إلا من حذاء أحمر اللون، ولا يرى آثار الدماء عليها، تركض نجوى مبتعدة فيركض خلفها ليحاول أن يشرح لها ما حصل، يراها تقف فوق الصخور أمام البحر، تريد أن تلقي بيوسف يصرخ عليها أن لاااااا ولكنها لا تسمعه، ويراها في الجامعة، معيدة وهو طالب، تشرح ولا يسمع بل يتأمل ملامحها وجسدها، يشتهيها فينتصب ذكره ويلحظه جميع من في المدرج ويشيرون إليه ساخرين منه، ينهض يرغب في الهروب، فيجد أن داود هو من يقف مكان نجوى، يحملق فيه بعينين جاحظتين من فرط الغضب، ينتبه إلى مبنى المتروبول بين يديه، ثم يرى نجوى تنظر إليه بعينين لائمتين، يجري إليها وهو يحمل المبنى الذي ثقل على ذراعه، يخشى أن يفلته فيتهدم، تقف نجوى أخيرًا وتشرع في خلع ملابسها قطعة وراء قطعة، يشعر أنه على وشك أن يقذف حين تظهر نعمة إلى جوار نجوى، تصرخ فيها وتنهرها، يعجز عن صد المني، يتدفق منه شلال يملأ الدنيا من حوله، يرتفع تدريجيًا حتى تختفي الموجودات جميعًا، ويرى آلاء ويوسف يسبحان داخله بصعوبة، يعجزان عن الطفو، يحاول عبثًا أن يسبح نحوهما لكنهما يغرقان، يبكي وينتبه على صوت نواحه إلى الغرفة من حوله، ينظر إلى أوراقه فلا يجد إلا سطورًا لا معنى لها ثم الكثير من الرسومات العجيبة والشخابيط، ونظر إلى آخر ما كتب قبل أن يغيب عن الوعي: وخريستو عرض *على أبي سابقًا أن يبيع إليه جزءًا من حصته بالمتروبول فرفض، وهو مستعد للشراء إذًا! لمَ لا نبيع يا مصطفى؟ أنت تهاجر وأنا أتزوج وأنشئ مشروعًا فيكبر ويرضى عني داود!*

وقال لنفسه ولكني بريء! ألم يكن مصطفى هو من واتته فكرة البيع لخريستو؟ صه

اسكت، أنت تفر حتى من مواجهة ذاتك، أنت من فكرت في البيع، قلت ستتزوج نجوى **وتنشئ لنفسك مشروعًا ولما ينجح يرضى داود عنك، ففشلت وراحت نقودك! ورضي هو عنك لأجل خاطر حفيدته الأولى.** ولكني فعلتها لأجل صالحه! لم يكن له حياة في البلاد! كف! لقد جئت هنا كي تخلع عنك رداء الحجج الواهية، لن تنجو نفسك إلا باعتراف! هيا قم واكتب! وتمثل له داود منتصبًا بقامته الفارعة وعينيه العميقتين اللائمتين، فرفع إليه رأسه وجمدت الكلمات على لسانه وتهاوى فأرًا يقوض أساسات البيوت ثم يهرب من أمام الطوفان، ويغرس سن قلمه في الورقة ويحفر اعترافه وهو جاثٍ تحت قدميه، رفع إليه الأوراق قائلًا: اقرأ. فقال داود بصوته العميق: ما أنا بقارئ، ما أنت بابني، لم ألد جبانًا، ولد مشروع المتروبول يوم ميلادك، فليكن موتك يوم موته! وأعرض عنه قرفانًا. وراح كرم يخبط رأسه بالبلاط وهو يسح دموعًا غزيرة. وانطفأت الرؤى جميعًا.

وداهمته غفلة لم يرَ خلالها أحلامًا، وحين صحا ورأى الأوراق سودت والاعترافات وثقت، **قام يلم الأوراق ومشى على مهل حتى بلغ الدولاب، ضم أوراقه إلى أوراق داود وسري داخل الصندوق في الضلفة السرية، وأخذ منها عدة الانتحار ثم عاد إلى الصالة.** جلس القرفصاء يدخن على مهل وهو ينظر من خلال شباكه إلى السماء، كانت سوداء خالية من أي نجوم، ألا يبدو الفراغ الأسود مغريًا، حاملًا لكل الاحتمالات المستحيلة منها على الأخص؟ وشيئًا فشيئًا حين حلت به سكينة مريحة ومغرية، شعر أنه قطع نصف الطريق نحو لذة الفراغ، وليس عليه إلا أن يقطع النصف الآخر.

ورغم كونه سكران إلا أن الخطوات بدت له يسيرة إلى حد أدهشه، اعتلاء السلم الخشبي القديم المبقع بكل ألوان الطلاء، تركيب الحلقة المعدنية في السقف، صنع عقدة الشنق بالحبل وتركيب الحبل ليتدلى من الحلقة.

انتهى من كل شيء، وتربع على البلاط يراقب بفخر العقدة التي تتحرك بخفة من جهة إلى أخرى مثل بندول الساعة العتيقة في بيت داود، تيك توك.. تيك توك، ثم شرب ودخن المزيد. والسكينة تنثال وتفترش صدره مثل بقعة حبر بيضاء، كل الألوان مضت تتلاشى والجدران تذوب، والعالم ينفرد حوله قطعة من الورق الأبيض الخالية تمامًا من أي أسطر أو بقع، لا شيء هنالك إلا عقدة حبله تتحرك خفيفًا من اليمين إلى اليسار، تيك توك.. تيك توك..

صعد السلم، دس رقبته في الحبل، رأى عدد المغامرون الخمسة فجأة، هناك على الأرض فوق الحاشية التي فرشها فرج البارحة، ومضت الصور برأسه المؤطر بالحبل، آلاء، يوسف، نجوى، جبان، جبان، جبان، لا لن يفعلها، يعيش جبانًا ويموت جبانًا! سوف يعود إلى أولاده، ثم يكون الرجل الذي تستحقه نجوى! دفع الحبل بعيدًا عن رقبته، عاد ينزل درجات السلم،

جلس على الأرض وتناول الكتاب ففتحه وأراد أن يكتب اسم آلاء على الصفحة الأولى، بحث حوله فلم يجد قلمًا، قام يبحث عن قلم فرأى واحدًا على الرف الأخير عند نهاية السلم، عاد يصعد الدرجات حتى صارت العقدة أمام رأسه، ليس هنالك قلم، ماذا كان يفعل هنا؟ عليه أن يموت لو أراد الحياة، سوف يولد من جديد إنسان تخلص من رذائله، وضع رقبته في الحبل، رأى القلم أمامه على الأرض والكتاب بين يديه، مد راحته يتناول القلم، رأى الحبل الذي دفعه بعيدًا عن رقبته يتأرجح في الهواء جيئة وذهابًا،هم بالنزول، الآن سوف يكتب اسمها على الصفحة الأولى، نظر إلى موضع قدمه من السلم، لطمه الحبل في وجهه، كاد يتعرقل، القلم يفر منه متدحرجًا على البلاط، يطارده على أربع، ويرى عقدة الحبل تهتز أمام رأسه، تريد أن تقبض عليها، يدفعها بعيدًا فتعود، تخبطه في رأسه فيتعرقل ويسقط، يجلس القرفصاء، يمسك بالحبل ليثبته حول رقبته ويتلفت حوله فلا يرى الكتاب، لمَ التردد؟ نفذ، نفذ، نفذ، يهتف الصوت عاليًا مغلقًا الغرفة من حوله، يتناول الحبل ويضعه حول رقبته، يتأرجح الحبل وتدق الساعة على حائط بيت داود اثنتي عشرة دقة، يرتطم رأسه بالبلاط، يكتب الاسم في الصفحة الأولى من الكتاب، تنساب الدماء من رأسه نهزا نحيلًا يلامس طرف الكتاب ثم يتسرب بين أوراقه!

---

(1)- من قصيدة "على هذه الأرض" للشاعر محمود درويش.

(2)- النص للكاتب محمد مصلح.

أنتهيت من قراءة كتاب:

غواية الفناء - ما تبقى من سيرة أبناء سري الجن

دار صفصافة للنشر

قيم الكتاب

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

شارك هذا الكتاب